سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٢٣)

شرح أصول الإيمان

للإمام / محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولشايخه

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

شرح أصول الإيمان

شرح

أصول الإيمان

ح مؤسسة التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المجلهم، سلمان بن جابر بن عثمان

شــرح أصــول الإيــمــان للشيخ محمد بن عبد الوهــاب، /

سلمان جابر المجلهم، - الرياض، ١٤٤٠ هـ

٤٧١ ص، ١٧/٢٤ سم

ردمك: ٩-٩-٩١١٨٢-٦٠٣-٩٧٨

١- الإيمان (الإسلام) أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٠/٧٨٢٩

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٧٨٢٩

ردمك: ٩-٩-٩١١٨٢-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبْعَة الثَّانِيَة

(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦

فرع المصاحف: ت ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجهراء: الناصر مول: تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨

فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس - تلفون: ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

فرع الرياض: المملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال ٥٥٧٧٦٥١٣٨ ٠٠٩٦٦

الخط الساخن: جــوال: ٩٤٤٠٥٥٥٩ ٠٠٩٦٥

z.zahby74@yahoo.com imamzahby

شرح أصول الإيمان

للإمام/ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:

فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم، بطباعة كتابي: **شرح أصول الإيمان للإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.**

رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

في ٢١/٢/١٤٤٠هـ

مُقَدِّمَـةُ النَّاشِـرِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فهذا شرح شيخنا العلامة المفضال صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان -رفع الله مقامه في الآخرة- لكتاب أصول الايمان، من تأليف الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وقد ذكر الامام محمد بن عبدالوهاب آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة عظيمة، وجعل لها أبوابا تحوي أصول الايمان، فابتدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر باب معرفة الله تعالى والايمان به، وذكر باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، وذكر باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، وذكر باب الايمان بالقدر، وذكر الملائكة والايمان بهم، وذكر الوصية بكتاب الله تعالى، وذكر باب حقوق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وذكر تحريضه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على لزوم السنة، وذكر باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب، وقبض العلم، وباب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال، وختم بذكر التجوز في القول وترك التكلف والتنطع، وصفة كلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، والكتاب مشحون بقضايا علمية في غاية الأهمية للمسلم على وجه العموم، ولطالب العلم والهداية على وجه الخصوص، وقد بنى الامام المجدد محمد ابن عبدالوهاب كتابه على آيات الكتاب العظيمة وأحاديث النبي الشريفة الحكيمة؛ كما هي عادة الامام محمد التميمي بدعوة الخلق إلى الكتاب والسنة

ونشر المعاني الصحيحة وترسيخها في قلوب الناس وعقولهم، حتى يكونوا من أهل النجاة في الدنيا والآخرة، جعلنا الله منهم برحمته وفضله جَلَّجَلَالُهُ، وختم لنا بالصالحات!

وإننا نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي من علينا وأكرمنا بالإيمان أن يجزي الامام المجدد محمد بن عبد الوهاب مع شيخنا العلامة صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان خير الجزاء، وأن يكتب لهما خير الثواب وحسن المآل في الدنيا والبرزخ والآخرة، ونحن معهم برحمة أرحم وخير الراحمين.

وقد طبع الكتاب على نفقة الشيخ أبي عبد الرحمن: مساعد بن علي الشايجي، والشيخ أبي وائل: محمد بن أحمد الفرحان وزوجته الكريمة، غفر الله لهم، وتقبل منهم، وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

ومما يشار إليه أن طباعة هذا الكتاب، وريعه والعائد من بيعه، وكل ما بذل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبل الله من الجميع.

والله أعلم وأعظم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاهُ، أمّا بعد:

فإنَّ الإيمان هو أحد مراتب الدين؛ لأن دين الإسلام على ثلاث مراتب؛ كما جاء ذلك في حديث سؤال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث سأله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ولما انتهى وخرج، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»(١)، وكان قد أتاهم في صورة رجلٍ طالبٍ للعلم، فدلَّ هذا الحديث على أن الدِّين يتكون من ثلاث مراتب:

الأولى: الإسلام.

الثانية: الإيمان.

الثالثة: الإحسان.

وكلُّ مرتبة أعلى من التي قبلها، والمقصود الآن هو المرتبة الثانية، وهي الإيمان، فقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أصول الإيمان)؛ أي: أدلَّته؛ لأن الأصل عند الأصوليِّين هو الدَّليل(٢)، ففي هذا الكتاب ذكر الشيخ فيه أدلة الإيمان من الأحاديث الواردة عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم (١) (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة (١/ ١٢٣)، ورفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (١/ ٢٤٤)، وتحفة المسؤول في شرح مختصر منتهى السول (١/ ١٤٥)، والفوائد السنية في شرح الألفية (١/ ١٢٠).

والإيمان في اللغة: التَّصديق، يقال: آمَن له؛ أي: صدَّقه، وكذا في قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت:٢٦]؛ أي: صدَّقه، حيث صدَّق لوطٌ إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمصدِّق لِما قلناه لك. هذا مفهوم الإيمان لغة(١).

وأما الإيمان شرعًا: فقد عرَّفه أهل السُّنة والجماعة بأنه: قولٌ باللسان، واعتقاد في القلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية(٢). وهذا التعريف مأخوذ من الكتاب والسُّنة، فتعريفه بهذا التعريف إنما هو من باب الحقيقة الشرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عُرفية(٣).

والحقيقة الشرعية هي التي جاء بها الشرع(٤)، وقد جاء الشرع في أنَّ الإيمان يتكون من هذه الأشياء الثلاثة: نُطقٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، ولابدَّ من اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٢١)، ومقاييس اللغة (١/ ١٣٣)، ومختار الصحاح (ص١١)، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٦٩). وانظر مبحث في معنى الإيمان في اللغة في: كتاب الإيمان الأوسط (ص٧٧) لشيخ الإسلام ابن تيمية، والإيمان الكبير (ص٢٧٥ وما بعدها).

(٢) انظر: لمعة الاعتقاد (ص٢٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٤).

(٣) انظر: ميزان الأصول في نتائج العقول (١/ ٣٧٧)، وروضة الناظر (١/ ٤٩٢، وما بعدها).

(٤) **الْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ**: هِيَ اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِيمَا وُضِعَ لَهُ أَوَّلًا فِي الشَّرْعِ. انظر: التحصيل من المحصول (١/ ٢٢٤)، وشرح مختصر الروضة (١/ ٤٨٨)، وبيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب (١/ ٢١٥).

فليس الإيمان هو نطق باللسان فقط -كما تقول الكَرَّامية[١]-، وليس هو اعتقاد بالقلب فقط -كما تقول الأشاعرة[٢]-، وليس هو النُّطق باللسان والاعتقاد بالقلب -كما تقول الحنفية[٣]-، وإنما هو بمجموع الثلاثة معًا: نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ فإذا عمل الإنسان الطاعات، زاد إيمانه، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]؛ وكلَّما عمل الإنسان طاعةً، زاد إيمانه، حتى يعظُم هذا الإيمان،

---

(١) هو محمد بن كَرَّام بفتح الكاف وتشديد الراء، وهو الذي تنسب إليه الفرقة الكرامية، وقد نسب إليه جواز وضع الأحاديث على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وكان يقول: الإيمان هو نطق اللسان بالتوحيد مجرد عن عقد قلب وعمل جوارح، توفي سنة ٢٥٥هـ. انظر: المنتظم (١٢/ ٩٧)، وتاريخ دمشق (٥٥/ ١٢٧)، والسير للذهبي (١١/ ٥٢٣)، والبداية والنهاية (١١/ ٢٠)، والأنس الجليل (١/ ٢٩٦)، وشذرات الذهب (٢/ ١٣١).

(٢) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. اهـ.

انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

(٣) راجع كتاب الإيمان من مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٠)، وما بعدها.

وكلَّما عمل معصية، فإنه يضعف إيمانه، وينقص، حتى إنه ليصل إلى مقدار حبَّة الخردل أو أقلَّ كلما ازداد في عمل المعاصي.

فالناس ليسوا في الإيمان سواء، فمنهم مَن إيمانه عظيم، ومنهم من إيمانه قليل، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)؛ فدلَّ هذا على أنَّ الإيمان يكون ضعيفًا، ويكون أضعف.

وكذلك جاء في الحديث أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»(٢)؛ يعني: أقلّ الناسِ إيمانًا، فإنه يخرج من النار، ولا يبقى في النار إلا من ليس في قلبه إيمانٌ أصلًا، من الكفار والمنافقين والملاحدة، وأما من كان في قلبه إيمان -ولو عُذِّب في النار، ومكث فيها مدَّة-، فإنَّ الله يخرجه منها بإيمانه، ولو كان ضعيفًا(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢، ٦٥٦٠)، ومسلم (٣٠٤) (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) وقد نقل الإجماع على ذلك أكثر من واحد من أهل العلم، فقد قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: (لقد طفت الأمصار، ولقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم كلهم يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص) اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٧٣، ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ٥٨، ٥٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٧، ٤٠٨)، وذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢١٧)، وابن حجر في الفتح (١/ ٤٧). وقال أيضًا: (كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل) اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٨٨٩)، وذكره ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧٩).
ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع عن الشافعي، انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣٠٨). =

والشاهد من كل هذا: هو بيان أن الإيمان قد يكون ضعيفًا؛ قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧]، فدلَّ هذا على أنَّ هناك إيمانًا ضعيفًا يكون أقرب إلى الكفر، هذا معنى قولهم: (وينقص بالمعصية)، وهذا تعريف دقيق مأخوذٌ من النصوص.

والإيمان له أركان، بيَّنها النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

والإيمان كذلك له شُعب تزيد على ستين أو سبعين شعبة؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(٢)، فشُعب الإيمان وخصاله كثيرة.

وهذا الكتاب يبيِّن فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ورد عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خصال الإيمان وشُعبِهِ.

وأول هذه الشُّعب: معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك بأن يعرف العبد ربَّه بأسمائه وصفاته الواردة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله تعرَّف إلى عباده بأسمائه وصفاته، وهو أعلم بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فما سمّى الله

= وقال ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٣٨): (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان) اهـ.

(١) سبق تخريجه (ص٧).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٥٧) (٣٥) -واللفظ لمسلم-، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تعالى به نفسَه وجب الإيمان به، وبه يُعرف جَلَّوَعَلَا، فمثلًا يُعرف تعالى بأنه الله الذي لا إله إلا هو الحيّ، القيوم، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم، فهذه كلها أسماء لله جَلَّوَعَلَا، وأما صفاته، فكل اسم من أسمائه يتضمَّن صفة، فالعليم يتضمَّن العلم، والحكيم يتضمَّن الحكمة، والرحيم يتضمَّن الرَّحمة، والكريم يتضمَّن الكرم، والعظيم يتضمَّن العظمة، وهكذا...، فأسماء الله تعالى ليست أسماء مجرَّدةً، وإنما هي أسماء حُسنى وعظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فوصفها بأنها حُسنى، فكل اسم منها يتضمَّن صفةً من صفاته جَلَّوَعَلَا، حيث قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ فالإنسان يعرف الله جَلَّوَعَلَا، ويدعوه بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذه الأسماء والصفات توقيفية، فلا أحد يسمي الله إلا بما سمّى به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نفسَه، أو سمّاه به رسولُه، فلا أحد أعلم بالله من الله جَلَّوَعَلَا، ولا أحد أعلمُ بالله من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فلذلك لا يجوز وُصفُ الله تعالى أو تسميته إلا بما ورد في كتاب الله جَلَّوَعَلَا، وسُنَّة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا أعلمُ بنفسه وبغيره، وأحسنُ حديثًا من خَلْقه، فنحن نعرف الله بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قَالَ الْإِمَامُ الْمُجَدِّدُ -شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ، أَجْزَلَ اللهُ لَهُ الْمَثُوبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ-: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

١- بَابُ مَعْرِفَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالْإِيمَانِ بِهِ

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشَّرح

هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهو ما يرويه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّه، فلفظه ومعناه من الله جَلَّ وَعَلَا، فتكلَّم الله به ورواه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلَّغه لأُمته(٢).

وقوله: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فيه إثبات القول والكلام لله تعالى، وهذه صفة من صفاته جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ» فيه إثبات الغِنى لله عَزَّوَجَلَّ، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٦٨]؛ فالله تعالى غنيٌّ عن خَلقه، لا يحتاج إلى مُعينٍ، ولا إلى شريك، ولا إلى ظهير،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦) (٢٩٨٥).

(٢) انظر: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (١/ ٦٤- ٦٧)، والنبذة العثيمينية في مصطلح الحديث (١/ ٥).

فهو غنيٌّ عن خَلقه، وخلقهُ محتاجون إليه؛ قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فهذا فيه وصف الله بالغنى، وفيه نفي الشِّرك عنه جَلَّوَعَلَا؛ إذْ ليس له شريك في الملك، وليس له شريك في العبادة، ولا في أسمائه وصفاته، فالله واحد أحد، فَرْد صمد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤]، هذه صفة الله جَلَّوَعَلَا، ولما قال المشركون للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (صِفْ لَنا ربَّك)، أنزل الله هذه السورة[(١)].

ففي هذا تنزيهُ الله تعالى عن الشِّرك، وأنَّ العمل الذي يقع فيه الشِّرك لا يتقبَّله الله؛ ولهذا قال -كما في هذا الحديث القدسي-: «تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، فالعمل الذي فيه شرك لا يقبله الله تعالى، وهو مردود على صاحبه وباطل،

---

(١) قال ابن جرير رَحِمَهُاللَّهُ: (عَنْ سَعِيدٍ، قَالَ: أَتَى رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا اللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَهُ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَتَّى انْتَقَعَ لَوْنُهُ، ثُمَّ سَاوَرَهُمْ غَضَبًا لِرَبِّهِ؛ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَسَكَّنَهُ، وَقَالَ: اخْفِضْ عَلَيْكَ جَنَاحَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَجَاءَهُ مِنَ اللهِ جَوَابُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤] فَلَمَّا تَلاهَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالُوا: صِفْ لَنَا رَبَّكَ؛ كَيْفَ خَلْقُهُ، وَكَيْفَ عَضُدُهُ، وَكَيْفَ ذِرَاعُهُ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَاوَرَهُمْ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، وَأَتَاهُ بِجَوَابِ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾) انظر: تفسير ابن جرير رَحِمَهُاللَّهُ (٢٠/ ٢٥٢، ٢٤/ ٧٢٨).

فهو سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وكان صوابًا على سُنّة نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية (ص٥٠-٥١) قال: حَدَّثَنَا مُحْمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ شَقِيقٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا، لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ.

[إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ]

٢ - عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرْح

هذا حديث عظيم، فيه تعريفٌ بالله جَلَّ وَعَلَا، فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ»، فقد نفى الله تعالى عن نفسه النوم في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ لأن النوم موتة صغرى، ولأن النَّوم ضعف في النائم، والله يُنزَّه عن ذلك، وذلك لكمال حياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فهو سبحانه لكمال حياته ولكمال قيُّوميَّته ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾، وهي النُّعاس الخفيف، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ مُستغرَق، فهو سبحانه منزَّه عن ذلك؛ لأن النوم من صفات البشر والمخلوقين، وهو صفةُ نقصٍ.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»؛ يعني: لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينام؛ لأنه الكامل في حياته وقيُّوميَّته جَلَّ وَعَلَا، فهو منزَّه عن هذه الصفة، فلا ينبغي له أن ينام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣) (١٧٩).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ**»، قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْفِضُ الْقِسْطَ**» بمعنى أنه ينزِّل على عباده أرزاقهم وما كتبه سبحانه لهم، والقِسط: العدل والميزان، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيَرْفَعُهُ**»: بمعنى أنه يُرفع إليه العمل الذي اكتسبه بنو آدم، والله جَلَّ وَعَلَا دائمًا هذه صفته، يُنزِّل الأرزاق والمقادير على عباده، وتُرفع إليه الأعمال، خيرُها وشرُّها، صالحها وسيِّئُها؛ فهذا فيه تنزيه الله سبحانه عن النَّوم، ووَصفُه بالحياة الكاملة، ووصفُه جَلَّ وَعَلَا بأنه يدبر أمور الخَلق، ويُحصي أعمالهم؛ ليُجازيَهم بها يوم القيامة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ**»، هذا من عمل الحَفظَة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وفي الحديث: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(١)، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]؛ أي: محضورًا، تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر -كما في الحديث-، ولهذا كانت هاتان الصلاتان أفضل الصلوات الخمس، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [ق:٣٩]؛ أي: الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، أي: العصر، ففيهما فضيلة على غيرهما؛ لحضور الملائكة فيهما.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٢١٠) (٦٣٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»، هذا فيه وصف الله جَلَّ وَعَلَا بالنُّور؛ والنُّور على قسمين:

القسم الأول: نورٌ هو من صفات الله جَلَّ وَعَلَا؛ أي: نور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

القسم الثاني: ونورٌ مخلوق، كنور الشمس ونور القمر.

وهناك نور آخر، وهو نور الوحي؛ فالله جَلَّ وَعَلَا هو النور، ومنه النور، ونور الله جَلَّ وَعَلَا قد حَجَبه عن رؤية عباده له؛ لأنهم لايستطيعون رؤيته جَلَّ وَعَلَا في الدنيا، ولو تجلى لشيء من خلقه، لاحترق، وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -لما جاء لموعد الله له يتلقى منه التوراة- أوضحُ الدليل على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فهذا الجبل الجماد الصّلب لما تجلّى الله له، اندكَّ، وصار ترابًا، وعندها ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾، أي: مغشيًّا عليه، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يرى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن حجابه النور، وفي ليلة المعراج سئل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: **نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»(١)؛ وذلك لأنه سبحانه حجابه النور، فلا يراه أحد في هذه الدنيا -لا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره-؛ إذ الخلق لا يستطيعون رؤيته لعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال:

(١) أخرجه مسلم (٢٩١) (١٧٨) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«**لَوْ كَشَفَهُ**»؛ أي: لو كشف الحجاب «**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ**»؛ أي: نور وجهه وجلاله «**مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».

فهذا فيه: وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّ له حجابًا يحتجب به عن المخلوقات؛ لأن المخلوقات لا تطيق رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الدنيا.

وفي الحديث: إثبات البَصَر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»، ولقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]. فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرى ويُبصر عباده، فلا يحجبه عنهم شيء -لا جدران، ولا حصون، ولا ظُلمة، ولا ستائر، ولا أيُّ شيء-، فيراهم أينما كانوا.

فهذا الحديث حديث عظيم فيه إضافةً إلى ما سبق:

* وصفُ الله جَلَّوَعَلَا بأن له حجابًا، وأنه نور، وأنه لو كشف هذا الحجاب، لاحترق ما ينتهي إليه بصره من خلقه، وبصر الله جَلَّوَعَلَا لا يحجبه شيء.

* وفيه بيان الحكمة من الحجاب، وهي -كما جاء في هذا الحديث- خشية أن يحترق ما انتهى إليه بصره سبحانه من خلقه.

* وأن المخلوقات لا تستطيع مقابلة جلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعظمته، وأما في الآخرة، فإن الله جَلَّوَعَلَا يُعطي أهل الجنة قوة يستطيعون بها رؤيته سبحانه، وهذا من إكرامهم لما عبدوه في هذه الدنيا ولم يَروْهُ، بل عبدوه إيمانًا به سبحانه، فأكرمهم الله بأن يتجلى لهم يوم القيامة في الجنة، ويرونه جَلَّوَعَلَا،

فيرونه في عرَصات القيامة[١]، ويرونه في الجنة[٢]؛ لأنه سبحانه يعطيهم قوة ليست لهم في هذه الدنيا، وإنما هي لهم في الآخرة، فيستطيعون بها رؤيته سبحانه، ويتلذَّذون بها، وهذا من إكرامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم.

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٢) (١٩٣)، و(٣٢٦) (١٩٢) بلفظ أتمّ، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (٣٢٧) (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢) (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «...**فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا....**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٧) (١٨١) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ**».

[إِثْبَاتُ أَنَّ للَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَمِينًا]

٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَالقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ» أَخْرَجَاهُ[1].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه وصفٌ لله جَلَّ وَعَلَا بأنَّ له يدين، وهو سبحانه أثبت هذا في القرآن الكريم، فقال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] أي: لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، خلقه الله بيديه، ففيه إثبات اليدين لله، وأن له يمينًا.

وفيه وصف الله تعالى بالجود والكرم، وأنه هو الذي ينفق على عباده، فيَمينه «**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، والسَّح: الصَّبُّ الدائم[2]؛ أي: دائمة بالعطاء والجود والكرم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**» أي: لا تنقص خزائنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإنفاق؛ لأنه الغني؛

---

(١) حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورد بألفاظ متقاربة، رواه البخاري (٤٦٨٤، ٧٤١١) بلفظ: «**يَدُ اللهِ مَلأَى**»، وفيه: «**وَبِيَدِهِ المِيزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ**»، ورواه مسلم (٣٧)(٩٩٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى القَبْضُ**»، وكلاهما ليس فيه «**الْقِسْطَ**».

وروى نحوه ابن ماجه (١٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُ**».

(٢) انظر: مادة: (سحَّ) العين (٣/ ١٦)، وتهذيب اللغة (٣/ ٢٦٤)، ولسان العرب (٢/ ٤٧٦).

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧]، فجميع الأرزاق التي للآدميِّين وللبهائم وللحشرات وللطيور وللوحوش كلها من رزق الله وإنفاقه على مخلوقاته، وعلى كثرة هذا الإنفاق لا ينقص ما عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بخلاف المخلوق، فإنه وإن كانت عنده ثروة هائلة، فإنه إذا ما أنفق منها، فإنها تنقص، حتى تنفد؛ قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦].

وفي هذا الحديث: إثبات اليد لله ووصفها باليمين، وجاء أيضًا وصف الأخرى بالشمال(١)، وكلتا يديه تعالى يمين(٢)، فهي شمال ليست كشمال المخلوقين، بل هي شمال وهي يمين -أيضًا-، واحدة من يديه سبحانه فيها الإنفاق على العباد، والأخرى فيها القسط.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَمِينُ اللهِ مَلْأَى**» أي: يده سبحانه ملأى بالرزق والخير «**لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**»؛ أي: لا ينقص مما في يمينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما ينفق على عباده.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤) (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**».

(٢) أخرجه مسلم (١٨) (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** عَزَّ وَجَلَّ، **وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» سحاء؛ أي: كثيرة العطاء الذي لا حدَّ له، فعطاؤه مستمر ليلًا ونهارًا، فلا يعطي في وقت ويمنع في وقت آخر كالمخلوقين، فعطاؤه دائم في جميع اللحظات والساعات.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**»، هذا تقريب لبيان سعة الرزق وكثرته من الله عَزَّوَجَلَّ وغناه، وأنه مع كثرة إنفاقه فإنه لا ينقص ما في يمينه ولا مما في خزائنه، بخلاف المخلوقين؛ فإنهم إذا أنفقوا، فإنه ينقص مما عندهم، فينفد، فإذا تأمَّلت هذه المخلوقات في البر والبحر، وجدتَ أنها كلها تعيش من رزق الله، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فهو سبحانه ينفق على هذه المخلوقات منذ خلق السماوات والأرض، فلم ينقص ذلك مما عنده شيئًا، ولم ينقطع رزقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مخلوقاته، فهذا دليل على كمال غناه، وأن هذا الإنفاق في هذا الزمان الطويل لم يُنقص ما في يمينه جَلَّ وَعَلَا.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**»، هذا فيه بيان أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَدَين؛ اليد اليمنى فيها العطاء والكرم والجود والإنفاق على عباده، والثانية فيها القسط والعدل، «**وَيَخْفِضُ**»، أي: يرفع، ويخفض المقادير، ويُنزلها على عباده، ويرفع أعمالهم ويُحصيها.

[عِلْمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

٤- وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَأَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

الشَّرْح

هذا الحديث فيه وصفُ الله تعالى بالعلم، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدري ما يدور بين مخلوقاته، حتى الذي يكون بين البهائم.

فقوله: «**رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟**»؛ أي: ما السبب الذي جعل بينهما هذا التضارب والتدافع؟ فقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا**»، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي**»؛ أي: الله يعلم ما بين هاتين الشاتين، وإذا كان هذا في الشاتين، ففي غيرهما من باب أولى، فهو سبحانه يعلم ما يدور بين العباد من الاختلاف والنِّزاع والشِّقاق، لا يخفى عليه شيء، وأنه تعالى يحكم بينهم يوم القيامة، حتى إنه جَلَّ وَعَلَا يحكم بين البهائم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]، فالوحوش

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٥/ ٣٤٥)، ولفظه: «وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا»، وأبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ٦٥)، والطبري في تفسيره (٧/ ١٨٩)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٢): (وفيه راوٍ لم يُسم)، وأشار الدارقطني في العلل (٦/ ٢٧٢) إلى عدم ثبوته، لكن جاء ما يدل على بعض معناه عند مسلم وغيره (٦٠) (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**قَالَ: لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**».

تُحشر، وتُبعث يوم القيامة، ويقتص من بعضها لبعض؛ كما قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»(١)، فإذا جرى القصاص بين الحيوانات، قال الله جَلَّوَعَلَا لها: (كوني ترابًا)، فتكون ترابًا(٢)، فهي تُبعث من أجل القصاص فيما بينها، وإذا كان القصاص والحكم بالعدل يجري بين البهائم فبين غيرها من باب أولى، وهذا من عدله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والحديث فيه صفتان من صفات الله:

الصفة الأولى: علم الله جَلَّوَعَلَا بما يجري بين المخلوقات على اختلاف أصنافها.

والصفة الثانية: الحكم؛ حيث إنه جَلَّوَعَلَا يحكم يوم القيامة بين الناس وبين الحيوانات، فيقضي بينهم، ويُنصف المظلوم من الظالم.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠) (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٥٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَّاءَ مِنَ الْقَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى، قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**».

[إِثْبَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِلَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ]

٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] **إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨]، **وَيَضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَى أُذُنَيْهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنَيْهِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ**(١).

الشَّرح

الأمانات: جمع أمانة، وهي كل ما أؤتمن عليه من الأموال والأسرار والأعمال المسندة إلى المؤتمن، وكلُّ المسؤوليات أمانة، فليست الأمانة خاصة بالوديعة -كما يفهم بعض العوام-، بل الأمانة عامة في كل ما يُؤتمن عليه؛ فعلى الإنسان أن يؤدِّي ما استُحفظ عليه إلى من ائتمنه، وألا يخون الأمانة؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون:٨]، فهي أمانة بين العبد وبين الله، وبين الفرد وولي الأمر، وبين الفرد وبين الناس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٥)، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَقَدِ احْتَجَّ مُسْلِمٌ بِحَرْمَلَةَ بْنِ عِمْرَانَ وَأَبِي يُونُسَ، وَالْبَاقُونَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَاهِدٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ).
كما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٨٧)، وقال ابن بطة في الإبانة (٣/ ١١٧): (صحيح ورجال أبي داود ثقات رجال مسلم)، وقال اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٥٤): (وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ يَلْزَمُهُ إِخْرَاجُهُ).

أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨]، والآية عامة في كلِّ ما يتعلق بموضوع الأمانات، وإن كانت نازلة في الوظائف، وبأنه يجب على ولي الأمر أن يُسند الوظائف إلى من يقوم بها من الناس، ولا يُحابي فيها؛ لأن الآية نزلت في ردِّ مفتاح الكعبة إلى بني شيبة، فلما فتح النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، أخذ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المفتاح من بني شيبة؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾، فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المفتاح من عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودفعه إلى بني شيبة(١)، ولا يزال في يدهم إلى يوم القيامة؛ كما أخبر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك(٢)، فسببُ نزول الآية خاص، ولكن اللفظ عام، والعبرة بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب(٣)؛ كما قرر ذلك علماء التفسير والأصول، فتشمل هذه الآية جميع الأمانات الحسِّية والمعنوية، فكلُّ ما كُلِّف به العبد من الأعمال، فهو أمانة بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالوضوء أمانة، والاغتسال من الجنابة أمانة، فجميع الأعمال التي أوجبها الله تعالى على عباده أمانة، وجميع ما حرَّمه الله على عباده أمانة كذلك، وكذا جميع الأعمال والأموال والديون التي في ذمة الذين اؤتمنوا

---

(١) قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، قَبَضَ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ، وَدَخَلَ بِهَا الْبَيْتَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَعَا عُثْمَانَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمِفْتَاحَ. قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: فِدَاؤُهُ أَبِي وَأُمِّي، مَا سَمِعْتُهُ يَتْلُوهَا قَبْلَ ذَلِكَ). انظر تفسير ابن جرير (٧/ ١٧٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢)، والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء (١/ ٣٣٧)، والروض الأنف (٧/ ٢٣٢-٢٣٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٧٠).

(٣) انظر: المحصول للرازي (٣/ ١٢٥)، العقد المنظوم في الخصوص والعموم للقرافي (٢/ ٣٦١)، والفروق للقرافي (١/ ١١٤)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٩٦).

عليها إنما هي أمانة، فعلى العبد أن يحفظ الأمانة، وأن يؤدِّيها في جميع أمورها، فلا أحد يَخْلُ من الأمانة، فالأولاد أمانة في ذمة ولي أمرهم، وهو مسؤول عنهم.

فالأمانات كثيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨].

ومَحلُّ الشاهد في هذه الآية: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨]، ففيها وَصفُ الله بالسَّمع والبَصَر، وبأنه سميع بصير، وهذان اسمان لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، يتضمَّنان إثبات السمع والبصر له عَزَّوَجَلَّ، بخلاف فِرَق الضلال الذين يؤوِّلون الصِّفات والأسماء، الذين يزعمون أن هذا من باب المجاز، وعلى قولهم فليس لله سمعٌ حقيقة، وليس له سبحانه بَصرٌ حقيقةً، وإنما هذا ونحوه من المجاز! ويُجاب على هؤلاء بأنَّ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أبطل هذا، وبيَّن أنَّ السمع حقيقي، فوضع أصبعه على أُذنه؛ ليبيِّن أن هذا حقيقي، ووضع الأصبع الأخرى على عينه؛ ليبيِّن أنه بصر حقيقي، وليس مجازيًّا، وهذا فيه ردٌّ على الذين يؤوِّلون أسماء الله وصفاته، ويدل على أنَّ الواجب إثباتها كما جاءت، وكما دلَّت عليه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

[مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّه عَزَّوَجَلَّ]

٦ - وعَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **قَالَ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ». الحَدِيثُ رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ**[(١)].

الشَّرح

هذا الحديث فيه إثبات العلم لله جَلَّوَعَلَا، وأن الله عليم، وفيه أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ولهذا قال -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩]، جاء تفسير هذه المفاتيح في آخر سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، هذه المفاتيح الخمسة لايعلمها إلا الله، فلا يعلمها مَلَك مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولا أحد من خلقه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فهي من الأمور التي اختص الله بعلمها، ولهذا لَمَّا سأل جبريلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال له: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»؛ يعني: أنا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٧، ٧٣٧٩) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وروى مسلم (٥) (٩)، (٧) (١٠) نحوه مطولًا، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفيه قصة جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لما أتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فسأله متى تقوم الساعة.

وأنت سواء، لا نعلم هذا الأمر؛ لأن هذا من اختصاص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وقد ذكر هذا في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، فلا يعلم أحدٌ متى قيام الساعة إلا الله، وأما هؤلاء الذين يَحسبون ليقدِّروا عُمُرَ الحياة الدنيا، إنما هم من الكذبة الذين يكذبون على الله جَلَّ وَعَلَا، ويُنازعونه في علمه.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، وقوله في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى:٢٨]، فيه بيان أنه لا أحد يستطيع أن ينزل الغيث من السماء إلا الله جَلَّ وَعَلَا، ولا أحد يدري -أيضًا- متى ينزل الله الغيثَ، فهو من اختصاص الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما ما يُذكر في وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفاز من توقُّعات حول هبوب الرِّياح وما أشبه ذلك، فهو ليس من باب الجزم، إنما هو من التوقعات المبنية على ظواهر جويَّة، والتي من الممكن أن تصيب وأن تخطئ؛ فلا يقال: إن هؤلاء يعلمون مما استأثر الله بعلمه من نزول المطر.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٣٤] أي: الأجنَّة التي في البطون، لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواء التي في بطون الآدميات، أو التي في بطون البهائم والحيوانات، فلا أحد يدري ما في بطونها من حيث كونه ذكرًا أو أنثى، أو حيًّا أو ميِّتًا، أو كامل الخِلْقة أو ناقص الخِلْقة، فلا يعلم كل هذا إلا الله جَلَّ وَعَلَا، حتى المَلَك الموكَّل بنفث الرُّوح إذا جاء لينفخ الروح، فإنه يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ عن أجله وعمله، وهل هو شقيّ أو سعيد؟ فيكتب ما

أخبره الله جَلَّ وَعَلَا[(١)]، أما بخصوص ما استُحدث الآن من صور الأشعة التي تُشخِّص الحمل على الأجهزة المصوَّرة، فيخبرون بكونه ذكرًا أو أنثى، فهذا ليس من الأمور الداخلة في علم الغيب، وإنما هو من علم الشهادة التي تحصل بواسطة الأجهزة التي تصور ما في البطون، فتظهره، فهو ليس من علم الغيب؛ لأنه لا أحد يعلم حقيقة ذلك قبل التصوير التي تتم بواسطة الأجهزة المذكورة، ثم لو قُدِّر أنهم علموا بكونه ذكرًا أو أنثى أو حيًّا أو ميّتًا، فهم لا يدرون شيئًا من أجله أو عن عمله، أو هل هو شقيّ أم سعيد؟ حتمًا هم لا يدرون شيئًا عن ذلك؛ كما لا يدرون شيئًا عن رزقه، فكل هذه الأمور من الأشياء التي استأثر بعلمها الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، فهذا من المُسلَّمات التي أقرَّ بها الناسُ قبل نزول القرآن، ولهذا قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى[(٢)]:

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤)، ومسلم (١) (٢٦٤٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**».

(٢) انظر: لسان العرب (١٥/ ٩٦)، واللمحة في شرح الملحة (١/ ١٣٢)، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (١/ ١٨٥).

وَأَعْلَمُ مَا فِي اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

هذا وهو إنسان جاهلي، بأنه لا يدري ماذا يمكن أن يجري في الغد أو في المستقبل، كون هذا الأمر من علم الله جَلَّوَعَلَا، فمن باب أولى أن يُقرَّ بذلك من جاء بعده على مَرِّ العصور!

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]؛ الموت لا بد منه، ولكن المجهول مكانه وزمانه؛ هل هو في البر، أم في البحر، أم في الجو؟ فلا أحد يدري متى وأين يكون ذلك؛ لكونه في علم الله وحده -جل شأنه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]، هذه مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ففي هذا الحديث: إثبات العلم لله جَلَّوَعَلَا، وفيه بيان مفاتح الغيب التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، فهو تفسير للآية.

والغيبُ: ما غاب عن الناس[١]؛ والشهادة: ما شاهدوه[٢]، والله جَلَّوَعَلَا عالم الغيب والشهادة، أي: ما ظهر للناس وما خفي عليهم، فالله سبحانه عليم به.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٧٦)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٨٢)، وبصائر ذوي التمييز (٤/ ١٥٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٦٣٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٣٣)، وزاد المسير (٢/ ٤٦).

[إِثْبَاتُ صِفَةِ الْفَرَحِ للهِ عَزَّوَجَلَّ]

٧- وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». أَخْرَجَاه(١).

الشَّرْح

هذا الحديث فيه إثبات صفة الفرح لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يفرح بتوبة عبده، وفيه إثبات التوبة، وأنه عَزَّوَجَلَّ يتوب على عبده إذا ما أقبل إليه بإخلاص.

والتوبة معناها: الرجوع(٢)، فالله جَلَّ وَعَلَا يعود على عبده بالرضا بدل الغضب، وبالمغفرة بدل العذاب.

ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوّاب، فقال: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]؛ أي: كثير التوبة على عباده.

ففيه: إثبات التوبة لله، وأنه يتوب على عباده ويرجع عليهم بالخير.

---

(١) أخرجه مسلم (٧) (٢٧٤٧) بلفظه، وروى نحوه البخاري (٦٣٠٩) مقتصرًا على شطره الأول، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر مادة (توب) في: العين (٨/ ١٣٨)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٢٣٦)، والصحاح (١/ ٩١)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٥٧)، ولسان العرب (١/ ٢٣٣).

وفي الحديث: إثبات الفرح لله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله يفرح بتوبة عبده، وفيه حثُّ العباد على التوبة وعدم القنوط من رحمة الله، وأنه سبحانه يفرح بهذا، وهذا من كرمه سبحانه، وهو ليس محتاجًا إلينا، فإذا تُبْنا، لم يَزِد في ملكه شيء، وإذا لم نَتُبْ لم نُنقِص من ملكه شيئًا، ولكن الله يفرح بذلك تكرُّمًا ولطفًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده؛ لأنه يريد لهم الخير والنجاة والفوز، ولا يحبُّ لهم الكفر والعذاب، وإنما يحبُّ لهم التوبة والمغفرة والنعيم، وهذا كلُّه من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ**» فيه أن الله يفرح فرحًا شديدًا أشد من فرح المخلوقين.

ثم ضرب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا في رجل فقد راحلته في أرض مهلكة، ليس فيها ماءٌ ولا طعام، وقد استسلم للموت، ونام تحت ظل الشجرة بانتظار هلاكه، وبينما هو كذلك، فإذا براحلته فوق رأسه، وعليها طعامه وشرابه.

فهذا فيه أنه لا يجوز القنوط من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مهما اشتدَّ الأمر والضِّيق بالعبد، بل عليه أن يعظِّم الرَّجاء بالله، فكلَّما اشتدَّ العسر، كان اليسر قريبًا؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»(١)، وكما في القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٠٩)، وهناد في الزهد (١/ ٢١٤)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٠).

ففرح هذا الرجل فرحًا شديدًا، حتى إنه أخطأ في التعبير عن فرحه من شدَّته، فقال: «**اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**»، والله أشدُّ فرحًا من هذا الإنسان، ففي الحديث إثبات صفة الفرح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع الاعتقاد بأنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقين.

وفي الحديث: بيان أن المخطئ لا يؤاخذ، فهذا الإنسان أخطأ في التعبير من شدة فرحه، لكن الله لم يؤاخذه مع كونه وَصفَ الله جَلَّ وَعَلَا بأنه عبدٌ، ووَصف نفسه بأن الرَّبُّ، لكنه لم يتعمَّد هذا، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥](١)، ولما نزلت هذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله جَلَّ وَعَلَا: قد فعلت(٢).

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في إعلام الموقعين (٣/ ٤٧): (ولهذا لا يكفر من جرى على لسانه لفظ الكفر سبقًا من غير قصدٍ؛ لفرح أو دهش وغير ذلك؛ كما في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد، وضرب مثل ذلك بمن فقد راحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة فأيس منها ثم وجدها، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح، ولم يؤاخذ بذلك، وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ بذلك). اهـ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ١٣١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٨٤] دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْهَا مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا**»، قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥] قَالَ أَبُو كُرَيْبٍ: فَقَرَأَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ: فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، =

فهذه الأحاديث فيها معرفة الله جَلَّوَعَلَا، وقد اختارها الشيخ عن فقهٍ وعن معرفةٍ تامَّةٍ؛ لكونها تُعرِّف بالله عَزَّوَجَلَّ، وتبيّن أسماءه وصفاته المذكورة في ثنايا هذه الأحاديث الثابتة.

=﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ».

[إِثْبَاتُ صِفَةِ الْيَدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

٨ - **وَعَنْ أَبِي مُوسَى** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ**[1].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: إثبات صفة اليد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي يدٌ ليست كأيدي المخلوقين، إنها هي يد تليق بجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دون تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، وأنه يبسُطها تكرُّمًا منه سبحانه وفضلًا.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ»** هذا فيه إثبات أن الله يتوب على عباده ليلًا ونهارًا متى ما تابوا، وأن التوبة ليس لها وقت محدَّد، ففي أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبل التوبة من عباده، فهو -جلَّ شأنه- ليس على أبوابه حجاب، وليس لفضله حدّ، وليس للتوبة إليه وقت محدَّد؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»**، فهذا شأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الحديث كذلك: الحثُّ على التوبة والمبادرة إليها، وأنه على الإنسان ألا يؤخِّرها، وفيه وصف الله بأنَّ له يدًا، وأنها مبسوطة غير مقبوضة، وأنه يتوب على عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائمًا وأبدًا -في الليل والنهار-، وأنَّ التوبة إليه

---

(١) أخرجه مسلم (٣١) (٢٧٥٩).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تختص بوقت معين أو مكان معين؛ كما هو شأن بعض المِلَل الأخرى.

وهذا جاء في الحديث القدسي قوله: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي، أَغْفِرْ لَكُمْ**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٥٥) (٢٥٧٧) عن أبي ذَرٍّ الغِفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ.

[إِثْبَاتُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

٩ - وَلَهُمَا عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيِ هَوَازِنَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[١].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه إثبات صفة الرَّحمة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن رحمته أشد من رحمة الوالدة بولدها؛ إذْ ليس هناك من الخلق أرحم من الوالدة بولدها، والله جَلَّ وَعَلَا أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فرحمته سبحانه عظيمة شديدة.

وقوله: «بِسَبْيِ هَوَازِنَ» هوازن: هي قبيلة معروفة، وتسمى الآن عتيبة، وقصتهم: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح مكة عام ثمان من الهجرة، ودخلت قريش في طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت هوازن تُقيم قريبًا من مكة، فخشوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغزوهم، فاجتمعوا على غزو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يغزوهم، فعلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فجهَّز الجيش من الذين جاؤوا معه من المدينة ومن أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح، فخرج معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش عظيم، والتقى الفريقان في وادي حنين، وحصل على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٢) (٢٧٥٤)، واللفظ له.

المسلمين في أول الأمر ضيقٌ شديد، بعدما كانوا معجبين من كثرة عددهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، لكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثبت، ولم يتزحزح من مكانه، وجعل ينادي المسلمين حين أمر عمَّه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ينادي بصوته الجَهوَرِيّ، فنادى المسلمين بنداء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاد المسلمون، والتفُّوا حول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم دارت المعركة من جديد، فنصر الله المسلمين، وغنموا أموال هوازن ونساءها وأطفالها؛ لأن هوازن جاءت بأموالها ونسائها وأطفالها إلى أرض المعركة، فصارت غنيمةً للمسلمين، فلما انتهت المعركة، وغنم المسلمون مغانم هوازن، وجُمعت هذه الغنائم، رأى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة مسرعة تَجوب العسكر مشفقة تبحث عن ولدها، فلما رأته، أخذته وألزقته ببطنها، وجعلت تُرضعه، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٧٦) (١٧٧٥): عَنْ كَثِيرِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، =

فهذا فيه: إثبات صفة الرحمة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنها أرحم من رحمة الوالدة بولدها، لكن هذا لمن تسبَّب في طلب الرَّحمة، وأما من ضيَّع العمل الصالح، وعصى الله عَزَّوَجَلَّ، وكفر به، فقد فرَّط، وضيَّع نفسه، وأما من أطاع الله، وأطاع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل بأسباب الرحمة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أشدُّ رحمةً به من هذه المرأة بولدها.

=وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**»، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ**»، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا».

[سَعَةُ رَحْمَةِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ]

١٠- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ -فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ-: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**». **رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ**[(١)].

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ**»؛ يعني: فرغ من خَلْق الخَلْق -السماوات والأرض والمخلوقات كلها-؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤]، وجاء تفصيل خلقه في هذه الستة الأيام في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآيات، فلما خلق الخلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «**كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ**»؛ كما جاء في الحديث، والمقصود بالكتاب: كتاب القضاء والقدر، وهذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في غيره -أيضًا- مما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما مِن شيء إلا وهو مكتوب، وهذه الكتابة بعد خَلْق السماوات والأرض، وهذه الكتابة غير الكتابة العامة في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة العامة في اللوح المحفوظ كانت قبل أن يخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[(٢)]، وإنما هذه الكتابة المذكورة في هذا الحديث كتابة خاصة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (١٤) (٢٧٥١)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم (١٦) (٢٦٥٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ =

فقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَتَبَ فِي كِتَابِهِ**»، هذا فيه إثبات الكتابة، وأنها من أفعال الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ**»، العرش: هو عرش الرَّحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أعظم المخلوقات وأعلاها وأعظمها، فهو عرش عظيم، لا يعلم عِظمَه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والعرش في الأصل: السّرير الذي يجلس عليه المَلِك[1]، والمراد به هنا: هذا المخلوق العظيم الذي استوى الله جَلَّ وَعَلَا عليه، وهذا فيه إثبات العُلوِّ لله واستوائه على العرش، والإيمان به؛ لأن الله اختصَّ هذا الكتاب عنده، وإذا كان عنده، فهذا يدلُّ على أنَّ هذا الكتاب في مكان قريب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وليس المراد بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عِنْدَهُ**» أنه في ملكه؛ لأن كل المخلوقات في ملكه، ولكنه اختصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مثل بعض الملائكة المقربين؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]؛ فخصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مقرَّبة، وهذا يدلُّ على أهمية هذا الكتاب ومكانته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومضمون هذا الكتاب ما عبَّر عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**» هذا فيه وصف الله جَلَّ وَعَلَا بهاتين الصفتين: الرَّحمة والغضب، وهذا

=رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**».

(١) انظر: مادة (ع ر ش) في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٠٧)، ولسان العرب (٦/ ٣١٣)، ومختار الصحاح (ص١٧٨).

من صفات أفعاله جَلَّوَعَلَا، فهي صفات فعلية؛ يرحم إذا شاء، ويغضب إذا شاء، فهما صفتان لله عَزَّوَجَلَّ تليقان بجلاله، ورحمته ليست كرحمة المخلوق، ولا غضبه كغضب المخلوق، وإنما هما صفتان تليقان بجلاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي الحديث: أنَّ الرَّحمة سبقت الغضب، فهو سبحانه يُحبُّ أن يرحم عباده إذا هم فعلوا الأسباب التي تُسبِّب الرحمة، وأما إذا فعلوا موجبات الغضب وأسبابه -كالمعاصي والمخالفات-، فإنه سبحانه يغضب عليهم، فالرحمة لها أسباب، والغضب كذلك، فالأعمال الصالحة سبب لرحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وللغضب أسبابه كالكُفر والشِّرك والمعاصي، فإن ذلك كله مما يُغضب الله جَلَّوَعَلَا.

وفي الحديث كذلك: بيان أن الله يُحبُّ أن يرحم عباده، ولا يُحبُّ أن يُعذِّبهم، وهذا من فضله وكرمه سبحانه على عباده، إلا إذا تركوا أسباب الرَّحمة، وفعلوا أسبابَ الغضب، فهم الذين جَنَوا على أنفسهم، وهو سبحانه لا يعذِّب أحدًا وهو ظالم له، أو بدون سبب، وإنما يعذِّب على أسباب تقتضي الغضب منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهي الكُفر والشِّرك والنفاق والمعاصي، ولكن الله يُحبُّ أن يعفو وأن يغفر، إذا ما تاب العباد إليه، وأنابوا، واستغفروا، فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم، وهذا أحبُّ إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه عَفوٌّ يُحبُّ العفوَ؛ كما جاء في دعاء النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَني**»[(١)]، وهذا من كرمه وجوده جَلَّوَعَلَا، وإلا فهو ليس بحاجةٍ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، والنسائي (٧٦٦٥)، وأحمد (٤٢/ ٢٣٦)، من حديث عائشة رَضِيَاللَّهُعَنهَا.

إلى عباده، بل هم المحتاجون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يُحبُّ لهم ما يُصلحهم، ويُحبُّ أن يتوب عليهم، ويغفر لهم، ويُنعِّمهم بالجنة، إذا هم تقرَّبوا وتابوا إليه واستغفروه؛ ولذلك حثَّ عباده على التوبة والاستغفار، ونهاهم عن المعاصي، وأمرهم بالطاعات، وكل ذلك من لطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن محبَّته للمغفرة وللعفو، وهو من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العظيمة.

[جَعَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةِ جُزْءٍ]

١١ - وَلَهُمَا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ» الحديث[1].

الشَّرح

هذا حديث عظيم فيه بيان سعة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧]، فالرحمة لها أسباب، وهي رحمة واسعة، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧].

ومن هذه الرحمة المذكورة في هذا الحديث المتفق عليه أنزل الله منها رحمة واحدة في الأرض، وعنده تسع وتسعون رحمة، قد ادَّخرها سبحانه ليوم القيامة، وهذه الرحمة التي أنزلها في الأرض تتراحم المخلوقات من آثارها، حتى إنَّ «الدَّابَّة» أي: البهيمة التي ليس عندها عقل «تَرْفَعَ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»، فهي رحمة طبيعية، جعلها الله فيها، وهي من آثار هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم(١٧) (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرحمة التي أنزلها الله سبحانه، تتراحم بها الخلائق فيما بينهم؛ فإذا كانت هذه آثار رحمة واحدة، فكيف ببقية الرحمة التي عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! وفي يوم القيامة تنضم هذه الرحمة إلى ما عنده من الرحمة التي ادَّخرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لتكون مئة رحمة، يرحم بها مَن يستحق الرَّحمة من عباده الذين فعلوا الأسباب الموجبة لها في هذه الدنيا، فتابوا واستغفروا، وأنابوا، ورجعوا إلى الله، وأصلحوا أعمالهم.

فهذا الحديث فيه: وصف الله جَلَّ وَعَلَا بالرحمة، وأنها رحمة عظيمة، وأن الله تعالى يرحم في الدنيا، ولكن رحمته في الآخرة أعظم، فمن لم تَسَعْهُ رحمة الله، فإنه خاسر لا خير فيه، والله جَلَّ وَعَلَا يرحم من عباده الرُّحماء، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢)، فإذا تراحموا، رحمهم الله.

فمن مقتضى هذا الحديث ذكر أن أسباب رحمة الله تعالى إنما تنشأ من تراحمُ العباد فيما بينهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٦٦) (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢- وَلِمُسْلِمٍ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ، وَفِيهِ «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ»، وَفِيهِ: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»(١).

الشَّرح

في الحديث: بيان مدى سعة كل رحمة من المئة رحمة التي اتصف الله بها، فالرحمة الواحدةُ تَسعُ السَّماوات والأرض، فإذا كان يوم القيامة، تكاملت الرحمة مئة رحمة بانضمام الجزء الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الأرض إلى ما ادَّخره في السَّماء، فصارت مئة رحمة في الآخرة، وهذا دليل على سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا -أيضًا- من شأنه أن يجعل الإنسان لا يقنط من رحمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقال تعالى على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١) (٢٧٥٣) عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».

وفي هذا الحديث وما جاء بمعناه من الأحاديث والآيات الكريمة بيان: أنه لا ينبغي للمسلم أن يقنط من رحمة الله، حتى ولو تعاظم ذنبه، فإنه ينبغي ألا ييأس من العودة والرُّجوع إلى الله، وأن لا يعتقد بأنه لن يغفر الله له، وأن لا يترك التوبة وييأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، بل عليه أن يتوب، ويرجو رحمة الله مهما كان ذنبه، ومهما كانت معصيته، فإذا تاب منها، تاب الله عليه، وكذا المشرك والكافر والمنافق والزاني والسارق وشارب الخمر وآكل الربا، فهؤلاء جميعًا إذا ما تابوا، تاب الله عليهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٣-٥٤]، ولكن ينبغي للإنسان أن لا يتَّكِل على سعة رحمة الله، وبالتالي يتهاون بالمعاصي، فكما أن الله عَزَّوَجَلَّ واسع المغفرة، فإنه شديد العقاب؛ قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]، فعلى الإنسان أن لا يتساهل في عمل المعاصي، بل عليه أن يتَّقي الله، ويخاف من العذاب كما يرجو الرَّحمة، فالجمع بين الأمرين هو المطلوب؛ بين الخوف والرَّجاء: الخوف من عذاب الله، فلا يخاف خوفًا يُقنِّطهُ من رحمة الله، ولا يرجو رجاءً يؤمنه من مكر الله؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وكما أن الله واسع الرحمة والمغفرة، فإنه كذلك شديد العقاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد جمع سبحانه بينهما في آية واحدة بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]، وبقوله:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، فينبغي عدم الغفلة عن هذا الجمع بين الخوف والرجاء، فلا يُغلِّب أحدهما على الآخر، ولكن قالوا: إلا في حالة واحدة، وهي عند الموت، فإنه يُغلِّب جانب الرَّجاء: قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»(١)؛ فإذا ما عَجَز المرء عن العمل وحَضَره الموتُ، فإنه يُغلِّب جانبَ الرَّجاء، ولا يُغلِّب جانبَ الخوف، أما وإنه ما دام على قيد الحياة، وكان متمكنًا من العمل الصالح والإقلاع عن الذنوب والمعاصي، فإنه ينبغي أن يكون بين الخوف والرَّجاء.

والرجاء المحمود هو الذي لا يأمن به صاحبه من غضب الله عَزَّوَجَلَّ وعقوبته، والخوف المحمود هو الذي لا يَقنط صاحبه من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

[تَعْجِيلُ حَسَنَاتِ الْكَافِرِ فِي الدُّنْيَا]

١٣ - وَعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

الشَّرْح

في هذا الحديث بيان الفرق بين المسلم والكافر، من حيث إن الكافر إذا عمل حسنةً في الدُّنيا -بأن أطعم جائعًا، أو كسا عاريًا، أو سقى عطشان، ونحو ذلك من الأعمال الداخلة في باب الإحسان إلى الناس-، فإنه وإن كان هذا العمل من كافر، فإنَّ الله جَلَّ وَعَلَا لا يضيع عمل عامل؛ ولهذا فإنه سبحانه يُعجِّل له جزاءه، فيُعطى بها طُعمة في هذه الدنيا؛ إما بأن يُطيل في عُمره، أو بأن يُوسِّع له في رزقه، أو غير ذلك من مصالح الحياة الدنيا؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا؛ فهذا المراد من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا**».

وأما المؤمن، فإنه إذا عمل الحسنات، فإن الله يَجمع له بين خيري الدنيا والآخرة، فيدَّخر له حسناته في الآخرة؛ لأن جزاء الآخرة خير وأحسن، ولا يحرمه -أيضًا- من الجزاء في الدنيا، بل يعجل له شيئًا من الجزاء في هذه الحياة الدنيا من سَعة الرِّزق والصِّحة والعافية، فهو سبحانه يُعطي المؤمن على حسناته في الدنيا والآخرة، ولكنه سبحانه يعطيه في الآخرة أكثر مما يُعطيه

---

(١) أخرجه مسلم (٥٦) (٢٨٠٨).

في الدنيا، وهذا بخلاف الكافر، فإن الله يُعطيه في الدنيا، وأما في الآخرة، فإنه سبحانه يحرمه من رحمته وجنَّته. هذا ما يدل عليه المفهوم من الحديث.

وفي الحديث كذلك: بيان سعة فضل الله عَزَّوَجَلَّ، حتى إنه يشمل أعداء الله والكفار، فهو سبحانه يرزقهم، ويُنعم عليهم في هذه الدنيا، ويُصحُّ أبدانَهم، وهذا كله من إحسانه وفضله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، ولكنهم إذا ماتوا على كفرهم، فإنهم لا ثواب لهم في الآخرة.

[إِثْبَاتُ صِفَةِ الرِّضَى لِلَّهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ]

١٤- وَلَهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[(١)].

• الشَّرح •

في الحديث: وصفُ الله عَزَّوَجَلَّ بالرِّضا، وهو صفة يليق بجلاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقوله: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**» يعني: يرضى عن العبد الذي يشكر النِّعم.

وفي هذا: مشروعية الشُّكر والحمد لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أكل، يقول: (الحمد لله)، وإذا شرب، يقول ذلك؛ كما أنه عند البداية يقول: (بسم الله)، وهذا من آداب الإسلام؛ لأنَّ هذا الأكل وهذا الشُّرب لم يصل إلى الإنسان إلا بفضله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو الذي خلقه ويسَّره، وهو الذي مكَّن العبد منه، وهو الذي يَنفع به إذا أُكل وشُرب، فيُغذِّي العبدَ به، ويُخلِّصه من أذاه، فكلُّ هذا ونحوه من فضله وكرمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا ما أكل وشرب العبد وشكر الله على ذلك، فإنه سبحانه يرضى عنه.

ففي هذا الحديث: إثبات صفة الرِّضى لله عَزَّوَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل، وفيه بيان مشروعيَّة حَمْد الله على الأكل والشرب.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٩) (٢٧٣٤) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

[عَظَمَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

١٥- وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ» الحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: (حَدِيثٌ حَسَنٌ)(١).

قَوْلُهُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢).

الشَّرْح

هذا حديث عظيم، فيه بيان عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه وصفٌ لصوت السماء من ثِقَل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة الساجدين فيها.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ» الأطيط: هو في الأصل صوت الرَّحْل مِن ثِقَل ما عليه، فإذا أثقل الراكبُ الرَّحل، يصير له صوت يسمى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٣٥/ ٤٠٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٤، ٤/ ٦٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٨٣)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
قال أبو عيسى: (حديث حسن غريب)، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢١، ٦٤٨٦)، ومسلم (١٣٤) (٢٣٥٩).

بالأطيط من شدَّة التحمُّل، والمراد هنا: أنه صار للسماء صوت من شدَّة التحمُّل -على الرغم من قوَّتها وسعتها- من كثرة الملائكة الذين أثقلوها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلهِ**»، الملائكة من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم خَلْق وجُند من جند الله تعالى، لا أحد يراهم، ولكننا نؤمن بهم، والإيمان بهم هو أحد أركان الإيمان الستة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذه أركان الإيمان، ومن بينها الإيمان بالملائكة، وهم خَلق من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خلقهم الله من نور، وخلق الجِنَّ من نار، وخلق بني آدم من تراب(٢)، فالجن والشياطين من عالم الغيب، ولكن الله خلقهم من مارج من نار، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]؛ أي: من لهب النار المرتفع، فهناك مخلوقات كثيرة خلقها الله، منها ما هو من عالم الغيب، ومنها ما هو من عالم الشهادة، ومن عالم الغيب الملائكة، فنؤمن بهم؛ كما ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكما ذكرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة، فالذي لا يؤمن بالملائكة كافر بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟

---

(١) سبق تخريجه (ص٧).

(٢) أخرجه مسلم (٦٠)(٢٩٩٦) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

﴿بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:١٥٠]؛ فالملائكة رسل، خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمهمّات، ومن مهماتهم أن الله يرسلهم بأوامره، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، وهم رسل يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨]، وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، هذه هي صفة الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-.

ومن هؤلاء الملائكة من اقتصر عمله على عبادة الله تعالى، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ**»، «**مَا فِيهَا**» أي في السماء، وهذا فيه دليل على كثرة الملائكة، وفيه دليل على فضلهم وأنهم يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم لا يَفتُرون عن عبادته، ويُنفِّذون أوامره سبحانه في الخَلْق والكون، وهم جند من جند الله عَزَّوَجَلَّ، يجب الإيمان بهم كما جاء ذكرهم في القرآن الكريم، والإيمانُ بأعمالهم التي يقومون بها مما جاء تفصيله في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثم إن الذين لا يؤمنون بالملائكة، أو يؤوِّلون حقيقتهم؛ كما هو الحال عند بعض الفلاسفة الذين يؤولون حقيقة وجود الملائكة بأنها قُوى الخير النفسانية، التي لدى الإنسان؛ كما يسمُّون القُوى الشريرة التي في الإنسان الشياطين، ويقولون: ليس هناك شياطين لهم أجسام، وليس هناك ملائكة مخلوقون لهم أجسام حسِّية، وإنما هي مجرد هواجس الخير المتمثلة بالملائكة، وهواجس الشرِّ المتمثلة في الشياطين، وهذا ونحوه من التخرُّصات والأباطيل من تأويل القرامطة والفلاسفة والباطنية، ومع الأسف هذا موجود في (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا عند تعرُّضِه لقصَّة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، وقد ذكره صاحب (المنار) عن شيخه محمد عبده، وشيخه محمد عبده نقله عن كتاب (الإحياء) للغزالي، الذي كانت عنده نزعة فلسفية أثَّرت عليه، وهذا التأويل منها.

والحاصل: أن الذي يفسِّر الملائكة على أنها القُوى النفسية -إن كان متعمدًا لهذا-، فهو كافر، وإن كان مقلِّدًا، فهو ضالٌّ ومخطئ، فعلينا أن نعرف أفكار الفلاسفة، ونعرف الوحي المنزَّل من عند الله، ونفرِّق بينهما.

ففي هذا الحديث: الحثُّ على وجوب الإيمان بالملائكة، وفيه بيان كثرتهم، وأنهم يملؤون السماوات على سعتها.

وفيه دليل على فضلهم وعبادتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم عالَم شريف جليل من عالم الغيب الذي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يعلمهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) انظر: تفسير المنار (٩/ ٤٥٤).

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الحديث: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**» (في الصحيحين) أي: هو متفق عليه، رواه البخاري ومسلم، وأما أوله، فهو في السنن، والمسند عند أحمد.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**» هذا فيه ذكر شدة الخوف من أهوال يوم القيامة وما فيها من أخطار عظيمة، والله جَلَّ وَعَلَا ذكر هذا في القرآن، فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج:١-٢]، ونحن لا نعلم من أهوال يوم القيامة مثل الذي يعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أطلعه على أمور الآخرة ما لم نطَّلع عليه؛ رحمةً بنا، ولأنه لو أطلعنا على هذه الأشياء، لحدث بنا ما ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَجْأَرُونَ**» يعني: ترفعون أصواتكم بالبكاء والتضُّرع من شدة الخوف، فالأمر شديد، والخطب هائل، فيجب على المسلم أن يكون مستعدًا لهذه المواقف والأخطار التي هو قادم عليها.

ومما أطلع الله جَلَّ وَعَلَا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه: عذاب القبر الذي لا يخلو من المواقف والعجائب التي لا يعلمها إلا الله؛ من أحوال الموتى الذين يعذَّبون أو يُنعَّمون، ونحن لا نُحِسُّ بهذا، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطلعه الله

على شيء من ذلك، وحينما مرَّ على قبرين، فقال: «**إنَّهما ليُعذَّبانِ**»[١]، فنحن نمرُّ على القبور، ولا نشعر بشيء من ذلك، مع أن هذه القبور إما روضة من رياض الجنة أو حُفرة من حُفر النار[٢]، فكل هذا من أمور الآخرة التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن الأمور التي حجبها الله عنا، وقد يحصل شيء من الاطلاع لبعض الناس على عذاب القبر من باب العِظَة، وهذا شيء معروف، ومن أراد شيئًا من هذا، فليراجع كتاب (أهوال القبور) للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره من الكتب المؤلفة في هذا الباب؛ ليعتبر ويتَّعظ، مع أن هذا غُيِّب عنا، ولم نعلمه كثير، وفي الحديث: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[٣]؛ فهذان سببان من أسباب عذاب القبر، فهذا مما أطلع الله نبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[٤]، فهو صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطَّلع

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (١١١) (٢٩٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «**لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**».

(٢) تواترت الأحاديث عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إثبات عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين للإنسان بعد موته؛ كما جاء في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٧٠) (٢٨٧٠)، وجاء أيضًا من حديث البراء، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي قتادة، وعائشة، وغيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

(٤) أخرجه مسلم (٦٨) (٢٨٦٨) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

على أشياء قد أطلعه الله عَزَّوَجَلَّ عليها، وهذا معجزة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والبشر لا يطيقون سماع ومشاهدة ما أطلع الله سبحانه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وحجبها عنا رحمة من الله بنا، ولكن هذه الأشياء تنكشف لنا عند الموت، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]؛ فالميِّت يُعاين عند الموت، ويُعاين الملائكة ومنزلته عند الله، إن كان من أهل الخير، وإن كان من أهل الشرِّ، فإنه يُعاين ما سيؤول إليه مصيره من الشقاء والعذاب، وإذا وُضع في قبره، فإنه يُعاين هذه الأمور وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، أما وإنه ما دام على قيد الحياة، فإن الله حجب هذه الأمور عنه؛ رحمةً به، وإلا فلو دَرى بها وعاينها، لما عاش، ولا تلذَّذ بأكلٍ، ولا شُربٍ، ولا بأي شيء من ملذات الحياة الدنيا.

[حُرْمَةُ التَّأَلِّي عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ]

١٦- وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «أَنَّ رَجُلا قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»(١).

الشَّرح

في هذا الحديث بيان مدى سعة مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه ينبغي أن لا يقنط أحد من رحمة الله، ولا أن يُقنِّطَ أحدٌ أحدًا من رحمة الله وعفوه، وإنما ينبغي الحَثُّ على التوبة والاستغفار، ويدخل في ذلك الكافر؛ حيث ينبغي حثُّه على التوبة وعلى الدُّخول في الإسلام، وترغيبه في دخول الجنة والنجاة من النار، ومن باب أولى عدم تقنيط المؤمن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، إذا ما رُؤي على معصية، وإنما الواجب حثُّه على التوبة والاستغفار، وتخويفه من العذاب، وأما الجزم بأنه لن يُغفر له، والحَلِف على ذلك، فهذا من باب الإساءة في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما أن فيه تقنيطًا من رحمة الله جَلَّ وَعَلَا، مع أن هذا القائل لهذه العبارة -كما ورد في الحديث- إنما قالها من باب الغَيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه رأى أخاه على المعصية، فنهاه، ولكنه أبى أن يترك المعصية، فعند ذلك غضب عليه، وقال: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ**»، ولكن الله قال: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ**»، وهذا استنكار منه جَلَّ وَعَلَا لِمَا قاله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) (٢٦٢١).

وقوله: «يَتَأَلَّى» يعني: يحلف «عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»، لما أساء الأدب مع الله، وقنَّطَ من رحمته جَلَّ وَعَلَا؛ وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فلما قنط من رحمة الله، فإنه سبحانه أحبط عمله.

فهذا الحديث فيه مسائل:

أولًا: بيان مدى سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه ينبغي للعاصي ألا يقنط منها، ولكن ليس معناه أن يقيم على معصيته، فإذا كان يريد الرحمة، فإنه يتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا ينبغي له أن يرجو رحمة الله وهو مقيم على المعاصي، فهذا أمر لا يجوز، وهو في هذه الحالة قد أَمِنَ من مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثانيًا: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يُقنِّط الناس من رحمة الله، مهما رأى عليهم من المعاصي والمخالفات، ولكن يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بالتوبة، ويُحبِّبهم بها، ويُرغِّبهم في ثواب الله وفضله، وألا يحلف أنه لن يُغفر لهم.

ثالثًا: أنه لا يجوز الحَلِفُ على الله في منعه جَلَّ وَعَلَا من فِعْل المغفرة والإفضال على عباده، وأما الحَلِف على الله على أن يفعل الخيرَ ويُنزله، فهذا لا بأس به، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ، لَأَبَرَّهُ**»(١)، وهذا في الرَّجاء وحُسن الظنِّ بالله جَلَّ وَعَلَا، فإذا حَلَفَ المسلم على الله بأن يفعل الخيرَ، ويغفر لعباده ويرحمهم، اعتُبر هذا من باب حُسن الظنِّ بالله عَزَّ وَجَلَّ،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (٢٤) (١٦٧٥) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وليس هو من سوء الظنِّ به عَزَّوَجَلَّ، هذا الفرق بين الحالتين، وهذا الجمع بين الحديثين؛ حديث: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ**»، وحديث: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ، لَأَبَرَّهُ**»، فالأول أحبط الله عمله، والثاني في الرجاء وحُسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ.

رابعًا: في الحديث خطر الكلام السيِّئ، وأنه على المسلم أن يحفظ نفسه من الانزلاق في الكلام السيِّئ في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، أو في حقِّ العباد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠]، فعلى المسلم أن يحفظ لسانه من أن يقول كلمة واحدة، فيكتب الله له بها غضبه إلى يوم يلقاه، قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند هذا الحديث: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(١)؛ ففيه خطر اللسان، فعلى الإنسان أن يحفظ لسانه من الكلام السيِّئ؛ لأنه ربما يقول كلمةً تُحبط عمله، فلا يتساهل الإنسان بالكلام؛

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (١٤/ ٤٧)، والبزار (١٦/ ٢٤٤)، وابن حبان (١٣/ ٢١)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولفظه: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

وفي الحديث: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[١]، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٢].

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٣٦/ ٣٤٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٧٧) (٤٨) واللفظ له.

[الْمُؤْمِنُ بَينَ الرَّجَاءِ وَالْخَوفِ]

١٧- وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»(١).

الشَّرْح

إن الله جَلَّوَعَلَا واسع المغفرة، وهو شديد العقاب، فلو علم المؤمن ما عند الله من العذاب، لما طمع في رحمة الله أحد، ولو علم الكافر ما عند الله من العفو والمغفرة، لما قنط من رحمته أحد، فهذا فيه دليل على سَعة رحمة الله -تَبَارَكَوَتَعَالَى-، وعلى شدَّة غضبه، وأن سعة الرَّحمة لاتحمل المؤمن على الأمن من مكر الله، والتساهل في عمل المعاصي والسيئات، وأن الخوف من عذاب الله لا يحمل العبد على القنوط من رحمة الله، فيترك التوبة والاستغفار؛ ظنًّا منه أنه لن يغفر له، أو أن يدفع هذا الأمر أحدًا لتقنيط الآخرين من رحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فمثل هذا لا ينبغي لأحد؛ لأنه جَلَّوَعَلَا فتح بابه للتائبين، وهو سبحانه بيَّن عذابه وشدَّة غضبه، وهذا من حكمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من أجل أن يُرغِّب العباد في الأعمال الصالحة، ويُنفِّرهم من الأعمال السيِّئة؛ ولهذا فإن القرآن الكريم مليء بآيات الوعد والوعيد، وغالبًا ما يأتي ذِكر الجنَّةِ بعد ذِكْر النار، فيذكر سبحانه النار وما اشتملت عليه من العذاب، ثم يذكر الجنة وما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٩) وفيه زيادة، وأخرجه مسلم (٢٣) (٢٧٥٥) بهذا اللفظ.

فيها من النعيم، فتجد هذا في الآيات المتجاورة، والحكمة في ذلك: دفع العبد للخوف والرجاء، فإنه إذا قرأ عن النار، وعرف ما فيها من العذاب، لعلَّه يتوب إلى الله، ويستغفره، ولا يقنط من رحمته، وإذا قرأ عن الجنة وما فيها من النعيم، لعله يطمع في رحمة الله، فيعمل الأعمال الصالحة، فإذا ذكرت النار، تاب من الذنوب، وإذا ذكرت الجنة، أكثر من عمل الحسنات، هذه هي حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كونه يجمع بين الأمرين.

وكذلك فإنه ينبغي على الدُّعاة والوعّاظ ألا يعتمدوا على آيات الوعيد فحسب، وألا يُبالغوا في تخويف الناس، وإنما عليهم أن يبادروا إلى فتح باب الرَّجاء والطمع في رحمة الله، وعليه فإن الأصل في ذلك ترغيبهم وترهيبهم، فيجمعون بين هذا وهذا، وعدم اقتصارهم على ذِكْر آيات العذاب والوعيد، أو الاقتصار على ذِكْر آيات الرحمة والثواب، هذا هو المطلوب من الدُّعاة والوعّاظ والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

[قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنَ الْإِنْسَانِ]

١٨ - وَلِلْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»(١).

الشَّرح

هذا الحديث في بيان مدى قُرب الجنة من الإنسان وقُرب النار منه كذلك، وذلك أنه إذا مات الإنسان، وكان صالحًا، دخل الجنة، وإن كان غير صالح، دخل النار، والموت قريب من الإنسان، فربما يكون في لحظة، فيؤول أمره إما الجنة وإما إلى النار في لحظةٍ واحدة، فالجنة قريبة والنار كذلك، فلا ينبغي للعبد أن يُوسِّع الأمل في هذه الدنيا، فيبسط النفس فيها، ويستبعد الموتَ ومجيءَ يوم القيامة.

وفي قصة الرَّجلين اللذين مرّا على الصنم الذي لم يكن أحد يجوزه حتى يقرب له قربانًا، «**قَالُوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَو ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيْلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا: لِلآخَرِ: قَرِّبْ، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد (ص١٥) من طريق سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، موقوفًا عليه.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذا الحديث: (الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**الْجنَّة أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّار مِثْلُ ذَلِكَ**»)(١)، فأمر الجنة والنار قريب من الإنسان.

فينبغي عدم فتح باب طول الأمل من خلال استبعاد الموت ومجيء يوم القيامة، وبالتالي التمادي في الذنوب والغفلة عن الآخرة وقدوم لحظة الموت، والأصل في ذلك هو الاستعداد دائمًا لذكر الجنة، واستحضار النار، وأنهما قريبتان من الإنسان؛ إذ ليس بينه وبينهما إلا قَبْض الروح، ثم المآل إلى أحدهما، فتصوُّرُ الجنة يدفع بالعبد إلى فِعْل الأعمال الصالحة، وتصوُّرُ النار يدفعه إلى التوبة والاستغفار من الذنوب، والحذر كل الحذر من أن يفجأ العبد الموت، وهو على حالة غير مرضية، فإذا وقع العبد في ذنب، فلاينبغي له الاغترار بصِغَر سنِّه وبطول الأمل، زاعمًا أنه سيتوب إلى الله إذا ما طال به العمر، وكأنه ضَمِنَ أن ذلك سيكون، وهو لا يدري أن هذا من تلاعُب الشيطان به، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٧]، فهؤلاء سيتوب الله عليهم، ودلالة ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾.

وأما الذي يفتح لنفسه باب الأمل، ويُسوِّف في التوبة بعدما غرَّر به الشيطان مزيِّنًا له أنه ما زال شابًّا في أول عمره، فيبدأ بتأجيل التوبة إلى أن يصل إلى آخر عمره، فيحسن خاتمته بالتوبة المزعومة! فمَن الذي يضمن له أن

---

(١) انظر: فتح المجيد (ص١٤٩).

عمره سيمتد إلى أن يَشيخ ويكبر؟! بل مَن الذي يضمن له أنه سيعيش بُرهةً من الزمن؟! فكم من إنسان فاجأه الموت وهو جالس مع الآخرين في لحظة!

ولهذا نقول: إن الآجال بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد أخفاها عنا، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤].

ففي هذا الحديث: الحثُّ على تقوية اليقين بقُرب الجنة والنار.

وفيه: الحثُّ على المبادرة والإسراع بالأعمال الصالحة والتوبة من الأعمال السيئة.

وفيه: أن النار والجنة يبدآن من حين موت الإنسان ووضعه في القبر، فيأتيه نصيبه؛ إما من الجنة، وإما من النار، ويصير قبره إما روضةً من رياض الجنة، وإما حفرةً من حُفر النار، والقبر هو أول منازل الآخرة، فإن نجى العبد منه، فما بعده أيسرُ منه(١).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وأحمد (١/ ٥٠٣) عَنْ هَانِئٍ، مَوْلَى عُثْمَانَ، قَالَ: «كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**».

[رَحْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمَنْ فِي قَلْبِهِ رَحْمَةٌ]

١٩- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا، فَغُفِرَ لَهَا»(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا**»، المرأة البغي: هي الزانية؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور:٣٣]؛ يعني: على الزنى، وهذه المرأة من بني إسرائيل ممن كان قبلنا، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحدِّث أحيانًا عن بني إسرائيل، بما فيه عبرة وعظة لنا، وهذه المرأة كانت تمارس الزِّنى، وهو كبيرة من كبائر الذُّنوب وفاحشة، وقد كانت ذات يوم تسير في طريق، فأدركها العطش، فنزلت في بئر؛ لتشرب منه، فشربت، وصعدت من البئر، فلما خرجت منه، رأت كلبًا يلهث من شدة العطش، وفي رواية: «**يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ**»(٢)، فرحمته، فنزلت في البئر مرة ثانية، «**فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا**»، والمُوق: هو الخُفّ الذي يُلبس على القدم، فنزعته لعدم وجود الإناء الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢١، ٣٤٦٧)، ومسلم (١٥٤) (٢٢٤٥) واللفظ له.

(٢) هي عند البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (١٥٣) (٢٢٤٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**».

يُحمل فيه الماء، وملأته ماءً، وأمسكته في فمها ثم صعدت من البئر، فسَقت الكلب، فشكر الله لها هذا الإحسان إلى هذه البهيمة، فغفر لها هذه الخطيئة.

فهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

منها: فضل الإحسان إلى البهائم، وأنه يجب على الإنسان أن يُحسن إليها بإطعامها وسقيها وتقديم ما تحتاج إليه.

وفيه: فضل سَقْي الماء للعطشان، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا عَلَى ظَمَإٍ، سَقَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ المَخْتُومِ**»[(١)]، وكذلك البهائم.

وفي هذا الحديث: بيان سَعة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه يغفر الذنوب، ولو كانت كبائر دون الشرك؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ [النساء:٤٨]، وقال: ﴿**مَا دُونَ ذَٰلِكَ**﴾؛ يعني: ما دون الشِّرك، فهذه امرأة تمارس كبيرةً قبيحة من كبائر الذنوب، فغفر الله لها، وهذا فيه ردٌّ على الخوارج[(٢)] الذين يَرَون أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإسلام،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٩)، وأحمد (١٧/ ١٦٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا عَلَى ظَمَإٍ سَقَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ المَخْتُومِ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ مِنْ خُضْرِ الجَنَّةِ**».

(٢) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ، كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا، سواء كان الخروج في

فيكفر بذلك، وهذا مذهبهم، والمعتزلة(١) يقولون: يخرج من الإسلام، ولا يدخل في الكفر، فيكون في منزلة بين المنزلتين، وهذا من أصول المعتزلة، وأهل السُّنة والجماعة يقولون: إنَّ مرتكب الكبيرة التي دون الشرك لا يكفَّر، ولكنه ينقص إيمانه بالذنوب؛ كما أنه يزيد إيمانه بالطاعات، فالإيمان يزيد وينقص، ولا يزول بالمعاصي التي دون الشرك، وإن كانت كبائر، ولكنها تُنقص الإيمان، وهذا الحديث أصل من أصول أهل السُّنة والجماعة في هذه المسألة، وهي مسألة مرتكب الكبيرة، وبيان أن الله سبحانه يغفر له إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٢).

أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(١) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.
وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.
انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَصْلٌ: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي =

وفيه: أن الحسنات يُذهبن السيئات، فهذه امرأة أحسنت إلى هذه البهيمة، فسقتها على عطش، فأذهب الله عنها إثم هذه السيئة القبيحة بسبب الحسنة، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[١]، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقد سأل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[٢]، يعني: سواء كانت الكبد الرطبة من الآدميِّين أو من البهائم.

=وَالْكَبَائِرِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّي اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ بَلْ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ فِي مِثْلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾. وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**». وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ؛ فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ). انظر: (العقيدة الواسطية) ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٥١-١٥٢).

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنادةَ، وأبي عبدِ الرحمنِ مُعاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

(٢) سبق تخريجه (ص٧٠).

[تَحْرِيمُ قَتْلِ الْهِرَّةِ]

٢٠- وَقَالَ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»، قَالَ الزُّهْرِيُّ: هِيَ لِئَلَّا يَتَّكِلَ أَحَدٌ، وَلَا يَيْأَسَ أَحَدٌ. أَخْرَجَاهُ[(١)].

الشَّرْح

هذا الحديث على عكس الحديث الذي قبله، فهاهنا امرأةٌ أساءت إلى حيوان، فقد كان عندها هرَّة، حبستها عن الخروج لطلب الرزق، ولم تؤمِّن لها ما يُبقي على حياتها، حتى هلكت هذه الهرَّة، وهذه جريمة وإساءة إلى هذا المخلوق، فدخلت النار بسبب هذه السيئة، وليس معنى ذلك أنها كفرت، فقد يدخلِ النار مَن هو مؤمن، إذا كان عنده ذنوب، لكنه لا يخلَّد فيها، فيعذَّب فيها إلى ما شاء الله، ثم يخرج منها، فلا يخلَّد في النار إلا الكفَّار.

قوله ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ**»، هذا مثل ما سبق معنا في الحديث؛ أنه دخل رجل النار في ذباب، ودخل الجنة رجل في ذباب[(٢)]، وهنا ذكر أنه بسبب هرَّة دخلت المرأة النار (حبستها)؛ حيث لم تؤمِّن لها ما يكفيها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨) وليس فيه قول الزهري، وأخرجه مسلم (١٥١) (٢٢٤٢)، (١٣٥) (٢٦١٩) بنحوه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٦٧).

من الطعام والشراب، فدلَّ هذا على أن من أساء إلى البهائم أنه يؤاخذ، وأن عليه هذا الوعيد، فلا ينبغي أن يَستخِفَّ الإنسان بهذه البهائم، فيظلمها؛ لأن الظلم قبيح، سواء كان مع البهائم أو مع غيرها.

وفي الحديث: دليل على أنه يجوز حبس البهائم بشرط أن يؤمِّن لها ما يُبقيها على قيد الحياة من المأكل والمشرب، فهذه المرأة لو أمَّنت لها ما يكفيها، لما دخلت النار، فدل هذا على أنه يجوز للإنسان أن يحبس الطيور والبهائم، ولكن دون تعذيبها أو إهلاكها، أو تعريضها للخطر.

قوله: (قَالَ الزُّهْرِيُّ) هو محمد بن شهاب الزهري، الإمام الجليل.

وقوله: (لِئَلَّا يَتَّكِلَ أَحَدٌ)؛ يعني: لئلا يَتّكِلَ أحدٌ على عمله، بل ينبغي أن يخاف من الذنوب، وإن كان مؤمنًا، فهذه امرأة مؤمنة دخلت النار بسبب هرَّة، فلا ينبغي أن يأمن المؤمن، ويتَّكل على عمله، بل يخاف أن يدخل النار.

وقوله: (وَلَا يَيْأَسَ أَحَدٌ)؛ لأجل أن هذه امرأة بغي، وكانت قد ارتكبت الكبائر من الذنوب، فلم تيأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وعليه فلا ينبغي للعبد أن ييأس من رحمته عَزَّوَجَلَّ، بل عليه المبادرة إلى التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وحديث البغي يدلُّ: على أن المسلم لا يقنط من رحمة الله مهما بلغت ذنوبه، فإذا تاب إلى الله، تاب الله عليه.

ومسألة الخوف والرَّجاء هي من أصول الإيمان، والخوف والرَّجاء من أعظم أنواع العبادة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَغَبًا﴾ يعني: رجاء، و﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: خوفًا، فيجمعون بين الخوف والرجاء، فلا يخافون فقط، ولا يرجون فقط، وإنما يجمعون بينهما، فمن خلال هذين الحديثين يتبيَّن لنا هذا، والشيخ لما ذكر الحديث الأول، خاف على سامعِه أن يتَّكل على ما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء، فضَمَّ إليه حديث الهرَّة، الذي فيه التخويف ضدَّ ذلك؛ ليجتمع الخوف والرجاء.

[إِثْبَاتُ صِفَةِ التَّعَجُّبِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

٢١- وَعَنْهُ مَرْفُوعًا: «عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ»، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ[١].

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ» هذا فيه إثبات صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعجب، وهي صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما يليق بجلاله، وهذا العجب ليس كعجب المخلوق، وإنما هو عجب خاصٌّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كسائر صفاته[٢].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ»؛ أي: أنهم أُسروا، وقُيِّدوا حال كونهم كفارًا في الجهاد في سبيل الله، ثم بعد ذلك أسلموا، فيكون هذا الأسر سببًا لإسلامهم، ومن ثَمَّ لدخولهم الجنة، فكان أسرُهم مصلحةً لهم، وهذا من العجائب؛ إذ لا أحد يرفض دخول الجنة، ولكن إذا كان الإنسان لم يعمل عملًا يؤهِّله لدخول الجنة، فإنه لايدخلها،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٠)، وأبو داود (٢٦٧٧)، وأحمد (٢/ ٣٠٢، ٤٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٣): في سياق رده على منكري صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ: (وأما قوله: التعجب استعظام للمتعجب منه. فيقال: نعم، وقد يكون مقرونًا بجهل بسبب التعجب، وقد يكون لما خرج عن نظائره، والله تعالى بكل شيء عليم، فلا يجوز عليه ألا يعلم سبب ما تعجب منه، بل يتعجب لخروجه عن نظائره تعظيمًا له، والله تعالى يُعظم ما هو عظيم إما لعظمة سببه أو لعظمته...). اهـ.

فالكافر لا يدخل الجنة، ولكن إذا أراد الله له السعادة، فإنه قد يدخل الجنة بسبب يكرهه، فهو يكره الأسر، ولكنه صار سببًا في سعادته، أسره المسلمون، وقيَّدوه بالسلاسل، ثم إنه تاب، وأسلم بسبب الأسر، فدخل الجنة، وهذا من العَجب.

فهذا الحديث: فيه إثبات صفة العجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي صفة تليق بجلاله.

وفيه: أن الإنسان قد يكره شيئًا، ويكون خيرًا له، وقد يُحبُّ شيئًا، ويكون شرًّا له، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وفيه: أن الجهاد في سبيل الله شُرِع لغاية عظيمة، وهي إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان، وإنقاذهم من النار إلى الجنة، فلم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل قَتْل الناس وسَفْك دمائهم، أو من أجل أخذ أموالهم وسَبْي نسائهم والاستيلاء على بلادهم، لم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل ذلك، وإنما شُرِع من أجل غاية عظيمة، وهي إخراج الناس من النار إلى الجنة ولو بالسلاسل، هذه هي غاية الجهاد في سبيل الله، وهو من مصلحة الناس؛ فالمؤمن ينال به الأجر والثواب والشهادة، وقد يكون الكافر سببًا في دخول الكافر الإسلام وإخراجه من الكفر إلى الإيمان، وبالتالي دخوله الجنة، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]؛ أي: إذا دعاكم للجهاد. سماه حياة.

[صَبْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الَّذِينَ يَدَّعُونَ لَهُ وَلَدًا]

٢٢- وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصبر على أذى عباده؛ والصبر معناه: الحبس[2]، فالله جَلَّ وَعَلَا يصبر على أذى عباده، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، وإنما يؤخِّرهم، فإن تابوا، تاب الله عليهم، وتأخيرهم إنما هو من باب الإحسان إليهم، وإعطائهم الفرصة والمراجعة، فلا يعاجلهم في العقوبة.

فهذا الحديث فيه: وصف الله بالصبر، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصبر، ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصبور، والصبور معناه: شديد الصبر، الذي لا يُعاجل الناس بالعقوبة، ومما يدلُّ على صبره سبحانه أن الناس يَسبُّونه، ويشركون به، ويعصونه، ومع ذلك يُغذِّيهم بالنِّعم، ويُعطيهم العافية، ويُحسن إليهم؛ رحمةً بهم؛ لعلهم يتوبون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الحديث: أن الله يتأذى بأفعال عباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وفي الحديث

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨)، ومسلم (٤٩) (٢٨٠٤).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٢٩)، ولسان العرب (٤/ ٤٣٨)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٢١).

الصحيح: «**قَالَ اللهُ تَعَالى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(١)، والله يتأذى بأفعال عباده، لكنه لايتضرر، فلا تضرُّه المعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ [محمد:٣٢]، فالله لا يضره أحد، ولا تضره المعاصي، وإنما تضرُّ من فعلها؛ كما أن الطاعات لا تنفعه سبحانه، وإنما تنفع صاحبها، فالضرر بالمعاصي والنفع بالطاعات راجع إلى العباد، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فلا تضرُّه معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين؛ لأنه سبحانه غنيٌّ عن عباده؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»(٢).

ففي هذا الحديث: أن الله يتأذى بأفعال عباده من الكفر والمعاصي.

وفيه: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصبر عليهم، ويُمهلهم، ويُعاملهم بالإحسان، مع أنهم يُعاملونه بالإساءة، وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ خَيْرِي**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢) (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) (٢٥٧٧) عن أبي ذَرٍّ الغِفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيما يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ.

يَنْزِلُ إِلَيْكَ، وَشَرُّكَ يَصْعَدُ إِلَيَّ، وَأَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ، وَتَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي، وَلَا يَزَالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَدْ عَرَجَ إِلَيَّ مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ**»، هذا من أشدِّ الكفر، والله جَلَّ وَعَلَا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤]، وهو سبحانه منزَّه عن الولد؛ لأن الولد جزءٌ من أبيه؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥]؛ يعني: نسبوا له الولد؛ والولد يُشبه أباه؛ لأنه جزء منه، والله جَلَّ وَعَلَا لا شبيه له، ولو كان له ولد، لصار شريكًا له في الملك، وهو سبحانه منزَّه كذلك عن الشريك والشرك، والوالد يحتاج إلى الولد، وهو سبحانه ليس بحاجةٍ إلى شيء، فله سبحانه مُلك السماوات والأرض، فليس بحاجةٍ إلى الولد من أجل أن يُعينه أو ينفعه -تعالى الله عن ذلك-، لكن مع هذا ينسب المشركون له الولد، فيؤذونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك، وفي هذا بيان فضله سبحانه بالإحسان إليهم مع إساءاتهم بخلاف طبائع البشر، فلا يوصف بالإحسان إلى المسيء مثله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٧) عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: (قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ).

[إِثْبَاتُ صِفَةِ الْحُبِّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ]

٢٣- وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الْأَرْضِ»[١].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: وصف الله تعالى بأنه يُحبُّ كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، والله جَلَّ وَعَلَا يُحبُّ من عباده أهل الطاعة أهل الإيمان، فالحبُّ صفة من صفاته جَلَّ وَعَلَا، وهي صفة تليق بجلاله، وليست محبَّته كمحبة المخلوقين، فهو سبحانه يُحبُّ، والمخلوق يُحبُّ، ولا تشبه محبَّة الخالق محبَّة المخلوقين، وهذا أصل متقرِّر عند أهل السُّنة والجماعة.

والله جَلَّ وَعَلَا يُحبُّ بعض عباده من أهل الطاعات والتقوى، فإذا أحبهم، نادى الله تعالى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ**»، وهذا فيه دليل على أنه يجب أن نُحبَّ من يُحبُّه الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه (٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥،)، ومسلم مطولًا (١٥٧) (٢٦٣٧).

﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فنحن نحبُّهم بحبِّ الله جَلَّ وَعَلَا لهم، ونُبغض أهل الكفر والمعاصي، وهذا من الولاء والبراء، فالملائكة تُحبُّ ما يُحبُّه الله، ونحن كذلك نحبُّ ما يُحبُّه الله من الأعمال ومن الأشخاص.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**»؛ أي: تُوضع له المحبَّة في قلوب الناس، فإذا رأيت شخصًا يُحبُّه الناس من أهل الخير والإيمان، فهذا علامة على أن الله قد أحبَّه، وأحبَّته الملائكة، وإذا رأيت شخصًا يكرهه أهل الدِّين وأهل الإيمان، فاعلم بأن هذه علامة على أن الله يكرهه، ويكرهه كذلك أهل السماء؛ والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]؛ أي: محبَّة.

فالطاعات سببٌ لنيل محبَّة الله جَلَّ وَعَلَا، ومحبَّة الملائكة وأهل الأرض، والمعاصي على العكس، فهي سبب لبغض الله جَلَّ وَعَلَا لها ولصاحبها، وبغض أهل السماء وأهل الأرض له؛ ولهذا يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٦٠) (٩٤٩) عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: «مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجَبَتْ**»، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**»، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**».

[إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَومَ القِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ]

٢٤- وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبُجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾** [طه:١٣٠]. **رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ**(١).

الشَّرح

هذا الحديث فيه أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا جلوسًا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **«إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»**؛ يعني: ليلة التمام -إما ليلة الرابع عشر، أو الخامس عشر- التي فيها يتكاملُ القمرُ؛ لأنه يبدو في أول الأمر هلالًا، ثم يكبر، ولا يزال يكبر، حتى يتكامل، فيصير بدرًا كاملًا، ثم يأخذ في النقص، حتى يعود هلالًا في آخر الشهر، وهذا من عجائب خَلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والحكمة في تقدير منازل القمر هي لأجل أن يعرف الناس الحساب، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦)، ومسلم (٢١١) (٦٣٣).

فقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»؛ أي: في حال تكامُله وبهائه وحُسنه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»، والقمر في ليلة البدر يراه جميع الناس، كلٌّ في مكانه دون أن يتزاحموا، فيراه أهل البَرِّ وأهل البحر من غيرِ مزاحمة، فالمؤمنون يرون الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر، وهذا معنى قوله: «**لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**». وفي رواية تقرأ: «**لَا تَضَامُّونَ**»؛ إذ يجوز ضم التاء وفتحها، وهو بتشديد الميم، من الضَّم؛ أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، فلا تتزاحمون لرؤيته، بل تستوون كلكم في رؤيته تعالى؛ إذ من عادة الناس أنه إذا كان المرئيُّ شيئًا واحدًا أنهم يتزاحمون على رؤيته، لكن الله جَلَّ وَعَلَا يُرى يوم القيامة دون مزاحمة، فكلٌّ يراه، وهو في مكانه، وهذا في المخلوق كذلك، فالقمر مخلوق من مخلوقات الله ومع ذلك يراه الناس من غير مزاحمة، وهذا من باب ضرب المثل؛ ليُقرِّب للناس معرفة هذا الشيء، فإذا كان المخلوق يراه الناس دون مزاحمةٍ رؤيةً واضحة، فإن الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يراه المؤمنون يوم القيامة دون مزاحمة، وليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هو من باب تشبيه الرؤية بالرؤية، فهو سبحانه لا يُشبهه شيء، ولكن هذا من باب ضرب المثل لتشبيه الرؤية بالرؤية، لا من باب تشبيه المرئي بالمرئي؛ إذْ قد يُشكل هذا على بعض الناس(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا**»؛ أي: لا يغلبكم الشيطان، ولا تغلبكم النَّفسُ والأشغال الدُّنيوية «**عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ**

---

(١) انظر: التدمرية (ص ٧٨)، والفتاوى الكبرى (١/ ١٢٠)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٤٧)، ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٣٣٢).

الشَّمْسِ»، وهي صلاة الفجر، «**وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا**»، وهي صلاة العصر، «**فَافْعَلُوا**»؛ أي: اجتهدوا في المحافظة على هاتين الصلاتين في وقتهما؛ لتحظوا يوم القيامة برؤية الله جَلَّوَعَلَا، فهاتان الصلاتان لهما فضيلة على غيرهما من الصلوات الخمس، قال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨]، والصلاة الوسطى: هي صلاة العصر، عطفها الله على الصلوات من باب عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا بها.

وقوله: (**ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾)؛ يعني: صَلِّ، والصلاة تسمى تسبيحًا.

﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾؛ أي: صلاة الفجر.

﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾؛ أي: صلاة العصر.

والمراد: صلاتا الفجر والعصر. وصلاة الفجر يتهاون بها كثير من الناس، فينامون عنها ولا يهتمون بها، وبعضهم لا يصليها أبدًا، فيذهب إلى عمله، وقد أهملها، فمثل هذا كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، وبعضهم يصلي متى قام من نومه، فصلاة هذا غير صحيحة، لكونه لم يصلِّ الصلاة التي أمر الله بها، وإنما صلى صلاةً على اختياره هو، لا على اختيار الله جَلَّوَعَلَا؛ فهي لا تُقبل؛ لأنه تعمَّد إخراجها عن وقتها، وإذا تعمَّد إخراجها عن وقتها، فهي غير مقبولة، ولا تصح، وبعضهم يخرج من العمل بعد الظهر، فيتناول غداءه، وينام، ويُهمل صلاة العصر، وهذا مضيع للصلاة، وربما لا يصليها أبدًا، فمثل هذا كافر، وربما صلاها إذا استيقظ بعد الغروب أو وسط الليل، فهذا -أيضًا- لا تُقبل منه صلاته، فمثل هذه الصلاة على هذا النحو لم يشرعها الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يجوز له التلاعب في العبادة، ومثل هؤلاء يُحرمون من رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة.

فهذا الحديث حديث عظيم يتضمن إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، وهي من أعظم النِّعم التي تُعطى يوم القيامة؛ إكرامًا لهم، ولا شيء ألذُّ عليهم من رؤية ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي ألذُّ عندهم من جميع النعيم والملذات التي هم فيها، ولذلك يمنحهم الله هذه الكرامة، فيرونه عِيانًا بأبصارهم(١).

وفيه: ضرب الأمثلة للأمور الغائبة بأمور محسوسة ومشاهدة من أجل تقريب المعاني، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب المثال على الشيء الغائب بشيء حاضر محسوس؛ لئلا يقال: كيف سيرى أهل الجنة كلهم ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو واحد، فلا يمكن هذا؟! فبيَّن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا أمكن في المخلوق، وهو القمر، فهو ممكن في حق الله جَلَّ وَعَلَا من باب أولى، ففي هذا إزاحة للإشكال، وإيضاحٌ بالمثال.

وفي الحديث: الحثُّ على المحافظة على الصلوات الخمس، لاسيما الفجر والعصر، وأن ذلك سبب لرؤية الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة.

وفيه: أن مَن لم يحافظ على الصلوات الخمس، فإنه يحرم من رؤية الله يوم القيامة، نسأل الله العفو والعافية!

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٨١): عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ».

[انْتِقَامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِمَّنْ عَادَى لَهُ وَلِيًّا]

٢٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنِ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَن شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». رواه البخاري[١].

الشَّرح

هذا حديث عظيم، فيه أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول في هذا الحديث القدسي: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»، الوليّ: العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وهو المحبوب، ووليُّ الله: عبده الذي يُحبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد تقدم لنا أن الله يوصف بأنه يُحب أهلَ الإيمان، فمن أحبَّه الله، فهو ولي الله، والوَلاية بفتح الواو: الحُبّ، وأما الوِلاية بكسر الواو: فهي الوظيفة والإمارة، وأما الوَلاية بفتح الواو: فهي المحبة[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) الوِلاية بالكسر السلطان، والوَلاية بالفتح والكسر النصرة، والْوَلِيُّ ضد العدو، يقال منه تَوَلَّاهُ، وكل من وُلِيَ أمر واحد فهو وَلِيُّه، و المَوْلَى المُعْتِق والمُعْتَق. انظر: مختار الصحاح (ص٣٠٦)، ولسان العرب (١٥/ ٤٠٦)، والمصباح المنير (٢/ ٦٧٢).

وقد بيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَن هو وليُّه في كتابه العزيز، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، فمن اتصَّف بالإيمان والتقوى، فهو وليُّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومن ترك الإيمان والتقوى، فهو عدوٌّ الله، فإذا أردت أن تكون وليًّا لله، فكن من المؤمنين المتقين؛ فليست الولاية مجرد دعوى باللسان كقول اليهود والنصارى؛ كما أخبر سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨]، فلو كنتم أولياء الله، لما عذَّبكم، فالله ردَّ عليهم بانهم ليسوا بمؤمنين، ولا متَّقين، ثم قال: ﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:١٨]، فدعوى الولاية لا تثبت إلا بدليل وبرهان، فمن كان تقيًّا ومؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ، فهو وليٌّ لله، وأما من كان بخلاف ذلك، فإنه عدوٌّ لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فقوله: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا**»: أي عبدًا محبوبًا لي من المؤمنين المتقين، «**فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»؛ أي: أعلمته بأني أحاربه على عداوته لوليِّي؛ وإعلان الحرب من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بما يشاء من جنوده، فقد يحاربه بالأمراض وبالفقر، أو بموت الأحباب والأقارب، ويحاربه بكل المصائب، أو بتسليط الظَّلمة عليه، فله سبحانه جنود السماوات والأرض؛ فهو سبحانه يحارب أعداءَه بجنوده التي هي جنود السماوات والأرض، فقد نراهم، وقد لا نراهم، فالذي يُعادي أولياء الله، فإنه سبحانه يحاربه.

فهذا الحديث فيه: أنه لا يجوز محاربة أولياء الله ومعاداتهم، وأنَّ من عاداهم وآذاهم، فإن الله ينتقم منه، فهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين بالاستهزاء والسُّخرية والتنقُّض منهم من خلال كتاباتهم في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، فيسخرون من أهل الدِّين والإيمان وأهل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هؤلاء يتناولهم هذا الحديث، والله ينتصر لأوليائه، فينبغي عدم إيذاء أولياء الله، وعدم التنقُّص لهم، أو التعرُّض له بأيِّ نوع من أنواع الأذى.

وقوله: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»، هذا فيه -كما سبق- إثبات صفة الحبِّ لله جَلَّوَعَلَا، وأنه سبحانه يحب الأشخاص والأعمال الصالحة التي تُعمل من قِبَلهم.

وفيه: أن الفرائض أحبُّ إلى الله من النوافل، فينبغي على الإنسان أن يحافظ على الفرائض أولًا، ثم يأتي بالنوافل، أما أن يأتي بالنوافل ويترك الفرائض، فهذا على عكس ما يحبُّه الله تعالى، وهذا لا ينفعه؛ إذ لا تُقبل النوافل إلا بعد أداء الفرائض، فينبغي للمسلم الاهتمام بأداء الصلوات الخمس وصوم رمضان، ودفع الزكاة وأداء فريضة الحج، وكل ما افترضه الله عليه -كالبرِّ بالوالدين والإحسان إلى الأقارب-، فالأصل في هذا هو أداء الفرائض أولًا، ثم بعد ذلك التزوُّد بالنوافل، هذا هو الأساس السليم للأعمال الصالحة.

وقوله: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، والنوافل: هي العبادات غير المفروضة، سواء في الصلاة، أو في الصدقات، أو في الصيام،

أو في الحج والعمرة، فكل عمل صالح ينقسم إلى قسمين: فرائض، ونوافل، فيُبدأ بالفرائض أولًا، ثم بعد ذلك يأتي بالنوافل، فينبغي التقرُّب إلى الله بالوصول إليه من خلال هذه النوافل، وأما عصيانه، فإنه يؤدي إلى الابتعاد عنه جَلَّوَعَلَا، فالتقربُّ إلى الله إنما يكون بالطاعات والابتعاد عنه جَلَّوَعَلَا يكون بعمل المعاصي.

وقوله: «**حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فكما ذكرنا فيه إثبات صفة الحبِّ لله جَلَّوَعَلَا، وأنه يُحب عبده الذي يتقرب إليه بالفرائض أولًا ثم بالنوافل.

وقوله: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، ومعنى ذلك كما فسَّره في آخر الحديث بقوله: «**وَلَئِن سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»، فآخر الحديث يفسِّر أوله، والمراد أن الله جَلَّوَعَلَا يكون معه معيَّة خاصة؛ فيُسدِّدُهُ في أقواله وفي أفعاله؛ هذا معنى قوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، وليس معناه أنه جَلَّوَعَلَا معه معيَّة حسيَّة تقتضي المخالطة؛ أو يختلط في جسمه -كما تقوله الحلولية[1] والبهائية-، مما يُعتبر من الكفر والإلحاد، ولكن معناه: أنه سبحانه يكون معه معيَّة خاصة، تقتضي التوفيق والهداية والتسديد في جميع تصرُّفاته،

---

(١) **الحلولية**: هم الذين يعتقدون أن الله تعالى بذاته حل في مخلوقاته؛ كما يحل الماء في الإناء، وأنه تعالى بذاته في كل مكان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. والقول بالحلول والاتحاد مآلهما واحد، وهذه عقيدة غلاة الصوفية والفلاسفة، كابن عربي وابن سبعين والحلاج والتلمساني وغيرهم. انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١١١- ٤٨٠).

وهذا نتيجة محبَّة الله له، وهذا كله حاصل من التقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالفرائض والنوافل؛ ففيه فضل التقرُّب إلى الله بالفرائض والنوافل.

وقوله: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَن شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ**»، الله جَلَّ وَعَلَا يُحبُّ ما يحبُّه عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، فالمؤمن يكره الموت، والله جَلَّ وَعَلَا يكره له ذلك، ولكنه لابدَّ منه؛ ولهذا قال: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ**»، والتردد يكون بين شيئين، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا لا يتردد، وإنما معناه كرهت، وهو ما جاء في آخر الحديث، والمراد: ما كرهت شيئًا أشد من قبض روح المؤمن؛ لأن الإنسان بطبيعته يكره الموت، وحتى البهائم تكره الموت، ولكن لابدَّ له منه؛ وقوله: «**وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**» يفسِّر قوله: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ**»؛ فالحديث يفسِّر بعضه بعضًا، فإما أن يكون في حديث واحد أو في حديث آخر، وكذا كلام الله يفسِّر بعضه بعضًا، ومثل هذا يحتاج إلى فقه وعدم استعجال في الفهم.

[نُزُولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

٢٦- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي، فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي، فَأَغْفِرَ لَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

الله جَلَّ وَعَلَا موصوفٌ بالعُلوِّ فوق مخلوقاته، وموصوف بالاستواء على العرش، وموصوف بأنه ينزل إلى سماء الدُّنيا، وكل هذا نُثبته لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه جاء بأدلةٍ صحيحة، فنثبت لله العُلوَّ، ونثبت له الاستواء على العرش، ونثبت له سبحانه النُّزول إلى سماء الدنُّيا؛ كما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، فنحن نثبت نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة -كما صحَّ في الحديث-، ولا ندخل في تأويل ذلك أو في استنكاره، بل نثبت ما أثبته الله جَلَّ وَعَلَا لنفسه، وأثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء، دون الدُّخول في الكيفية، فلا نقول: كيف ينزل؟ وهل ينتقل من مكان إلى مكان؟ ونحو هذه الأسئلة التي لم نكلَّف بها، ولافائدة منها، ولكن نقول: ينزل كيف يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيفية النزول لايعلمها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك الاستواء، فلا نعلم كيفية استوائه جَلَّ وَعَلَا، ولما سأل رجل الإمام مالك بن أنس قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (١٦٨) (٧٥٨).

عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]: كيف استوى؟ فقال الإمام مالك بعدما أخذته الرُّحضاء، ثم أطرق رأسه حياءً من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ثم رفع رأسه وقال: يا هذا: «الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا رَجُلَ سُوءٍ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَأُخْرِجَ مِنَ المَجْلِسِ»(١)، هكذا كان السلف الصالح يثبتون ما أثبته الله لنفسه على معناه الصحيح الذي جاء به، ولا يتعرَّضون للكيفية، ونحن نثبت النزول كما نثبت الاستواء والعلو لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ونقول: الله أعلم بكيفية نزوله واستوائه.

فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**» فيه إثبات النزول لله جَلَّوَعَلَا، وهو أمر متواتر عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ(٢)، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ مؤلفًا مستقلًا على هذا الحديث، سماه (شرح حديث النزول)، وهو مطبوع ومنتشر -ولله الحمد-، وهو من عقيدة أهل السُّنة والجماعة.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **عن ربه: إنه يقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»** فيه فضل وقت آخر الليل؛ أي: الثلث الأخير منه، وفضل قيام العبد في هذه الفترة، وصلاته ودعائه، واستغفاره وتوبته، وسؤاله لربِّه من أجل أن ينال هذه الكرامات من الله جَلَّوَعَلَا، فلا تمرُّ

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤- ٣٠٥)، وفي الاعتقاد (ص١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص١٣٩).

(٢) أحاديث الرؤية متواترة كما ذكر هذا عدد من أهل العلم، منهم العلامة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ١٥٨-١٦٠)، وانظر: صحيح البخاري (٥٧٣)، ومسلم (٢٩٦) (١٨٠)، (٢٩٧) (١٨١)، و(٢٩٨) (١٨٢).

عليه هذه الفترة وهو نائم، بل يقوم في الثلث الأخير من الليل، ويتعرض لنفحات الله، ويحظى بهذه الإجابات منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأهل التأويل يؤوِّلون هذا الحديث بقولهم: (إنما ينزل أمره إلى سماه الدنيا)، ونحن نقول: هل الأمر الذي أوَّلوا به النزول يقول: من يَدعوني فأستجيب له؟ أو من يسألني فأعطيه؟ وهل الأمر يغفر؟ وهل الأمر يجيب الدعاء، ويتوب على التائب؟! ما أقبح هذا التأويل! فالحديث واضح في أنَّ الله ينزل بذاته نزولًا حقيقيًّا لا أمرُه، إذ إن أمره ينزل إلى سماء الدنيا وإلى الأرض كل وقت، وليس في وقت مخصوص، والواجب علينا والحالة هذه الإيمان بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وألَّا نَدخل في الكيفية.

وبعضهم يُورد شُبهة أخرى في هذا الحديث، ويقول: (ثلث الليل الآخر يختلف باختلاف الأقاليم)، نقول: إن هؤلاء يبحثون في أمور لم يكلفهم الله بالبحث فيها، فالذي خلق الليل والنهار وخلق الأقاليم قادر على أن ينزل نزولًا يليق بجلاله، متى شاء وكيف شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله جَلَّ وَعَلَا قادر على كل شيء، فهو سبحانه أخبرنا أنه ينزل، فنقول: ينزل، سواء اختلف الليل، أو اختلفت الأقاليم، والله تعالى أعلم.

[وَصْفُ الْجِنَانِ وَالنَّظَرُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

٢٧- وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرُوا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١].

الشَّرح

الجنات كثيرة، فهناك جنة عدن، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وهناك جِنان كثيرة، وأعلاها الفردوس، وفي الحديث: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»[٢]، والجِنان مخلوقة، فمنها ما هو مخلوق من ذهب كله بآنيته وما فيه، ومنها ما هو مخلوق من فضة آنيته وما فيه، والمؤمنون ينزلون في الجنان بحسب أعمالهم.

ففي الحديث: إثبات الجنان، وهي من أمور الآخرة، ومن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنؤمن بوجود الجنة وبوجود النار، ونؤمن بما يكون يوم القيامة بجميع ما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا به، وما أخبر عنه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما صحَّ في الخبر، نؤمن به.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨، ٤٨٨٠، ٧٤٤٤)، ومسلم (٢٩٦) (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والشاهد في الحديث: بيان أنه ليس بين أهل الجنة وبين أن يروا ربهم إلا أن ينزع سبحانه الحجاب، فهذا فيه إثبات الرؤية -كما سبق-، وأن المؤمنين يَرَون ربَّهم.

وفيه: إثبات الحجاب لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه اتخذ الحجاب، فإذا شاء سبحانه وأراد إكرام المؤمنين، حفَّهم برأفته، وتفضَّل عليهم، ونزعه، فرآه المؤمنون.

٢- بَابُ قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

الشَّرح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ قَولِ اللهِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾)، أي: بيان تفسير هذه الآية وما جاء بمعناها من الأحاديث الصحيحة؛ لأن القرآن العظيم يُفسَّر بالقرآن، فإذا لم يوجد في القرآن تفسير، فإنه يُفسَّر بالسُّنة الثابتة عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الآية جاء تفسيرها في السُّنة[(١)].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والآجُري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وساقه بإسناده (٣/ ٥٣٨)، وأبونعيم في الحلية (٥/ ١٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٦٦)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٥٥٧). عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِي بالأمرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَات مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُون أَوَّل مَنْ يَرْفَع رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيه بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلائِكَة، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُول جِبْرِيلُ: قَالَ:** ﴿ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]. **قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلّهمْ مِثْل مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إلى حَيْثُ أَمَرَهُ الله** عَزَّوَجَلَّ».

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ يعني: الملائكة إذا سمعت كلام الربِّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فإنه يُصيبهم فزع وخوف من الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن كلامه عظيم، ترعد له السماوات، ولو أنزل الله القرآن على جبل، لأصبح خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله، فكلامه سبحانه له هيبة وعظمة وجلال، «**إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بالأمرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَات مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ**»، وهي جماد، «**فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا**»، فإذا سمع ذلك الملائكة، صعقوا، وأصابهم غشي، وخرُّوا لله سُجّدًا؛ تعظيمًا له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهيبة من كلامه، وخوفًا من غضبه؛ هذا كلام الله الذي هو بين أيدينا الآن، ولا نحرِّك معه ساكنًا إذا سمعناه أو قرأناه، وذلك لقسوة قلوبنا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، فلو كانت القلوب حيَّةً، لأصابها الخوف والإجلال والتعظيم لكلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، فالجبل أَلْيَنُ من قلوب بني آدم، وهذا من العجائب، لكن ما السبب الذي جعل القلوب هكذا؟ إنها الذنوب والمعاصي والغفلة عن ذكر الله، وأكل الحرام والاشتغال بالقيل والقال، والضحك والمزاح، كل هذه الأمور من شأنها أن تُقسِّي القلوب، فإذا سَمعت هذه القلوب كلام الله، فإنها لا تتأثر -ولا حول ولا قوة إلا بالله-؛ مع أنَّ السماوات -على عظمها- تَرعُد من كلام الله، والملائكة تصعق وتَخِرُّ ساجدة لله -جل شأنه- عند سماع كلامه.

ثم إن الملائكة يتساءلون إذا ذهب عنهم الفزع: «مَاذَا قَالَ رَبّنَا يَا جِبْرِيلُ؟» يسألون جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمين الوحي، «فَيَقُول جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾»، فهذا فيه: بيان عظمة كلام الله جَلَّ وَعَلَا، ووَجَل الملائكة والسماوات والمخلوقات العلوية منه.

[كَذِبُ الْكَهَنَةِ وَدَجَلُهُمْ]

٢٨- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُمِيَ بِنَجْمٍ، فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ- إِذَا قَضَى أَمْرًا، سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ، فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١).

الشَّرح

قوله: (أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ) كونه قال: (مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ)، فهذا لا يحتاج إلى بحث؛

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٤) (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٧٢).

لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم عدول، فالجهالة في اسم الراوي لا تضرُّ، إنما المجهول إذا كان من غير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنه يُبحث عنه، وأما المجهول من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلا حاجة للبحث عنه؛ لأن الله سبحانه عدَّلهم ومدحهم، وأثنى عليهم، وكذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدحهم، وأثنى عليهم.

قوله: «**رُمِيَ بِنَجْمٍ، فَاسْتَنَارَ**» أي: بشهاب، والمراد: رَجْم الشُّهب التي تُرمى بها الشياطين، التي تحاول استراق السمع؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ** ﴾ [الملك:٥]، وقال: ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ [الصافات:٦-١٠]، ورميُ الشُّهب من السماء سببه أنه رجوم للشياطين.

قوله: «**فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ**»؛ يعني: في الجاهلية؛ لأن رمي الشُّهب متكرِّر، وهو في الجاهلية أكثر، فكانوا في الجاهلية يعتقدون اعتقادًا سيئًا، فيقولون: (إنه إذا رمي بالشهاب، فإنه سيموت عظيم، أو سيولد عظيم)، هذا ظنُّهم وتخرُّصهم، كما كانوا يعتقدون ذلك إذا ما كُسفت الشمس أو خُسف القمر، فبيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذب هذا الزعم، وأنه غير صحيح، وأن هذه الشُّهب ليست لولادة أحد أو لموت أحد، وإنما هي لأمر أعظم من ذلك.

قوله: «**فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»، في هذا تصحيح منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاعتقادهم، وفيه تعليم الجُهّال، ولاسيما في المناسبات الشبيهة بهذه.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَكِنْ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ**»، إذا قضى أمرًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الأمور التي ستحدث في هذا الكون مما قضاه وقدَّره، فإن الملائكة الذين يحملون العرش يشرعون بالتسبيح، وهذا فيه أن كلَّ شيء يحدث في هذا الكون إنما هو بقضاء وقدر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقضاه، وأراده، وقدَّره، وفي هذا إثبات القدر.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، هؤلاء الملائكة إذا سمعوا كلام الله، فإنهم يسبِّحون له؛ أي: يُنزِّهونه جَلَّ وَعَلَا عن النقص والعيب، فيشتغلون بالذِّكر.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»، هذا فيه أن السماوات معمورة بالملائكة، فكل سماء لها ملائكة خاصُّون يسكنونها، وهي سبع سماوات، والملائكة هم عمار السماوات بالعبادة والتسبيح والتهليل، ومنهم حملة العرش.

وقوله: «**ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ**»، هذا فيه إثبات وجود حملة العرش، وهم أربعة ملائكة، ولا يعلم عِظَم خِلْقَتِهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم إنه يوم القيامة عند

قيام الساعة يضاعف عددُهم، فيكونون ثمانية، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، زاد عددهم الضعف للهول الذي يحصل(١).

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قَالَ فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا»**، يسأل بعضهم بعضًا: ما الذي قضاه الله؟ وما الذي قاله جَلَّ وَعَلَا؟

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حَتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا»**، السماء الدنيا هي التي تلي الأرض، فحينما يتكلمون، فإن الشياطين تسترق السمع، فترتفع في العَنان، ويركب بعضهم بعضًا، حتى يصلوا إلى الجوِّ قُرب السماء؛ ليستمعوا ماذا تقول الملائكة.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَتَخْطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ»**، فهؤلاء الجنُّ يحاولون استراق السَّمع، فيُرمون بالشُّهب، ولا يُدركون ما أرادوا، إلا في بعض الأحيان، فقد يخطف الشيطان كلمةً من كلام الملائكة، ثم يُلقيها إلى وليِّه من بني آدم من الكهنة؛ لأن هؤلاء الكُهَّان يأخذون عن الشياطين؛ قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]،

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٠، ٣٥١): ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ثمانية أملاك، وجاء في الحديث: أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين، هذا قول الجمهور.

والثاني: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عزل وجل، قاله ابن عباس وابن جبير وعكرمة.

والثالث: ثمانية أجزاء من الكروبيين لا يعلم عددهم إلا الله، قاله مقاتل). اهـ.

فإذا حصل الشيطان على هذه الكلمة، ألقاها إلى الكاهن من بني آدم، ثم الكاهن يكذب معها مئة كذبة، ويحدث بها، فيُصدِّقه الناس في كلِّ ما قال من الكذب بسبب الكلمة التي سمعها الشيطان من كلام الملائكة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ**»؛ يعني: يَصدُق في كلمة واحدة، وهي التي سمعتها الشياطين، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ**»؛ أي: ولكن الكهنة يزيدون على الكلام الذي يسمعونه؛ كما جاء في الحديث: «**فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**»[1]، فيحدِّث بها الناس، فيُصدِّقونه في كل ما قال بسبب كلمة واحدة، ويَقبلون منه التسع والتسعين من الكذب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٣].

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولغيرهم من المسلمين إلى أن تقوم الساعة سبب رَمْي الشُّهب، وأنه ليس كما تقوله الجاهلية -إنما كان لموت عظيم، أو لولادة عظيم-، وإنما كان ذلك بسبب محاولة اختراق

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ** ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؛ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**».

الشياطين للسمع، وأنهم يُرمون بهذه الشُّهب، هذا ما يدلُّ عليه هذا الحديث.

وفي الحديث -أيضًا-: إثبات صفة العُلوّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق مخلوقاته على عرشه.

وفيه: أن السماوات معمورة بالملائكة، كل سماء مملوءة بالعُمَّار من الملائكة، الذين يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ، ويمتثلون ما يأمرهم به.

وفيه: إثبات القضاء والقدر، وفيه تفسيرٌ للآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣]؛ كما يأتي هذا في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ التالي.

٢٩- وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ: جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَمْضِي جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّفْظُ لَهُ(١).

الشَّرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ»، هذا فيه إثبات الإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ» فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخَذَتْ السَّمَاوَات رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» السماوات -وهي جماد- ترتجف وترعد من خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعظيم كلامه جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والآجُري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره وساقه بإسناده (٣/ ٥٣٨)، وأبونعيم في الحلية (٥/ ١٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٦٦)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٥٥٧).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، صُعِقُوا، وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا**»؛ يعني: أصابهم الغشي من هيبة الله جَلَّ وَعَلَا؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هذا لما تجلى الله للجبل، واندك ذلك الجبل، خرَّ موسى على الأرض صعقًا من شدة الهول والخوف من الله تعالى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الصعق، ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وكذلك الملائكة إذا أُزيل الفزع الذي أصاب قلوبهم، أخذوا ينادون جبريل، ويسألونه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَع رَأْسه: جِبْرِيلَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ»؛ لأنه أمين الوحي، والسفير بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين رسله بالوحي، وهو أشرف الملائكة- سماه الله أمينًا- فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ موكَّل بالوحي، وهذا يدلُّ على شرفه وفضله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَيُكَلِّمهُ الله مِنْ وَحْيه بِمَا أَرَادَ**»، هذا فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ، فيكلم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي الذي يوحيه إلى أحد أنبيائه.

وقوله: «**فَيَمْضِي جِبْرِيل عَلَى الْمَلَائِكَة، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتهَا: مَاذَا قَالَ رَبّنَا يَا جِبْرِيل؟**»، هذا فيه اهتمام الملائكة بكلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه فضل جبريل كونه هو الذي يحمل الوحي، اختُصَّ بذلك من بين الملائكة، حتى إن الملائكة يسألونه سؤال المتعلِّم للعالم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَيَقُول جِبْرِيل: قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيّ الْكَبِير**» يقول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما سأله الملائكة: «**مَاذَا قَالَ رَبّنَا يَا جِبْرِيل؟**»، فيُجيبهم

«فَيَقُول جِبْرِيل: قَالَ الْحَقّ وَهُوَ الْعَلِيّ الْكَبِير، قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلّهمْ مِثْل مَا قَالَ جِبْرِيل».

وهذا فيه: إثبات صفة الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن كلامه حقٌّ لا يعتريه الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلّهمْ مِثْل مَا قَالَ جِبْرِيل»؛ أي: قالوا كلهم: «قَالَ الْحَقّ وَهُوَ الْعَلِيّ الْكَبِير»، هذا تفسير آية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]؛ أي: قالوا: قال اللهُ الحقَّ.

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَنْتَهِي جِبْرِيل بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ»؛ أي: ينتهي به جبريل إلى ما أمره الله من تبليغ الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الوسيط بالوحي بين الله عَزَّوَجَلَّ ورسله- عليهم الصلاة والسلام-، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧]، واليهود يُعادون جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد قالوا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كان الذي يأتيك غير جبريل، لآمنا بك؛ لأن جبريل عدوٌّ لنا، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فهذا القرآن ليس من كلام جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإنما هو من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ

وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]، هذه مقالة اليهود، وهناك من الطوائف الضالة المنحرفة من يقول بقول اليهود، ويقولون: إن جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ خان الرسالة؛ لأنها لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، ولكن جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ صرفها لمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويقولون: (خان الأمين) -قبحهم الله!!-؛ لأنهم هم أنفسهم منحدرون من اليهود، فهذه مقالة اليهود تمامًا.

٣- بَابُ قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧].

الشَّرْح

هذا الباب جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]، وتفسير هذه الآية جاء في السُّنة؛ كما في صحيح مسلم: «**يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(١).

ويكرِّر هذا، فلا يُجيبه أحد؛ كما جاء في حديث آخر، فيجيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسه، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٢)، ولا أحد يعترض على هذا، كلٌّ مقرٌّ بأنَّ الملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من توحيد الرُّبوبية، وهو مقرَّة به جميع

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٣) معلقًا، ومسلم (٢٤) (٢٧٨٨) موصولًا مرفوعًا من طريق عمر بن حمزة، عن سالم، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه البخاري (٧٤١٢) مرفوعًا مختصرًا من طريق عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، فَيَسْمَعُهَا الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ وَيَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُنَادِي: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**». وقال: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ).

الأمم، وأن الملك اليوم لله، ولكنهم في حياتهم الدنيا كانوا يعبدون معه غيره، يزعمون أن هؤلاء شفعاء ووسائط عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلا فهم يعرفون أن هذه المعبودات ليس لها من الملك شيء، وأن الملك لله عَزَّوَجَلَّ.

[قَبْضُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَرْضَ وَطَيُّ السَّمَاءِ]

٣٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

الشَّرْح

وهذا تفسير آخر للآية فيه أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقبض الأرض، ويطوي السماء بيديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي هذا دليل على عظمة الله جَلَّ وَعَلَا، وأن هذه المخلوقات حقيرة قياسًا بعظمة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]؛ أي: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه؛ حيث إنهم كذبوا رسله، وأشركوا بالله عَزَّ وَجَلَّ، وعبدوا غيره، وأنكروا كلامه، وأنكروا أسماءه وصفاته، وتجرؤوا على حرماته، وتركوا طاعته، كل هؤلاء ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، وهم الكفار والمشركون والعُصاة والفِرق الضالَّة؛ من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، الذين نفوا أسماء الله وصفاته وحرَّفوا، فجميعهم داخلون في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، أي: ما عظَّموه حق تعظيمه، وكذلك كل مَن خالف أمر الله، وعصاه، وارتكب ما نهاه عنه، وترك ما أوجبه عليه، فإنه لم يُقدر الله حقَّ قَدْرِه، وقد بيّن سبحانه عظمته، وأنَّ من عظمته أنه يطوي هذه المخلوقات يوم القيامة، ويقبضها

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٣) (٢٧٨٧).

بيديه على الرَّغم من اتساعها وضخامتها، وهي سبع سماوات وسبع أرضين، مضافًا إليهما ما في الأرض من المخلوقات والجبال والبحار والأشجار، كلها يقبضها الله عَزَّوَجَلَّ بيديه وعلى أصابعه جَلَّوَعَلَا؛ كما جاء في الحديث(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم (٢١) (٢٧٨٦) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٩١]».

٣١- وَلَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عَنْ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمواتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»**(١) .

• الشَّرح •

يقول الله جَلَّ وَعَلَا يوم القيامة: **«أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»**(٢)، لقد كان في الدنيا جبابرة ومتكبِّرون عن طاعته جَلَّ وَعَلَا، وكانوا يستعملون جبروتهم على الناس، ويظلمونهم، ويتسلَّطون على العباد، لكن في الآخرة وبمجرد أن تقوم القيامة يذهب سلطانهم ومُلكهم، ولا يبقى المُلك إلا لله الواحد القهار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الحديث فيه: إثبات أن من أسمائه جَلَّ وَعَلَا المَلِك، وهو المَلك الحقيقي، وأما غيره من الملوك، فملكهم إنما هو مجرد منحة منه جَلَّ وَعَلَا، وإلا فالمُلكِ الحقيقي هو لله جَلَّ وَعَلَا؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]، فملوك الدنيا جميعهم إنما ملكهم منحة وعطية منه جَلَّ وَعَلَا، وليس ملكهم بسبب قوتهم ومكانتهم، وإنما هو ابتلاء وامتحان منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يبتليهم ويبتلي بهم؛ يبتليهم بإعطائهم الملك، ويبتلي بهم الناس بتسليطهم عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٢).

(٢) سبق تخريجه (ص١١١).

٣٢- وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ»، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

الشَّرح

لقد بيَّن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الآية، وفسَّرها على المنبر، فأخبرهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبض السماوات والأرض بيديه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين ملوك الدُّنيا؟ أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟ ثم إنه جَلَّ وَعَلَا يعظم نفسه بأسمائه وصفاته؛ كما ذكر ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، حتى إن المنبر -وهو جماد- قد اهتزَّ من هيبة الله وجلاله وعظمته، وهذا يعني أنَّ الإدراك موجود في الجمادات، فهي تعرف ربها؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]، فكلُّ المخلوقات تسبِّح الله بلغتها التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهذا المنبر قد اهتزَّ من هيبة الله وعظمته جَلَّ وَعَلَا،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٩/ ٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (٧٦٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٤٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٧٠).

وقد كان ﷺ يخطب في أول الأمر على جِذْع نخلة، فيضع يده عليها ﷺ ويخطب، ثم لما صُنع له المنبر ترك الجذع، وصعد على المنبر، وصار يخطب الناس، ولكن الجِذْع حَنَّ إلى رسول الله ﷺ، وبكى كما يبكي الصبيُّ، وسمع الصحابة رضي الله عنهم الجِذْع، حتى نزل رسول الله ﷺ، ووضع يده عليه، فجعل يَئِنُّ كأنين الطفل[1]، وهذا إدراك من الجمادات، وقد يُظهر الله لعباده شيئًا من ذلك للاعتبار والعظة.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٣) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ، فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ».
وأخرج البخاري (٢٠٩٩٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: «أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لِي غُلَامًا نَجَّارًا قَالَ: «إِنْ شِئْتِ»، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ الْمِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ».

٣٣- وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ، «أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قَالَ: «يَأْخُذُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- أَنَا الْمَلِكُ»، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ »[(١)].

الشَّرْح

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوضِّح في هذا الحديث للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كيفية قبض الله تعالى للسماوات والأرض، وأنه قبضٌ حقيقي، وهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون بالمجاز، فيبيِّن لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قبض حقيقي، فيقبض بيديه ويفتحهما، وهذا توضيح، وليس معناه تشبيه يَدَي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيد الله؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[(٢)]، فليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما هو تشبيه لرؤية الله برؤية القمر، وكذلك هنا كما جاء في رواية ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[(٣)]، فقد قبض الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه؛ ليبينِّ لهم أن القبض حقيقي، وليس مجازًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥) (٢٧٨٨).
(٢) سبق تخريجه (ص٨٤).
(٣) سبق تخريجه (ص١١٥).

وقوله: «حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»، هذا فيه أن المنبر أصابه ما أصابه من الهيبة لله، وهو جماد!

[مَا أَوَّلُ هَذَا الأَمْرِ؟]

٣٤- وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم»، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا، فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ؛ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، قَالَ: وَأَتَانِي آتٍ، فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا، فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي»[١].

الشَّرْح

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَضَ البشرى على بني تميم، ولكنهم استعجلوا ذلك، وقالوا: أعطنا، دون أن يستفسروا ويعرفوا حقيقة هذه البشرى، وإنما كان همُّهم نصيبَهم من عَرَض الحياة الدُّنيا، فقالوا: «قَدْ بَشَّرْتَنَا، فَأَعْطِنَا»، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١]، فأعرض عنهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لأهل اليمن: «**اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ**»، قال ذلك بعدما لم يقبلها بنو تميم، «قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟»؛ ذلك أن بني تميم لم يقبلوا، ولكنهم قالوا: «قَدْ بَشَّرْتَنَا،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٠، ٣١٩١، ٧٤١٨)، وأحمد في مسنده (٣٣/ ١٠٧)، واللفظ له.

فَأَعْطِنَا»؛ ظنًّا منهم أن البشرى أمر دنيويٌّ، ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن هذا قصده، ولذلك كان أهل اليمن أحسن أدبًا من بني تميم؛ فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله؛ فأخبرنا عن أول هذا الأمر، يعني: عن أول هذا الخَلْق، فقد طلبوا من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبيِّن لهم بداية هذا الخلق، والخلق لا شك أنه حادثٌ، وأن له بداية، وأما الخالق جَلَّ وَعَلَا، فإنه ليس له بداية، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»**(١)، هذا تفسير الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**﴾ [الحديد:٣] في هذه الأسماء الأربعة المتقابلة.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»**؛ يعني: أنه سبحانه ليس له بداية، وأما المخلوقات، فإنها لها بداية؛ لأنه هو الأول، فليس قبله شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»**؛ أي: على الماء الذي فوقه السماوات، وهذا فيه دليل على أن العرش هو أول المخلوقات، وهو أعلاها(٢)؛ إذ ليس قبل العرش شيء من المخلوقات، وكان على الماء، فهو

---

(١) أخرجه مسلم (٦١) (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٢٧٩٠) وفيه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»**.

بحر في السماوات؛ كما جاء في الحديث: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَايَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»[(١)]، وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧].

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، هذا فيه أن كل شيء يحدث من أول الخلق إلى آخره إنما هو مقدَّر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفي هذا إثبات القضاء والقدر، والكتابة في اللوح المحفوظ.

وقوله: «وَأَتَانِي آتٍ، فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا، فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي»، لم يكن عمران رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استكمل كلامه مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب أن ناقته كانت قد انحلَّت من عقالها، فلما أُخبر بذلك، خرج في إثرها لطلبها، ولم يكن قد أدرك آخر الحديث.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨٨)، والتوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٣٨)، والديلمي في الفردوس (٤/ ٧٨)، وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١٠٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

[لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ على أحدٍ]

٣٥- وَعَنْ جُبَيْرِ بن مُحَمَّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: «أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لنا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي ما تَقُولُ؟»، وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا»، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيهِ، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ[١].

الشَّرح

وهذا الحديث كذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، فهذا الأعرابي كان قد حصلت منه إساءة في حقه جَلَّ وَعَلَا، فهو ما قَدَرَ الله حقَّ قدرِه، وذلك لأنه لم يعرف الله عَزَّوَجَلَّ من خلال قوله للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ» بسبب جهله، والجهل آفة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٤١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٥٧)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٣٧).

ففي هذا الحديث: الحثُّ على معرفة الله جَلَّوَعَلَا بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ حتى يقدروه حق قدره جَلَّوَعَلَا، فمَن لم يعرف الله، فإنه حَرِيٌّ بأن لا يقدر الله حقَّ قدره.

وقوله: «**أَتَى رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَعْرَابِيٌّ**» الأعرابي: هو الذي يسكن البادية؛ والحضري: هو الذي يسكن الحاضرة، والغالب على الأعراب الجفاء والجهل؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩٧]، ولهذا جاء النهي عن البقاء في البادية، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ، جَفَا**»[(١)]، وجاء الحثُّ على الذهاب إلى أهل الحواضر لأجل التعلم، فلا يبقى الإنسان أعرابيًّا وبدويًّا طوال حياته، وإنما ينبغي له أن يتفقَّه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا الأعرابي جاء، وطلب من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستسقي لهم، وطلبٌ كهذا لا غبار عليه، فقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا أجدبوا، يطلبون من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستسقي لهم، وكان هذا الأعرابي قد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حصل للناس بسبب تأخُّر نزول المطر من الجدب والقحط والفقر، ومثل هذه الأمور لا بأس من ذكرها للغير؛ حتى يكون هذا حافزًا لطلب السُّقيا من الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال هذا الأعرابي للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ على اللهِ»، وهذا القول -أيضًا- لا غبار عليه؛ أنهم يطلبون

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٨٠٢)، وأحمد (٥/ ٣٦١)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنِ اتَّبَعَ السُّلْطَانَ افْتُتِنَ**».

الشفاعة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلب الشفاعة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من غيره إن كان حاضرًا، لا بأس به، وهذا بخلاف طلب الشفاعة من الميت، فهو الممنوع. والشفاعة معناها: الدُّعاء، فإذا دعوت لأخيك، فقد شفعت له، وصلاة المسلمين على الميت شفاعة له، والشفاعة إنما تُطلب من الأحياء القادرين على الدُّعاء، فقوله: «فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ على اللهِ»؛ يعني: بدعائك، وهذا القول منه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقبول.

وقوله: «وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»؛ أي: نستشفع بالله عليك، هذه الجملة هي التي أنكرها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه جعل الله جَلَّ وَعَلَا شفيعًا عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل الخالق شافعًا عند المخلوق، وهذا فيه تنقُّص لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو لم يَقْدر الله حقَّ قدره، فهذا هو وجه إنكار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قوله هذا؛ لأنه تنقَّص الله، فاستشفع به إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرضَ بهذا، بل أنكره.

ففي هذا الحديث: إنكار المنكر، وفيه تغليظ على من أساء بحقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يقال: (هذا جاهل)، بل يُغلَّظ عليه لأجل أن يرتدع هو وغيره، فمن أساء بحقِّ الله، فإنه ينكر عليه، ويشدَّد القول بحقِّه، ولا يُترك بحُجَّة أنه جاهل؛ لأجل أن يَدرك، ويعرف أنه أخطأ، وأساء الأدب مع خالقه جَلَّ وَعَلَا؛ فيتوب، ويقدر الله جَلَّ وَعَلَا حقَّ قدره؛ ولهذا شدَّد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وسبَّح الله، ونزَّهه عما قال هذا الأعرابي وكرَّر التسبيح؛ تنزيهًا لله عما قاله هذا الأعرابي.

وقوله: «وَسَبَّحَ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما زَالَ يُسَبِّحُ حتى عُرِفَ ذلك فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ»؛ يعني: قد شاهد الصحابة -رضوان الله عليهم- شدَّة التأثُّر في وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَا قاله هذا الأعرابي، وبالتالي عُرف ذلك في وجوه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم بيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأعرابي بعدما أنكر عليه وبعدما نزَّه الله جَلَّ وَعَلَا عن هذا التنقُّص، وعلَّمه بقوله: «وَيْحَكَ! إنه لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ على أَحَدٍ من خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟»، ثم بيَّن له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظمة الله جَلَّ وَعَلَا، وأن هذه المخلوقات العظيمة الهائلة من السماوات والأرض كلها تحت العرش، والعرش هو أعظمها وأكبرها، والله جَلَّ وَعَلَا فوق عرشه، وهذا العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات له تأثُّرٌ من استواء الله عليه، حتى إنَّ له أطيطا، يعني: له صوت؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَرْشَهُ على سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا، وقال بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عليه، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ»، وهذا دليل على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا العرش العظيم الذي فوق السماوات ومحيط بها وشاملٌ لها كلها، والكرسي قد وسع السماوات والأرض، والكرسي في العرش كحلقة في أرض فَلاةٍ[1]، وهذا دليل على عظمة هذا العرش، والله جَلَّ وَعَلَا أعظم من ذلك، فالعرش مع عظمته وسعته

---

(١) كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ». أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٦).

يحصل له هذا التأثُّر الذي عبَّر عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله: «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**» من استواء الله عليه، فكيف مَنْ هذا شأنُه، وهذه عظمته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يَستَشفع به على مخلوقٍ من خَلْقه؟! ولهذا قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للأعرابي: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي ما الله؟**» أي: هل تعرف شأن الله وتعرف معنى ما قلته بحقِّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وكيف أنك أسأت بحقِّه وتَنقَّصتَه؟!

وأما قوله: «**فما زَالَ يُسَبِّحُ**»، هذا فيه التسبيح عند إنكار المنكر، وكذا التكبير عند رؤية أو سماع شيءٍ منكر، وكذلك عند رؤية شيء يُعجب به، فإنه يُسبِّح، ويكبِّر الله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: «**حَتَّى عُرِفَ ذلك في وُجُوهِ أَصْحَابِهِ**» فقد تأثَّروا -رضوان الله عليهم- لتأثُّر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فالأمر عظيم، والكلمة شنيعة. وهذا فيه أن بعض الكلمات تكون وخيمة، فينبغي على الإنسان أن يحفظ لسانه. وفيه: أن الإنسان لا يتكلم بحق الله جَلَّوَعَلَا إلا عن علم ومعرفة، ولا يقول على الله بلا علم.

وقوله: «**ثُمَّ قال: وَيْحَكَ!**» كرَّر قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وَيْحَكَ**» دلالة على عظم الأمر، وكلمة (وَيْحَكَ) كلمة تقال لِمَن أشرف على الهلكة، وفيها معنى الزَّجر.

وقوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيهِ**»؛ أي: أشار بيديه كالقُبَّة؛ لأن العرش هو سقف المخلوقات، فإذا كان هو كذلك، ففيه دليل على عظمته؛ لأن المخلوقات على سعتها وامتدادها

بما في ذلك السماوات والأرض وما بينهما، كلها سقفها العرش، فهو عرش متناهٍ في العِظَم! وفيه بيان أن العرش مُقبَّب.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**»، بيان أنه إذا كان هذا العرش على عظمته وضخامته يُصيبه هذا التأثُّر من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف بغيره من المخلوقات؟!!!

وهذا فيه: إثبات استواء الله على عرشه.

وفيه: أن العرش هو أعظم المخلوقات.

وفيه: أنه لا يستغاث بالله على أحدٍ من خلقه، وإنما العكس أنه يستغاث بالمخلوق الحي الحاضر إلى الخالق، بمعنى طلب الشفاعة من المخلوق عند الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بدعائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمحتاج، والدعاء للمحتاج إنما هو شفاعة أو نوع منها.

[صَبْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى تَكْذِيبِ ابْنِ آدَمَ]

٣٦- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ»(١).

٣٧- وَفِي رِوَايَةٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

الشَّرح

في هذا الحديث تكذيب المخلوق لخالقه جَلَّ وَعَلَا، وذلك أنه جَلَّ وَعَلَا أخبر أنه سيبعث الخَلْق يوم القيامة، وكثير من الخَلْق قد أنكروا البعثَ، وقالوا: (إن الميت لا يمكن أن يُبعث حيًّا مرةً أخرى بعد أن صار ترابًا)، فهؤلاء القائلون لهذه المقالة ما قَدَروا الله حقَّ قَدْره، وما عرفوا أن الله على كلِّ شيء قدير، ووصفوا قدرة الله بالعجز عن إحياء الأموات، وفي هذا تكذيب له عَزَّوَجَلَّ، مع أنه سبحانه قد أقام الأدلة والبراهين الدالة على إعادة الخلق والإحياء والبعث، فذكر أنه يُحيي الأرض بعد موتها، فتكون جدباء قاحلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٨٢).

ثم يُنزل عليها الماء، وسرعان ما تهتزُّ، فتصبح خضراءَ وبهيجةً، فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على أن يُحييَ الأموات يوم القيامة، ثم إن الذي خلقهم أوَّل مرَّةٍ من عَدَم أليس قادرًا على أن يُعيدَهم مرة ثانية؟! والإعادة في نظر العقول أهونُ من البداية؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]، فالذي قدر على البداءة من لا شيء لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]؛ وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، فهو قادرٌ على الإعادة من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٧٨-٨٠].

ثم إن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، فالذي قدر على خلق ما هو أعظم قادرٌ على خلق ما هو دون ذلك من باب أولى، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وهذه كلها براهين عقلية على حصول البعث، ومع ذلك فإن بعض الخلق ينكر ذلك، ويكذب الخالق جَلَّ وَعَلَا، وما كان لهم أن يكذبوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

وأما شَتمُه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك بأن ينسبوا له الولد، والله جَلَّ وَعَلَا لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ولأن الولد يُشبه الوالد، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

لا شبيه له، والولد كذلك جزءٌ من الوالد، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما ينبغي أن يكون له جزء مخلوق -تعالى الله عن ذلك-، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف:١٥]؛ يعني: ولدًا، والولد -كما ذكرنا- جزءٌ من الوالد، والولد بذلك يكون إلهًا مع الله، والله جَلَّ وَعَلَا ليس له شريك، فلو كان له ولد، لصار له شريك، تعالى الله عن ذلك!

والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، وأهل الجاهلية من مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله؛ لأنه -سبحانه بزعمهم- تزوج من الجنِّ، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨]، فينسبون البنات إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم لا يريدون البنات لأنفسهم! قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النحل:٦٢]، تعالى الله عما يقولون!

وقوله في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا**» قوله: «**صَاحِبَةً**»؛ يعني: زوجة؛ لأن الولد لا يكون إلا من زوجة، والله سبحانه ليس له صاحبة، قال تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام:١٠١]؛ يعني: ليس له سبحانه زوجة.

[تَحْرِيمُ سَبِّ الدَّهْرِ]

٣٨- وَلَهُمَا عَنْهُ -أَيضًا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(١).

الشَّرْح

في هذا الحديث بيان أن ابن آدم يسبُّ الله من خلال سبِّه للدَّهر، فإذا ما أصابه شيء، أخذ يلوم الدهر واليوم والساعة والسنة، والدهر إنما هو زمان خلقه الله جَلَّ وَعَلَا، وهو ظرف زمان، ليس بيده شيء، وإنما الذي أوجد هذه النوازل والحوادث والمصائب والمكاره هو الله جَلَّ وَعَلَا، فكان سبُّه للدهر سبًّا لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله هو الذي قدَّر هذه الحوادث والنوازل والمصائب التي تقع على العباد.

وقوله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**» ليس معناه أن الدهر من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا، وقد فسَّر ذلك في آخر الحديث وقال: «**بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وهذا تفسير منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّ وَجَلَّ، وهو في سياق حديث قدسي شريف.

وقوله: «**بِيَدِي الأَمْرُ**» تفسير لقوله: «وَأَنَا الدَّهْرُ»؛ إذ البعض يعتقد أن كلمة (الدهر) من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦، ٧٤٩١)، ومسلم (٢) (٢٢٤٦).

٤- بَابُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

[مَتَى كَانَ تَقْدِيرُ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ؟]

٣٩ - وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ...» الحديث**[(١)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(بَابُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ)**: القَدَرُ: هو إحاطة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمقادير الأشياء، وقضاؤه سبحانه ما يجري بهذا الكون من الحوادث التي تقع شيئًا فشيئًا في هذا الكون، فإنه لا يقع في هذا الكون من شيء، أو يحصل فيه من شيء، إلا وقد علمه الله جَلَّ وَعَلَا في الأزل، وقضاه وقدَّره، لا يخرج شيء عن قدره وقضائه، والأزل معناه: الزمان الماضي الذي لا حدَّ ولا بداية له، والأبد: هو الزمان المستقبل الذي لاحد لنهايته، فلا يجري في هذ الكون شيء

---

(١) أخرجه مسلم (١٦) (٢٦٥٣).

اعتباطًا أو دون تقدير وقضاء من الله جَلَّوَعَلَا، ولا يكون فيه شيء يخرج عما قضاه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقدَّره في الأزل.

والإيــمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة؛ كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، ومحلُّ الشاهد قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»؛ فما يجري من الخير والشرِّ في هذا الكون، فإنه قد قضاه الله وقدَّره، فمن لم يؤمن بهذا، فإنه ليس بمؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ، وإذا مات وهو ينكر القضاء والقدر، فإنه من أهل النار؛ كما جاءت بذلك الأحاديث التي ستأتي في هذا الباب: أنَّ مَن لم يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه لم يؤمن بالله؛ لأنه نفى شيئًا من أفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وزعم أن الله عاجز، وأنه يحدث في ملكه ما لم يَقضِه ولم يُقدِّرْهُ -تعالى الله عن ذلك-، فمن لم يؤمن بهما، فهو كافر، وعليه وعيد شديد، وهو من أهل النار، ولو أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا، فإن الله لا يتقبَّله منه.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بأن الله علم ما كان وما يكون في علمه الأزلي، ولا يقع شيء لا يعلمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة، علمه أولًا، ثم كتبه في اللوح المحفوظ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى**

---

(١) سبق تخريجه (ص٧).

يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)]، وكما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد:٢٢]، والكتاب: هو اللوح المحفوظ. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾؛ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نوجدها.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شاء كلَّ شيءٍ وأراده مما قضاه وقدَّره في اللوح المحفوظ، فلا يقع شيءٍ إلا بإرادته ومشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يقع في ملكه ما لا يريد؛ قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧].

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن كل ما يقع في هذا الكون هو من خلق الله جَلَّوَعَلَا، فكل شيء في هذا الكون من خير أو شرٍّ إنما هو من خلقه -جل شأنه-، وهو فِعْل العباد، فالخير والشر من أفعال العباد، وهما خلقٌ من خَلْق الله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]، وكل ما يجري وما يحدث وما يكون فإنه خَلْق الله جَلَّوَعَلَا[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣٩٩)، وأحمد (٣٧/ ٣٧٨)، من حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: (وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق وأما الدرجة الثانية فهو مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه). اهـ. باختصار. انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٨، ١٤٩). وانظر: شفاء العليل (ص٦١)، وما بعدها، ومعارج القبول (٢/ ٢٢٥)، والقضاء والقدر لعمر الأشقر (ص٢٩)، وجامع العلوم والحكم (ص ٢٧).

فلابدَّ من الإيمان بهذه المراتب كلِّها، سواء الإيمان بعلم الله السابق، أو الإيمان بالكتابة باللوح المحفوظ، والإيمان بمشيئة الله وإرادته وبكل ما يحدث، والإيمان بأن كل ما يحدث بأنه خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلاأحد يخلق مع الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكفي الإيمان بمرتبة دون مرتبة أخرى، أو بمرتبة واحدة أو اثنتين أو ثلاث، فلابدَّ من الإيمان بكل هذه المراتب الأربع، وهي موجودة في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾؛ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هذه مرتبة العلم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ وهذه مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، فهذه مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إنه بعد الإيمان بالقضاء والقدر وإثباته كما جاء، فلا ينبغي تَرْكُ العمل بحُجَّة أنَّ كلَّ شيء مقدَّر، ويكفي التسليم بالقضاء والقدر، وبُحجَّة أن دخول الجنة والنار مقدَّر منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا فائدة من العمل! هذا كلام باطل؛ لأن الإنسان مأمور بالعمل؛ إذ دخول الجنة لايكون إلا بالعمل لها، ولا يمكن دخول النار إلا بسبب، والله لا يعذِّب على القضاء والقدر، وإنما يعذِّب على الأعمال، ولا يُنعِّم بالقضاء والقدر، وإنما بالأعمال، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فالثواب والعقاب لا يتعلقان بالقضاء والقدر، وإنما يتعلقان بأفعال العباد، ولهذا لما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن كل إنسان مقدَّر مقعده من الجنة ومقعده من النار، «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَلِمَ

نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:١٠]»(١)، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ يعني: الجنة. رتب تفسيره لليسرى على عمل العبد، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠]، هي النار، رتب تيسيره للعسرى على عمل العبد، وليس بسبب القضاء والقدر، فإذا ما كان الجوع الذي يشعر به الإنسان يتطلَّب البحث عن الطعام والرزق، وكذا دفع الظُّلم يحتاج إلى عمل وردَّة فعل وَطَلَب القصاص ممن ظلم، فكيف يُقال: إن الجنة والنار لا تحتاجان إلى عمل، أو إن المصير إليهما لا يترتب على العمل الذي يقوم به العبد؟!

والحق أنه لابدَّ من السَّعي والعمل، سواء في أمور الآخرة أو في أمور الدنيا، فإذا كان الإنسان في أموره الدنيا لا يتكل على القضاء والقدر، فأمور الآخرة من باب أولى، فليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر ترك العمل؛ لأن هذا لا يكون إلا من القدرية الذين يحتجون بالقضاء والقدر على ترك الفرائض، وهؤلاء محجوجون، كونهم لا يحتجون بالقضاء والقدر في مصالحهم الدنيوية.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٧) (٢٦٤٧) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:١٠]».

وفائدة الإيمان بالقضاء والقدر الصبر على المصائب وعدم الجزع، ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، والحكمة في ذلك متمثلة في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٣]، هذه هي الحكمة في ذلك، وهي أن الله أخبرنا بأن كل ما يحدث من مصائب إنما هو في كتاب في اللوح المحفوظ؛ لأجل أن لا يجزع الإنسان، بل يصبر، ويحتسب، هذه هي حكمة الإيمان بالقضاء والقدر، وليس معناه تَرْك العمل وتعطيله؛ ولهذا يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١)، هذه هي فائدة الإيمان بالقضاء والقدر المبنية على الصبر والاحتساب وعدم الجزع والتسخُّط.

والإيمان بالقضاء والقدر ضَلَّ فيه طائفتان؛ طائفة الجَبْرِيَّة، وطائفة القَدَرِيّة من المعتزلة:

فالجبريَّة غَلَتْ في إثبات القَدَر، ونَفَت أفعال العباد، وقالت: (إنما هذه أفعال الله وقضاؤه، والعبد إنما هو مجبور كالآلة أو كالريشة يُحركها الهواء

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤) (٢٦٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

-تعالى الله عما يقولون-، فالزِّنى والسرقة وظلم العباد وشرب الخمر إنما هي أفعال الله جَلَّوَعَلَا، وليست أفعال العبيد)، وكفى بهذا القول شناعة وكفرًا!!(١).

وأما القَدَريّة، فكانت في مقابلة الجَبْرية، فغَلَوا في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقدر، وقالوا: (إن الإنسان حُرٌّ حرية كاملة، ليس لها تعلُّق بقضاء الله وقَدَره، فهو الذي يخلق فِعْل نفسِه، ولم يَخْلُقْه الله، وليس له سبحانه تدخُّل في أفعال العباد)، وهم في ذلك كانوا على النقيض من الجَبَرية الذين غَلَوا في إثبات القضاء والقَدَر، ونَفَوا أفعال العباد، وهؤلاء القدرية كانوا على العكس، فقد غَلَوا في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقَدَر؛ ولذلك يسمَّون بالقدرية؛ لأنهم نَفَوا القَدَر، فهؤلاء لايؤمنون بالقضاء والقدر، وهم بذلك جحدوا الركن السادس من أركان الإسلام(٢).

وأما أهل السُّنة والجماعة، فقد توسَّطوا -كعادتهم أنهم وسط في جميع الأمور؛ بين الإفراط والتفريط، وبين الغُلوِّ والجفاء-، فقد أثبتوا القضاء

---

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨)، والملل والنحل (١/ ٨٥)، والتعريفات (ص١٠١).

(٢) القدرية: هم نفاة القدر القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله فيه إرادة ولا خلق ولا مشيئة، فأنكروا عموم المشيئة والخلق. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٤٩٣): (والقدرية نفاة القدر جعلوا خالقين مع الله تعالى؛ ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس...) اهـ. ويُطلق اسم القدرية على الغلاة في القدر. انظر: الفرق بين الفرق (ص١١٢، ٢٤١)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٧- ٥٨)، والصفدية (١/ ٥٠)، ودرء التعارض (١/ ٣٧١-٣٧٤).

والقدر، وأثبتوا أفعال العباد، ولا تناقض بينهما، فالله جَلَّوَعَلَا قضى وقدَّر، والعبد يفعل باختياره وإرادته، ولكنه لا يخرج عن قضاء الله وقدره، وهذا هو موجب الكتاب والسُّنة، وهو المذهب الوسط والعدل المتمشِّي مع الأدلة. هذا حاصل الخلاف في مسألة القضاء والقدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١]؛ يعني: في القضاء والقدر، حيث إنَّ الله قدَّر لهم الجنة والنَّجاة من النار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]؛ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٢-١٠٣]، هذا فيه إثبات القضاء والقدر، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾؛ أي: قدَّرنا لهم ذلك، فهم عملوا ما يسبِّب لهم دخول الجنة، فأبعدهم الله من النار.

وسبب نزول الآية: أن الله جَلَّوَعَلَا لما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، لما سمع المشركون هذه الآية، قالوا: (نحن نعبد أُناسًا صالحين، فإذا كانوا معنا في النار، فإن الأمر يهُون علينا)؛ يعني: هم ينتقدون كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن جملة ما يعبدون من دون الله ملائكة ورسلًا مثل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فكيف يكونون في النار؟! فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، وهم الملائكة والأنبياء والرسل والصالحون، هؤلاء لا تتناولهم هذه الآية، فهو تخصيص

بعد عموم، لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، قال ابن الزبعرى: (فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فهل هؤلاء معنا في النار؟!)[1]، وغرض المشركين من هذا انتقاد كلام الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٧-٥٨]؛ لأنه من المعروف أن عيسى بن مريم والصالحين لا يدخلون النار؛ لأن الله تكفَّل بأن يدخلهم الجنة، وهم يعرفون هذا، لكنهم من باب المغالطة يقولون ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٨-٥٩]، وقد ردَّ الله جَلَّ وَعَلَا عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾؛ كعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعُزير ومن عُبد من دون الله من عباد الله الصالحين، هؤلاء مستثنون من دخول جهنم.

والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، هذا فيه إثبات القضاء والقدر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وهذه الآية متضمنة إثبات القضاء والقدر، فقوله تعالى: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأمر الكوني، على اعتبار أن أمر الله قسمان:

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٦/ ٤١٧)، وابن كثير (٥/ ٣٧٩).

الأول: الأمر الكوني: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

والثاني: الأمر الشرعي: كالأمر بالصلاة والزكاة وبر الوالدين ونحو ذلك من الأمور التكليفية.

والأمر الكوني لابدَّ أن يقع، وأما الأمر الشرعي، فقد يقع، وقد لايقع، فمن الناس مَن يمتثل، ومنهم مَنْ يعصي، هذا الفرق بين الأمرين؛ فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] يراد به الأمر الكوني القدري، بمعنى أن كل ما يجري في هذا الكون مقدَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]؛ أي: وخلق ما تعملون، هذه الآية فيها أن أعمال العباد إنما هي من خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نعم هي فعل الخَلْق، ولكنها خَلْق الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيجتمع فيها الأمران: أنها خَلْق الله، وأنها فِعْل العبد، وفي الآية ردٌّ على المعتزلة الذين ينفون القضاء والقدر، ويقولون: (إن العبد إنما يفعل باختياره المطلق الذي ليس لله فيه أي قضاء وقدر).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وفي هذه الآية -أيضًا- إثباتٌ للقضاء والقدر؛ إذ كل المخلوقات من خير أو شر إنما يقع خلقها بقَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ففي الآية أمران:

الأمر الأول: أن كلَّ ما يحدث في هذا الكون إنما هو خَلْقُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الثاني: أن كلُّ ما يحدث إنما هو بقَدَر الله جَلَّ وَعَلَا.

وأما حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو حديث الباب الذي فيه: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ...**»، فهذا فيه إثبات أن الله قدَّر مقادير الخلائق، وأن التقدير سابقٌ لخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فهذا فيه إثبات أسبقية القضاء والقدر على حدوث الأشياء، وأنها مقدَّرة قبل وقوعها.

[وُجُوبُ الْعَمَلِ وَعَدَمُ التَّوَاكُلِ]

٤٠- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ، قَالَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠]». **الحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيهِ**[1].

• الشَّرح •

لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلة على إثبات القضاء والقدر، بيَّن أنه لا يجوز الاعتماد على القدر وترك العمل، وإنما ينبغي للمسلم أن يعمل الأعمال التي تنفعه في الدنيا والآخرة، وعدم الاتكال على أن كل شيء مقدَّر، سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فكما أن الإنسان لا يتَّكل في أمور دُنياه على القضاء والقدر؛ لأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا رتَّب الأشياء على الأسباب، وكذلك الأمر نفسه يقال في أمور الآخرة، فالإنسان بفطرته التي تقتضي أنه عليه أن يعمل لتحصيل أمور دُنياه، فكيف يُعطِّل أعمال الآخرة، ويعتمد على القضاء والقدر؟!

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢، ٤٩٤٥، ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ٤٩٤٩، ٦٢١٧، ٦٦٠٥، ٧٥٥٢)، ومسلم (٦) (٢٦٤٧).

ومن دلالة فقه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لما ذكر أدلة القضاء والقدر، ذكر أدلة إثبات العمل، فساق هذا الحديث الذي يدل على أن الأصل في الإنسان عدم ترك العمل اعتمادًا على القضاء والقدر، فقد بيَّن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث للصحابة بعدما ذكر لهم أن كل إنسان قد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، وأجابوا بقولهم: «أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟»، ولكنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن لهم غَلَطهم في هذا، وأن ما فهموه من قوله إنما هو فَهْم خاطئ، وأنه ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر ترك الأعمال، بل بيَّن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا فيه حثٌّ للإنسان على العمل؛ لأن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ عمل لها، وأن النار لا يَسْلَمُ منها إلا مَنْ تَرك الأعمال التي من شأنها أن تورد المرء إياها.

ثم استدلَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالآية الكريمة، فقرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، فدلَّ على أن دخول الجنة إنما هو بسبب الأعمال، وأن دخول النار كذلك، لا بسبب القضاء والقدر فحسب؛ لأن القضاء والقدر إنما هو من شأن الله جَلَّ وَعَلَا، والإنسان لا يدخل بشؤون خالقه، وإنما يدخل في شؤون نفسه، فهو ينبغي له العمل، لا السؤال عن القضاء والقدر.

[أَخْذُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الْمِيثَاقَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ فِي ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

٤١- وَعَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] -قَالَ: قَرَأَ الْقَعْنَبِيُّ الْآيَةَ-، فَقَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ». رَوَاهُ مَالِكٌ وَالحَاكِمُ، وَقَالَ: عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ(١).

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ نُعَيمِ بْنُ رَبِيعَةَ عَنْ عُمَرَ(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٢٦)، وأحمد في المسند (١/ ٣٩٩)، ومالك في الموطأ (٢/ ٨٩٨)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨٠) وقال: (حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٨٨)، والضياء المقدسي في المختارة (١/ ٤٠٨). قال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٥، ٦): (قال أبو عمر: زيادة من =

الشَّرح

قوله: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ» لم يقل: خلقتهم للجنة فهم يدخلون الجنة، وإنما قال: «وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ»؛ فدلَّ على أن الجنة لا تُدخل إلا بعمل. كما قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

وكذا قوله: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، لم يقل: (خلقتهم للنار) فحسب، بل قال: «وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فدلَّ على أنه -كما ذكر- لا أحد يدخل الجنة إلا بعمل، ولا يدخل النار إلا بعمل؛ أي: ليس بمجرد القضاء والقدر، وهذا واضح من الحديث.

ففي الحديث: بيان أنه لابدَّ من العمل، ولا يعني هذا أن مَن قضى الله له أنه من أهل النار أنه يترك العمل الذي ينجيه من النار، أو مَن قدَّر الله له أنه من أهل الجنة أنه يترك العمل الذي يسبِّب له دخول الجنَّة، فلابدَّ من العمل؛ لأن الجنة لا تُدخل إلا بعمل الخير، والنار كذلك لاتُدخل إلا بعمل الشر، فلا ينبغي أن تُعطَّل الأعمال.

=زاد في هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة؛ لأن الذي لم يذكره أحفظ، وإنما تُقبل الزيادة من الحافظ المتقن). اهـ.

٤٢- وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيهِ: حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الزُّبَيْدِيُّ، عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ النَّصْرِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ أَنَبْتَدِئُ الأَعْمَالَ، أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ، فَقَالَ: هَؤُلاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلاءِ فِي النَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»(١).

الشَّرح

هذا الحديث يشهد للذي قبله في أن القضاء والقدر حاصل، ولكنه لابدَّ من العمل، سواء العمل الذي يُنجي من النار ويدخل الجنة، أو الذي يدخل الجنة.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١١٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٢٤)، وفي الآحاد والمثاني له (١/ ٤٢٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ١٩١)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٣٠٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٦٩، ١٦٩)، وفي مسند الشاميين له (٣/ ٩١).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٨٧): (وفيه بقية بن الوليد، وهو ضعيف، ويحسن حديثه بكثرة الشواهد، وإسناد الطبراني حسن). اهـ.

[كِتَابُ الْعَمَلِ وَالْأَجَلِ وَالرِّزْقِ وَشَقِيٍّ أو سَعِيدٍ وَنَحْنُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِنَا]

٤٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ علقةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبعثُ اللهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُه، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً»، النُّطفة: هي المَنِيُّ الذي يقذفه الرَّجل في رحم المرأة، فيبقى منيًّا أربعين يومًا، ثم بعد الأربعين يتحول إلى علقة؛ يعني: إلى دم، فيبقى أربعين يومًا كذلك وهو دم، ثم بعد الأربعين الثانية يتحول إلى مضغة؛ يعني: قطعة لحم، والمضغة هي التي يكون منها تركيب الإنسان؛ من العُروقِ والأعضاء والعَصَب والسَّمع والبَصَرِ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم (١) (٢٦٤٣).

والعِظام، وغيْرِ ذلك من تراكيب الإنسان، ثم في الأربعين الأخيرة تُنفخ فيه الرُّوح بعدما يأتيه المَلَك، ثم يؤمر المَلك بأربع كلمات، فيكتب عمله وأَجلَه ورزقه، وهل هو شقي أو سعيد، وهي كتابة خاصة غير الكتابة التي في اللوح المحفوظ، بل هي كتابة مأخوذة من اللوح المحفوظ، التي هي كتابة عامَّة. فهناك كتابة خاصة وكتابة عامة، ومن الكتابات الخاصة ما يأتي في ليلة القدر، ومنها ما جاء في هذا الحديث، وأما ما يأتي في كل يوم من الأيام، فكلها من باب الكتابة الخاصة المنقولة من اللوح المحفوظ.

وقوله ﷺ: «**ثُمَّ يَكُونُ علقةً مِثْل ذَلِكَ**»، العلقة: قطعة اللحم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، وتفصيل هذه الأمور في سورة (المؤمنون)، وقوله في الآية الكريمة: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾؛ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. والقرار المكين: هو رحم المرأة الذي هو ثابت لا يتغير، والنطفة مستقرة فيه دون اضطراب، وقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ يعني: المني ﴿عَلَقَةً﴾ يعني: دمًا يعلق باليد؛ جاء بـ(ثم) التي تفيد التَّراخي؛ إذ كل طَوْر له أربعون يومًا، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقوله ﷺ: «**ثُمَ يَبعثُ اللهُ إِلَيْهِ المَلَكَ**»؛ لينفخ فيه الروح ليحيا ويتحرك. ولذلك يتحرَّك الحمل في الشهر الرابع.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»، مع نفخ الروح فيه يُكتب ما يجري عليه من الكتابة الخاصة بالنسبة لكل فرد من بني آدم، وأما الذي في اللوح المحفوظ، فهو كتابة عامة للجميع، فلاتعارض بين الكتابتين، فالكتابة العامة سابقة لخلق السماوات والأرض، والكتابة الخاصة تتكرر بإذن الله إلى آخر الخليقة مع كل مولود.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ يَنْفَخَ فِيهِ الرُّوحَ**» كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩]؛ أي: من روح الله عَزَّوَجَلَّ المخلوقة، فالروح مخلوقة، وإضافتها إلى الله إضافة مخلوق إلى خالقه، فهي ليست من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما معنى قوله: ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ أي: الروح المخلوقة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**»، إذا قدر أنه من أهل النار، فلابدَّ وأن يعمل بعمل أهل النار؛ إما في كلِّ عمره، يكون من أهل المعاصي وأهل الكفر، ويَموت على هذا، وإما بأن يعمل بعمل أهل الجنة، ثم يُختم له بعمل أهل النار، فتسوء خاتمته، فيدخل النار، أو العكس يعمل بعمل أهل النار طول عمره، ثم يُختم له بعمل صالح، فيكون من أهل الجنة، والأعمال بالخواتيم. وفي هذا مسألتان:

المسألة الأولى: أنه لابدَّ من العمل.

المسألة الثانية: أن الأعمال بالخواتيم، ولذلك لا ينبغي أن يُشهد لأحد بجنَّة أو نار؛ لأنه لا يُدرى ما يُختم له؛ لأنه في علم الله جَلَّ وَعَلَا.

ففي هذا الحديث العظيم جملة من الفوائد:

منها: أولًا: بيان قدرة الله جَلَّ وَعَلَا على خلق هذا الإنسان ونَقْلِهِ من طور إلى طور.

ثانيًا: فيه إثبات القضاء والقدر؛ لأن الملك يكتب رزق الإنسان وأجله وعمله، وهل هو شقي أو سعيد.

ثالثًا: فيه أن الجنة والنار لا تُدخلان إلا بعمل؛ إما بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة، ولو بعملٍ قليل، فإذا خُتم له بعمل صالحٍ، دخل الجنة، وإما بعمل أهل النار، فيدخل النار، ولو عمل ابتداءً بعمل أهل الجنة؛ لأنه في آخر عمره عمل بعمل أهل النار؛ كأن يرتد، فيموت على الرِّدة، فيكون من أهل النار.

رابعًا: وفيه أن الأعمال بالخواتيم، فعلى الإنسان ألَّا يغترَّ بصلاته وصلاحه واستقامته، بل عليه أن يخشى من سوء الخاتمة، وعلى العاصي ألا يقنط من رحمة الله، بل يرجو حُسن الخاتمة، ويسأل الله حُسنها.

خامسًا: فيه أنه لا يُشهد لأحد بجنَّة أو نار، وإنما يُرجى للمحسنين، ويُخاف على المسيئين؛ لأن الشهادة لابدَّ فيها من خبرِ المعصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا من أهل النار، وهذا من أهل الجنة.

[دُخُولُ الْمَلَكِ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ]

٤٤- وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ -يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا، وَلَا يُنْقَصُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشَّرح

هذا الحديث كحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سلف قبله، ففيه أن الملك يدخل على الجنين في بطن أُمِّه -والله قادرٌ على كل شيء-، فيسأل ربَّه ماذا يكتب، والله جَلَّ وَعَلَا يخبره ماذا يكتب.

ففي هذا الحديث: بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وفيه إثبات حقيقة القضاء والقدر، وفيه أنه لابدَّ من العمل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢) (٢٦٤٤)، (٣) (٢٦٤٥).

[إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ]

٤٥- وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «دُعِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ، وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»[(١)].

الشَّرح

في هذا الحديث أنه لا يُشهد لأحدٍ بأنه من أهل الجنة إلا بدليل، وكذلك لا يُشهد لأحدٍ أنه من أهل النار إلا بدليل، وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت في هذا الحديث: «طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ»، وهي بذلك شهدت له بدخول الجنة، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر عليها هذه الشهادة.

وأما مسألة أطفال المسلمين، وماذا يكون مصيرهم في الآخرة؟ نقول: إن أطفال المؤمنين تَبَع لآبائهم في الجنة، وأما أطفال الكفار، فهؤلاء موضع خلاف بين العلماء، منهم من يقول: إنهم من أهل النار، وهم تَبَع لآبائهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٣١) (٢٦٦٢).

ومنهم من يقول: إنهم من أهل الجنة؛ لأنهم لم يعملوا عمل أهل النار، فهم من أهل الجنة، ومنهم من يقول: إنه يُرسل إليهم رسول يوم القيامة، ويدعوهم، فمن آمن، دخل الجنة ومن كفر، دخل النار.

والصحيح: التوقُّف في هذا الأمر، وهو أمر موكول إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ فهو أعلم بهم وبمصيرهم، وأما نحن، فينتهي علمنا عند ذلك.

[كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ]

٤٦- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشرح

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ**» فيه إثبات القَدَر، «**حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**»، فالعجز من الإنسان وكونه يترك العمل تكاسلًا فهو مقدَّر عليه؛ قال تعالى عن المنافقين: ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

و«**الْكَيْس**»: هو النشاط والعَزْم والحزم على مزاولة العمل الصالح، فهما مكتوبان في اللوح المحفوظ ومقدران على الإنسان، بأن يكون كسلان أو نشيطًا وحازمًا في العمل؛ فدلَّ هذا على أن الكسل والحزم إنما هما من فعل العبد، إلا أنهما مقدران مكتوبان في اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨) (٢٦٥٥).

[مَعْنَى قَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾]

٤٧- وَعَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤]، قَالَ: «يُقْضَى فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَى مِثْلِهَا». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَقَدْ رُوِيَ مَعْنَى ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَالحَسَنِ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُقَاتِلٍ(١).

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، هذا التقدير الحَوْلي سَبق التقدير العُمُري في بطن الأم؛ والتقدير الحَوْلي: هو ما يحصل في ليلة القدر، وهي من ليالي رمضان؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥]، هذه ليلة القدر يُقدَّر فيها ما يجري في السنة من حياة وموت، وخصب وقحط، وغنًى وفقر وغير ذلك، وهو مأخوذ من القدر السابق المكتوب في اللوح المحفوظ، هذا التقدير الحولي، وهو تقدير خاص.

وقوله: «**يُقْضَى فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَى مِثْلِهَا**» أي: يُقدَّر فيها ما يكون في السنة، وهو مأخوذٌ من التقدير العام المدوَّن في اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٤٦)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٥٧٤).

[اللَّوحُ المَحْفُوظُ مِنْ دُرَّةٍ بَيضَاءَ]

٤٨- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، صَفَحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، لِلَّهِ فِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتُّونَ وَثَلاثُمائَةِ لَحْظَةٍ، يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالطَّبَرَانِيُّ، وَالحَاكِمُ(١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، قَالَ: فَهَذَا تَقْدِيرٌ يومِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ حولِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ عُمْرِيٌّ عِنْدَ تعَلُّقِ النَّفسِ بِهِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَوَّلِ تَخْلِيقِهِ وَكَونِهِ مُضْغَةً، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَى وُجُودِهِ لَكِنْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّقَادِيرِ كَالتَّفْصِيلِ مِنَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ الرَّبِّ، وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَزِيَادَةِ تَعْرِيفِهِ المَلَائِكَةَ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَأَسْمَائِهِ.

ثُمَّ قَالَ: فَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ لَا يَمْنَعُ الْعَمَلَ، وَلَا يُوجِبُ الْاتِّكَالَ عَلَيهِ؛ بَلْ يُوجِبُ الْجِدَّ وَالْاجْتِهَادَ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٦٧)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٣٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٤٩٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٧٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٦) وصححه، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٥).

وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ، قَالَ: مَا كُنْتُ بِأَشَّدَ اجْتِهَادًا مِنِّي الْآنَ. وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ لِسَلْمَانَ: لَأَنَا بِأَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ أَشَدُّ فَرَحًا مِنِّي بِآخِرِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ سَابِقَةٌ وَهَيَّأَهُ وَيَسَّرَهُ لِلْوُصُولِ إِلَيهَا، كَانَ فَرَحُهُ بِالسَّابِقَةِ الَّتِي سَبَقَتْ مِنَ اللهِ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَهَا[1].

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩]، هذا من التقدير اليومي بعد التقدير السنوي أو الحولي. وهناك ثلاثة أنواع من التقدير: الأول: التقدير العُمُري، والثاني: السنوي، والثالث: التقدير اليومي؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾، وجاء تفسير ذلك في الحديث الذي ساقه المصنف في هذا الباب، وفيه: (ينظر فيه كل يوم ثلاثة مئة وستين نظرة)، فيدبِّر ما يشاء سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويقضي، ويخلق، ويرزق كل يوم إذا نظر في اللوح المحفوظ، وهذا تقدير خاص من التقدير العام.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق جملة من نحو هذه الأحاديث، وعلَّق عليها في كتابه (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل)، فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهَذَا تَقْدِيرٌ يَومِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ حَولِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ عُمْرِيٌّ) هذا قد أخذه واستنبطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مجموع الأحاديث.

---

(١) انظر: شفاء العليل (ص٢٣ - ٢٥).

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هَذَا تَقْدِيرٌ يَومِيٌّ)**؛ كما في قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ حَولِيٌّ)**؛ كما في قوله: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾ [الدخان:٤].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ عُمْرِيٌّ)**، وهو ما يُكتب على الجنين في بطن أمه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَالَّذِي قَبْلَهُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَوَّلِ تَخْلِيقِهِ وَكَونِهِ مُضْغَةً)**، يشير بذلك إلى ما جاء في حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»(١)، وأما حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢)، فذكر أنه عندما تُنفخ فيه الرُّوح، وهذا مراده من ذِكر هذا القول، وهو بيان اختلاف الحديثين؛ حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والذي بعده.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَى وُجُودِهِ لَكِنْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)**، يشير بذلك إلى التقدير العام السابق على وجود المخلوقات، وهو ما كان في اللوح المحفوظ؛ والمراد به حديث آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أخذ الله ذريته، وقال: «**خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**»(٣)، وهذا بعد خلق السماوات والأرض؛ لأن خلق آدم متأخِّر عن خلقهما.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٣).
(٢) سبق تخريجه (ص١٤٩).
(٣) سبق تخريجه (ص١٤٦).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**)، يريد بالذي قبله ما جاء في الحديث من أنَّ الله قال: «**خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**»، فهذا تقدير بعد خلق السماوات والأرض حين خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. والذي قبله النهائي هو التقدير العام.

فلقد رتَّب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدلولات هذه الأحاديث على هذا الترتيب الدقيق العجيب، فكل واحد من هذه التقادير التي بعد ما في اللوح المحفوظ تفاصيل لِمَا في اللوح المحفوظ، وهذه التقادير الدقيقة التي لا تتخلف أبدًا إنما هي دليل على علم الرب وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه سبحانه أظهر هذا لعباده؛ ليتعرفوا عليه، ولتتعلَّق رغبتهم في الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ليخافوا منه، ويرجوه، وليعبدوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإطلاعه سبحانه لهم على هذه التقادير وأنواعها في القرآن والأحاديث إنما هو من مصلحة العباد؛ لأجل أن يعرفوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقضاءه وقدره وتدبيراته وأحكامه؛ ليكونوا على بصيرة، لا أن يكونوا كالبهائم التي لا تدري لماذا خُلقت! هذا مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ الرَّبِّ... إلخ).

وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ لَا يَمْنَعُ الْعَمَلَ، وَلَا يُوجِبُ الْاتِّكَالَ عَلَيهِ...**)؛ إذ كل الأحاديث يأتي فيها ذِكر العمل، فدلَّ على أن التقادير لا تسدُّ مسدَّ العمل؛ ولذلك أعطى الله جَلَّ وَعَلَا الإنسان القدرة والمشيئة والاختيار بعد أن بيَّن له الخير من

الشر، كلُّ ذلك لأجل أن يعمل، لا من أجل الاطلاع فقط، وهذا من لُطفه جَلَّ وَعَلَا بالإنسان، وهذا يوجب عليه بعد معرفته لهذه الأمور أن يجتهد للعمل الصالح، ويتجنَّب العمل السيِّئ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لَمَّا سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ، قَالَ: مَا كُنْتُ بِأَشَّدَ اجْتِهَادًا مِنِّي الْآنَ**)، هذا من فقه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فلما عرفوا هذا، زاد اجتهادهم في العمل، ولم يتكاسلوا أو يتكلوا على القضاء والقدر.

[الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يُوجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ]

٤٩- وَعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، أَوْصِنِي، وَاجْتَهِدْ لِي! فَقَالَ: أَجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ، قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُنَيَّ، إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ، دَخَلْتَ النَّارَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

الشَّرح

هذا الحديث -أيضًا- في موضوع الإيمان بالقضاء والقَدَر، والإيمان بهما هو أحد أركان الإيمان السِّتة، ففي هذا الحديث أنَّ الوليد بن عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل على أبيه عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في آخر حياته عند الموت، فلما عَلم بأن أباه قد احتُضر، أو قارب الموت، طلب منه وصيةً تكون من الميت؛ لأنه يُستحب للميت أن يُوصيَ قبل موته أولاده

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وأحمد في المسند (٣٧/ ٣٧٩)، والطبري في تفسيره (٢٩/ ١٧)، والطيالسي في مسنده (١/ ٤٧١)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٥٨، ٢/ ٤١٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٣٤٤). قال الترمذي: (هذا حديث غريب من هذا الوجه).

وأقاربه بتقوى الله والتمسُّك بالدِّين من بعده؛ كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢]، هكذا يطمئن الوالد على عقيدة أولاده من بعده، وهذا من النُّصح ومن كمال الشفقة، وإذا كان هذا عند الموت، فكيف بحال الحياة والصحة؟! ولهذا فإنه ينبغي للوالد أن يعتني بالمحافظة على أولاده، والمحافظة على عقيدتهم وعلى دينهم، وأن يعلِّمهم الخير، ويحثهم على تجنُّب الشرِّ ووسائل المعاصي؛ حتى ينشؤوا نشأةً صالحةً.

وفي هذا الحديث -أيضًا-: أن الوليد يطلب من والده أن يوصيه، وهذا من حرص السلف على الخير والتواصي به؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣].

وفي الحديث: أن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ طلب أن يُجلسوه؛ اهتمامًا منه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالوصية، فأجلسوه، فأوصى ابنه وصيته العظيمة، أوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر، فدل على أهمية هذا الأمر، فإنه في هذا الموقف وهذه الحالة الحرجة أوصاه الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنه قد ظهرت في آخر عهد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فرقة القَدَرية الذين كانوا ينفون القدر، فتحاذرهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وحذَّروا منهم؛ وهكذا ينبغي للمسلمين إذا ظهرت فرقة ضالة أن يُحاصروها، وأن يحذِّروا منها، وأن يقوموا ضدَّها؛ حتى يسلم هذا الدين من دعاة الضلال، ولما ظهرت فرقة القدرية، أوصى عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ابنه بالحذر من هذه الفرقة ومذهبها، وأن يؤمن بالقضاء والقدر؛ عكسًا لِما عليه هذه الفرقة الضالة، التي تُشكِّك أو تنفي القضاء والقدر، فأوصاه أن يؤمن بالقضاء

والقدر، وقال له: «يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»، وروى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهكذا ينبغي لمن يقول قولًا أن يذكر دليله من الكتاب والسُّنة، فهذا عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما أوصى ابنه بهذه الوصية العظيمة، ذكر دليله على هذه الوصية من حديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشار بأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر بأنَّ من لم يؤمن بالقضاء والقدر أحرقه الله بالنار، هذا وعيد شديد، يدل على كُفر من أنكر القضاء والقدر.

[الْأَمْرُ بِالتَّدَاوِي وَأَخْذِ الْأَسْبَابِ]

٥٠- وَعَنْ أَبِي خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»[1]. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ.

• الشَّرْح •

هذا حديث عظيم، فيه أنه لا مُنافاة بين الإيمان بالقضاء والقدر واتخاذ الأسباب النافعة، فلا يقال: (نؤمن بالقضاء والقدر دون الحاجة إلى اتخاذ الأسباب)؛ لأنه من الخطأ، ولا يقال: ن(تخذ الأسباب وحسب، ولاحاجة إلى الإيمان بالقضاء والقدر)، وهذا -أيضًا- من الخطأ؛ لأن الاعتماد على القضاء والقدر ضلال، وكذلك الاعتماد على الأسباب وحدها ضلال، والحق هو الجمع بين الإيمان بالقضاء والقدر واتخاذ الأسباب النافعة؛ لأنها لا تنافي القضاء والقدر؛ لأن اتخاذ الأسباب إنما هو من القضاء والقدر، فلولا أن الله قدَّر اتخاذ هذه الأسباب، لما اتخذها الإنسان، فلاتنافي في ذلك بينهما؛ لأنه لا يكون في هذا الكون شيء إلا بقضاء الله وقدره.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٥، ٢١٤٨) وصححه، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وأحمد في المسند (٢٤/ ٢١٧)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٦٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢١)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥٨٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٤/ ٤٧).

وقوله في الحديث: «رُقًى نَسْتَرْقِيهَا» رُقى: جمع رُقية، والمراد بها التعويذة التي يتعوَّذ بها المريض(١). وهذه الرُّقى إن كانت من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ومن الأدعية المشروعية، فهي رُقًى شرعية صحيحة، فقد رَقى النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٢)، ورُقي الرُّقى الشرعية(٣)، وهي صحيحة فِعْلها ومضمونُها؛ لأنها من اتخاذ الأسباب، والله جَلَّوَعَلَا جعل القرآن شفاءً من الأمراض ومن الشكوك والأوهام والشُّبهات، فهو شفاءٌ للأجسام وللقلوب؛ كما قال

---

(١) انظر مادة (رقى) في: العين (٥/ ٢١١)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٢٤)، والصحاح (٦/ ٢٣٦١)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٢٦)، ولسان العرب (١٤/ ٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٥١) (٢١٩٢) عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنْهُ».

وأخرج البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٤٧) (٢١٩١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ اليُمْنَى، وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ البَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»».

وأخرج البخاري (٥٧٤٥)، ومسلم (٥٤) (٢١٩٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: «**بِسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا**»».

(٣) أخرجه مسلم (٤٠) (٢١٨٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، «أَنَّ جِبْرِيلَ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**»، و(٣٩) (٢١٨٥) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، فهو يشفي من الأمراض والأسقام، ويشفي من الشُّبهات والشكوك والوساوس التي تكون في القلوب.

فإذا كانت الرُّقية من القرآن الكريم ومن الأدعية المشروعة، فإنه لا بأس بها، وأما إن كانت من الشركيات وعن طريق الاستعانة بالجن والشياطين، أو كانت بألفاظ مجهولة وبحروف مقطعة وطلاسم، فهي رُقية شركية شيطانية، فلا يجوز العمل بها، وقد قال النبي ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»(١)؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يعملون الرُّقى الشِّركية، وأما الإسلام، فقد جاء بالرُّقى الشَّرعية.

وقوله: «**وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ**» المراد: الأدوية الحسية التي يتداوى بها الناس في المستشفيات والمستوصفات، أو بالطب النبوي المعروف، وما يُسمُّونه بالطب الشعبي، والصحيح منه هو الطب النبوي، وما ليس بصحيح، فهو ليس من الطب النبوي؛ فالأدوية الحسية لا بأس بها، فقد قال ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»(٢)، وفي رواية بزيادة: «**عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»(٣)، فهو سبحانه جعل في هذه المخلوقات وهذه النباتات أدوية يستخرجها الأطباء وأهل الخبرة، فينفع الله بها، فلا بأس بالتداوي

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤) (٢٢٠٠) من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

والعلاج بالأدوية المباحة، لكن السائل سأل النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن هذه الرُّقى والأدوية والتُّقاة التي يتَّقون بها المكروه: هل هي تردُّ القضاء والقدر؟ فقال النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ**»؛ لأنها مخلوقة، والله هو الذي قدَّرها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وجعلها أدوية وشفاء للناس، فهي من القضاء والقدر، ولا تُنافيه، فأن يتداوى الناس ويؤمنوا بالقضاء والقدر، فذلك هو المنهج الصحيح والعقيدة السَّليمة، فاتخاذ الأسباب المباحة لاينافي الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنها هي من القضاء والقدر؛ فلا شيء في هذا الكون إلا وقد قدره الله جَلَّوَعَلَا.

[الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خيرٌ وَأَحبُّ إِلى اللهِ من الْمُؤْمِنِ الضَّعيفِ]

٥١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشَّرْح

في هذا الحديث الصحيح: أنه لا تنافي بين فِعْل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ»؛ أي: القوي في إيمانه وعزيمته ورأيه وفي بَدَنِهِ، فإذا اجتمع له قوة الإيمان والقوة البدنية، فهو خيرٌ من المؤمن الضعيف في رأيه وإيمانه؛ لأن المؤمن القوي ينفع نفسه، وينفع غيره، وأما المؤمن الضعيف، فهذا يقتصر نفعه على نفسه فقط، ولا ينفع غيره.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»؛ أي: المؤمن القوي والمؤمن الضعيف كلٌّ منهما فيه خير، لكن الخير الذي في المؤمن القوي أكثر منه في الضعيف، فهذا فيه مدح للمؤمن القوي؛ لِمَا يجعل الله فيه من الخير والبركة

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤) (٢٦٦٤).

للمسلمين، وفيه أن المؤمن الضعيف فيه خير، فلا يُزهد فيه؛ لأنه مؤمن، لكن نفعُه قاصرٌ على نفسه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»، احرصْ؛ أي: جِدَّ في طلب الخير، ولا تكسل، واحرص على ما ينفعك في دينك ودُنياك، وهذا فيه الحثُّ على الكسب والعمل، وأن لا يركن الإنسان إلى الراحة والخمول، أو الاتّكال على القضاء والقدر دون العمل والمثابرة عليه، فهذه مغالطة يُضلِّل فيها شياطين الإنس والجن الجُهّال من المسلمين؛ لتخذيلهم عن السعي لطلب الخير، بحجَّة أنَّ المقسوم حاصل.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»؛ يعني: لا تعتمد على حرصك وأعمالك، بل لابدَّ من الاستعانة بالله والتوكُّل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالأصل في هذا هو الجمع بين الأمرين، الحرص على ما ينفع، والاستعانة بالله والتوكُّل عليه جَلَّ وَعَلَا؛ فهذا فيه دليل على أنَّ السعي في طلب الرزق وغيره من الأمور النافعة لا يكفي دون التوكل على الله والاستعانة بطلب العون منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلا يقتصر الإنسان على التوكُّل على الله، ويترك السعي لطلب الخير، ولا يعتمد على السَّعي، ويترك التوكل على الله؛ فلابدَّ من الجمع بين الأمرين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَعْجَزْنَّ**»؛ يعني: لا تكسل؛ والعجز هنا معناه: الكسل والخمول؛ إذ بعض الناس يُقعده العجز والكسل، ولهذا ينهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن العجز والكسل؛ ولهذا استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العجز والكسل ومن الجبن والبخل بقوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ،**

وَالجُـبنِ وَالهرَمِ»(١)، فإذا فعلت هذا بأن سعيت في طلب الخير، واستعنتَ بالله، فإن حصل كل مقصودك، فاحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن لم يحصل لك مقصودك، فلا تتحسَّر، ولا تتأسَّ، بل اعلم أن هذا قضاء وقدر، وأنه لو كان قُدِّر لك هذا الشيء، لحصل، فارض بقضاء الله وقدره بعد تقديم الأسباب، وأما الرضى بقضاء الله وقدره مع تعطيل الأسباب، فهو غير مشروع.

فإذا أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا، لكان كذا وكذا، فالقدر لا يُنجي منه شيء، «**وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»، هذا هو الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا يُطمئن المؤمن؛ لأن الذي لا يؤمن بالقضاء والقدر إذا فاته ما يريد، فإنه يتحسَّر، وأما المؤمن، فلا يحزن، ولا يتحسَّر، ولا يلوم أحدًا؛ لأنه يؤمن بالقضاء والقدر؛ لِمَا فيه راحة للمؤمن.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٥٠) (٢٧٠٦) عن أَنس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**».

٥ - باب ذكر الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والإيمان بهم

وَقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠].

وَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢].

وَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

وَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [فاطر:١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر:٧].

• الشَّرح •

كما ذكرنا سابقًا أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان الستة، فكذلك الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة؛ كما قال

سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والملائكة: جمع مَلَك، والملك أصله مَلْأَك بالهمز، مأخوذ من الأُلُوكة: وهي الرسالة(١)؛ لأن المَلَك رسولٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والملائكة خَلْق من خَلق الله جَلَّ وَعَلَا من عالم الغيب، نؤمن بهم، ولو لم نرهم؛ اعتمادًا على خبر الله جَلَّ وَعَلَا وخبر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله أخبر عن الملائكة، وكذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس كلُّ موجود يُرى ويُشاهد، فالروح مثلًا هي موجودة، ولكنها لا تُرى، وكذا العقل هو موجود، ولكننا لا نراه، ونحن نؤمن بالملائكة، وإن لم نَرَهُم، بخلاف الملاحدة الذين يقولون: (لا نؤمن إلا بما نشاهده)، فهؤلاء ليس لهم مِيزة، ولكن المِيْزة تكون للذين يؤمنون بالغيب؛ اعتمادًا على خبر الله جَلَّ وَعَلَا وخبر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا فإنه جاء في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣]؛ أي: ما غاب عنهم، والله جَلَّ وَعَلَا عالمُ الغيب والشهادة، يعلم المشاهَد، ويعلم الغائب، أما نحن، فلا نعلم إلا المشاهد، وأما الغائب، فلا نعلمه إلا بواسطة الوحي المنزَّل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) انظر: مادة: (أ ل ك) في النهاية في غريب الأثر (١/ ٦١)، ولسان العرب (١/ ٥٣٥)، (١٠/ ٣٩٣)، وتاج العروس (٢٧/ ٤٨)، ومادة (لأك) في لسان العرب (١٠/ ٤٨٢).

فالملائكة من عالم الغيب، خلقهم الله من نور، وخلق الشيطان من لهب النار، وخلق آدم من تراب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»[(١)].

وقد خَلق الله الملائكة لِحِكَم عظيمة، ومن ذلك أنه خلقهم لعبادته؛ قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وخلقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا لتنفيذ أوامره في هذا الكون، فكلُّ صنفٍ من الملائكة موكَّل بشيء من العمل، فمنهم الموكَّل بالوحي، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم الموكَّل بالقَطْر والنبات، وهو ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم الموكَّل بقبض الأرواح، والنَّفْخِ في الصور، وهو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)]، ومنهم الموكَّل بالأجنَّة في البطون، فيدخل على الجنين، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[(٣)]، ومنهم الموكل

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠) (٢٩٦٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣١٥)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٨٦-٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... **فَمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِسْرَافِيلُ، خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَافًّا قَدَمَيْهِ، لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ** عَزَّ وَجَلَّ **سَبْعُونَ نُورًا، مَا فِيهَا نُورٌ كَانَ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **فِي شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ارْتَفَعَ ذَلِكَ اللَّوْحُ حَتَّى يَضْرِبَ جَبْهَتَهُ فَيَنْظُرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمَرَنِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟، قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: قَبْضُ الْأَنْفُسِ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ هَبَطَ إِلَّا بِقِيَامِ السَّاعَةِ**».

(٣) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي سبق تخريجه (ص١٤٩).

بحفظ أعمال بني آدم، وهم الحفظة الذين يتعاقبون على بني آدم بالليل والنهار، يُسجلون أعمالهم، ويصعدون بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[١]، وكل صنفٍ من الملائكة له وظيفة وكلها الله إليه، لا يتخلف عنها؛ قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧]، وقال عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠]، فلا أحد منهم يتخلَّف عن عمله الذي أوكله الله إليه، بل هم يمتثلون أوامر الله جَلَّ وَعَلَا، فيجب الإيمان بهم، وهم -كما ذكرنا- أصناف:

منهم الموكلون بحمل العرش[٢]، ومنهم مَنْ هم حول العرش، ومنهم المقرَّبون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنهم خازن الجنان، ومنهم خزنة النار، فهم أنواع كثيرة، لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وخِلْقة المَلَك الواحد عظيمة، ليست كخلقه بني آدم؛ ولذلك لايأتون إلى البشر في خَلْقتهم الأصلية الملكية، وإنما يأتون إلى البشر بصورة البشر؛ لئلا ينفروا منهم؛ لأن البشر لا يُطيقون رؤية الملك على هيئته الملكية؛ ولذلك يأتون بصورة آدمي؛ كما كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو دحية الكلبي، فيتخاطب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أرسله الله به[٣]، ولم يَرَ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي سبق تخريجه (ص ١٧).

(٢) انظر: (ص١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (١٠٠) (٢٤٥١) «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمِّ سَلَمَةَ: «مَنْ هَذَا؟» أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَتْ: هَذَا دِحْيَةُ. فَلَمَّا قَامَ قَالَتْ: وَاللهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ =

على خِلْقَته إلا مرتين؛ مرة رآه بين السماء والأرض، له ست مئة جناح، كل جناح منها سدَّ الأفق، ومرة ثانية رآه ليلة المعراج عند سدرة المنتهى(١)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٤]، لما عُرج به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء، وأما بقيَّة مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه كان يأتيه على صورة آدمي.

والمَلَك الواحد أعطاه الله جَلَّ وَعَلَا قوَّة كبيرة، ومنهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي قال الله جَلَّ وَعَلَا عنه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]؛ يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، قيل: المِرَّة: الهيئة الحسنة. وقيل: المِرَّة: القوة(٢)، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قوي، ومما يدلُّ على قوته أن الله لما أمره بقلب قُرى قوم لوط، رفع سبع مدائن مملوءة بالخلق والمباني جميعًا على طرف جناحه، حتى سمعت

=صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ». وعند مسلم (٢٧١) (١٦٧) بلفظ: «وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ».

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (٢٨٧) (١٧٧) عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: «كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي، وَلَا تُعْجِلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ......» الحديث.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٠ - ١١)، وزاد المسير (٤/ ١٨٤)، والقرطبي (١٧/ ٨٥)، وابن كثير (١٨/ ١٥٨).

الملائكة في السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها عليهم، فخسف الله بهم، وهذا ما يدل على قوة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولما صاح بقبيلة ثمود صيحة واحدة صاعقة، قطَّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، صيحة واحدة من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أهلكت أمة عظيمة، وهذا -أيضًا- مما يدل على قوته عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:١٧٧] **الآية**، سبب نزول هذه الآية أن اليهود اعترضوا على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وهم يعلمون أنه حق، ويجدون هذا في كتبهم التي فيها وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بحيث لو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقي على استقبال بيت المقدس، لاعترضوا -أيضًا- بحجَّة أن الرسول الموصوف عندهم في كتبهم يستقبل الكعبة، ولقالوا: إنك تستقبل بيت المقدس، فهم سيعترضون على كلتا الحالتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة:١٥٠]؛ يعني: حوّلناكم إلى الكعبة؛ لئلايكون لليهود عليكم حجة؛ لأنهم يعلمون أن الرسول الذي سيبعث سيستقبل الكعبة المشرفة، فلو بقي محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستقبل بيت المقدس، لقالوا: ليس هذا الرسول الموعود، فلما حُوِّلت القبلة إلى الكعبة المشرفة -قبلة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، اعترضوا، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ليست الطاعة أن تستقبل المشرق

أو المغرب، ولكن الطاعة أن تستقبل الجهة التي آمركم بها، فالمدار على الأمر، لا على الجهة[1].

فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ يعني: أنه من الإيمان بالله استقبال الجهة التي يأمر الله جَلَّ وَعَلَا بها.

وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧] ذكر في هذه الآية خمسة أركان من أركان الإيمان الستة، والشاهد في ذلك هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فجعل الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان السَّتة، فمَن لم يؤمن بالملائكة، فقد افتقد ركنًا من أركان الإيمان، ولا يكون مسلمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]، هذا خبرٌ من الله جَلَّ وَعَلَا، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ يعني: أعلنوا توحيد الأُلوهية، ولا إله إلا الله؛ أي: لا معبود عندهم بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنطقوا بالحق، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وليس المراد النطق بالحروف فحسب، ولكن النُّطق بالألسنة، والاعتقاد بالقلوب، والعمل بالجوارح، فشهادة أن لا إله إلا الله لابد من التلفُّظ بها ومعرفة معناها والعمل بمقتضاها، فلابد من هذه الأمور مجتمعة، أما قول: لا إله إلا الله، دون معرفة معناها، أو معرفة معناها دون العمل بمقتضاها، أو معرفة معناها والعمل بمقتضاها دون التلفظ بها -كحال المشركين-، كل هذا لا ينفع حتى ينطق بها، ويعرف معناها، ويعمل بمقتضاها، ومن العمل

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٧٥-٧٦)، وزاد المسير (١/ ١٣٥)، وابن كثير (١/ ٤٥٤).

بمقتضاها البراءة من الشرك والمشركين، هذا مقتضى التوحيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، لم يقتصر على قوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، بل قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾؛ يعني: عملوا بهذه الكلمة، فأفردوا الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة، هذه هي الاستقامة، أما مجرَّد النطق بها من غير استقامة؛ أي: من غير عمل بمقتضاها، فإنها لا تنفع صاحبها.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، هذا هو محلُّ الشاهد، والملائكة تتنزل عليهم عند الموت، وهي ملائكة الموت، فمَلَك الموت جعل الله معه ملائكة يساعدونه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، وقال في آية أخرى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]؛ يعني: الملائكة؛ لأنهم رسل، وفي آية أخرى قال: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [النحل:٣٢]، والجمع في ذلك: هو أن ملك الموت معه أعوان من الملائكة، يستخرجون الروح من جسد الإنسان، ثم يقبضها منهم ملك الموت، وأما الباقون، فهم أعوان له.

فالملائكة تتنزل على الإنسان عند الاحتضار في الموقف الحرج، وحينها يطَّلع الإنسان على ما هو أمامه، فيطَّلع على منزلته في الآخرة؛ إما في الجنة، وإما في النار، فيحصل عند الإنسان في هذا خوف شديد، فتطمئنه الملائكة بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾؛ ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ مما أنتم قادمون عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما فاتكم من الدنيا؛ على أولادكم وأموالكم، ﴿وَأَبْشِرُوا۟﴾ بعدما هدَّؤوهم بشَّروهم ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾؛ يعني: نتولى أمركم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣١-٣٢]، هذه صفة احتضار المؤمن.

وأما الكافر والمنافق، فإن الملائكة إذا نزلت لقبض روحه، فإنها تبشره بالنار والتهديد والضرب؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣]؛ يعني: باسطو أيديهم بالضرب، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، بعدما استصعبت أنفسُهم، وامتنعت عن الخروج من الأجساد، وذلك إذ يُبشِّرونهم بالنار والعذاب، هذه صفة احتضار الكافر والمنافق.

وفي هذا دليل على وجوب الإيمان بالملائكة، وأن منهم صنفًا مهمَّتهم قبض الأرواح، وبشارة المؤمنين بالجنة، وبشارة الكفار والمنافقين بالنار عند هذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾؛ أي: عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يستكبر، أو يمتنع من أن يكون عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النصارى اعتقدت في المسيح أنه هو الله، أو أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: إن المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدَّعي هذا الذي تقولونه، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يعترف بأنه عبد لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]؛ يعني: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال

تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، هذا أول ما نطق به وهو في المهد، ولم يقل: إني ابن الله، وقال كما ذكر سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٥١]، هذا قول المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه عبد الله ورسوله، بخلاف ما تدَّعيه النصارى من أنه ابن الله -تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا-، وهذا فيه ردٌّ على زعمهم بأنه ابن الله، فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتشرف بأن يكون عبدًا لله، وأفضل الخلق محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»**(١).

والعبودية هي أعلى مراتب الشَّرف لبني آدم وللملائكة ولجميع الخلق، وأما الألوهية، فإنها لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

لِلهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ ... وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الْحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا ... مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ(٢)

فيجب التفريق بين حقِّ الله وحق الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحقُّ الله: العبادة، وحقُّ الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: المتابعة والطاعة له صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإيمان برسالته ومحبَّته أكثر من محبَّة النفس والأهل والمال والولد والناس أجمعين، هذا هو حق الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه ليس له في العبادة حق؛ لأنها حقٌّ لله عَزَّ وَجَلَّ وحده دون سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، هذا هو محلُّ الشاهد؛ فالملائكة لا يستكبرون أن يكونوا عبيدًا لله جَلَّ وَعَلَا، بل هم معترفون بالعبودية،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، ومسلم (١٥) (١٦٩١).
(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٤٧).

ولهذا فهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وقوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فيه دليل على أن هناك صنفًا من الملائكة مقرَّبون عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالملائكة درجات، فمنهم المقرَّبون عند الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن مع كونهم مقرَّبين عند الله، إلا أنهم لا يستنكفون أن يكونوا عبادًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، وهذا -أيضًا- في وصف الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَهُۥ ﴾؛ أي: لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كلهم عبيده، المؤمن والكافر، والجن والإنس، كلهم عبيد لله، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]، لكن الكافر عبدٌ لله العبودية العامة، وأما المؤمن، فهو عبدٌ لله العبودية الخاصة، وإلا فكلهم عباد لله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾؛ أي: الملائكة، وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا يستنكفون، ولا يسأمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فالملائكة لا يدَّعون الألوهية، ولو قُدِّر أنهم ادَّعوا الألوهية، لأحرقهم الله في النار؛ لأن العبودية حقٌّ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دون سواه.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، قوله: ﴿رُسُلًا﴾ إلى خلقه يرسلهم الله جَلَّ وَعَلَا بالمهمَّات التي يُنفِّذونها في الأرض، فمنهم من ينزل بالوحي، ومنهم من ينزل بالعذاب، ومنهم من ينزل بالبشارة للمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]، فهناك رسلٌ من الملائكة ورسلٌ من البشر، فالملائكة رسل يرسلهم الله جَلَّ وَعَلَا لما يريد من أمره.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾، هذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة؛ لأن الملائكة تطير في الهواء، وهذه الأجنحة كثيرة لا يعلمها إلا الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ﴾؛ يعني: منهم من له جناحان، ﴿وَثُلَٰثَ﴾؛ أي: ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ﴿وَرُبَٰعَ﴾؛ أي: منهم من له أربعة أجنحة، ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: زيادته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في خلق هذا الملك من الأجنحة على الآخر ما يشاء، ونُقصانه عن الآخر ما أحبَّ، فمنهم مَن له ست مئة جناح؛ كما في الحديث الصحيح(١).

فهذا في إثبات أن الملائكة رسل، وأنهم ليس لهم من الرُّبوبية والألوهية شيء، وإنما هم مجرد رسل، وأن لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وأنَّ هذه الأجنحة متعدِّدة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧]، وهذا صنف آخر من الملائكة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (٢٨١) (١٧٤) عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١]، قَالَ: رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

-أيضًا-، هم حملة العرش، الذي هو أعظم المخلوقات، يحمله ملائكة، وهم أربعة، ومع عظم العرش الكريم يُذكر عِظَم هؤلاء الملائكة الذين يحملونه، ويوم القيامة يُضاعف عددهم، فيكونون ثمانية ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧]، يعني: من الملائكة الذين يقال لهم: حملة العرش[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾؛ أي: حول العرش، وهم الملائكة المقرَّبون.

ومن نُصحهم ومحبَّتهم للمؤمنين فإنهم يستغفرون لهم، ولهذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: ينزهون الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهم يستغفرون للمؤمنين من بني آدم؛ لأنهم يحبُّون المؤمنين منهم، وهم أنصح الخلق لبني آدم، بخلاف الشياطين الذين هم أكثرهم غشًّا لبني آدم.

---

(١) انظر: (ص١٠٤).

[خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ]

٥٢- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، الحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشَّرْح

ما زال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر الأحاديث الواردة في الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وفي هذا الحديث المروي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيه: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الملائكة من النُّور، وخلق الجانَّ -وهم إبليس وذُريته- «مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»، والمراد بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»**؛ أي: من اللَّهب، وخلق آدمَ أبا البشرية عَلَيْهِ السَّلَامُ **«مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»**؛ يعني: مما ذكر الله في آياتٍ كثيرة؛ أنه خلقه من تراب، هذا أصل خِلْقة الملائكة والشياطين والإنسان، واللهُ على كلِّ شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

وكان إبليسُ قد استكبر على آدم، وأبى أن يسجد له، وعصى أمر الله، وقال -كما ذكر الله عنه سبحانه-: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، فبزعمه أنَّ النار أحسن من الطِّين، وهذا قياس فاسد، فإن الطين أحسن من النار؛ لأن النار محرقة متلفة، ولاتُنتج شيئًا، أما الطِّين، فإنه مبارك، ويُنتج النباتات والأشجار الطَّيبة، وفيه منافع للناس كثيرة، فلو

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠) (٢٩٩٦).

رجعنا إلى القياس والأصل، لوجدنا أن آدم أطيب أصلًا من إبليس، مع أن هذا القياس الفاسد في مقابل الأمر؛ أي: أمر الله جَلَّوَعَلَا، الذي كان من الواجب امتثاله من قِبَل إبليس وغيره، فإذا أمر سبحانه بشيءٍ، فلا اعتراض، ويجب الانقياد له -والله يؤتي فضله مَنْ يشاء-، والذي حَمَل إبليس على هذا هو الحَسد، فحسد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واستكبر عن أمر الله، فحصل عليه من العقوبة ما حصل.

والشاهد من الحديث: أنَّ الملائكة خُلقوا من النُّور، فيؤمن المسلم بما جاءه عن الله عَزَّوَجَلَّ وعن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد سبق القول بأنهم عباد مكرمون، وأنهم أصناف كثيرة.

[يَدْخُلُ الْبَيتَ المَعْمُورَ كُلَّ يَومٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ]

٥٣- وَثَبَتَ فِي بَعْضِ أَحَادِيثِ الْمِعْرَاجِ: «أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ -وَقِيلَ فِي السَّادِسَةِ- بمنزلة الْكَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ، كَحُرْمَةِ الْكَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»(١).

• الشَّرْح •

هذا الحديث فيه ذكر عبادة الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وأن الله جَلَّ وَعَلَا جعل لهم بيتًا في السماء؛ كما جعل لبني آدم بيتًا في الأرض، وهذا البيت الذي في السماء بِحِيال الكعبة المشرفة التي في الأرض؛ وذلك لعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا البيت الذي في السماء هو البيت المعمور، يزوره هذا العدد كل يوم من الملائكة، ولا يرجعون إليه، بل يأتي غيرهم.

فهذا يدل على أمرين:

الأول: أن الملائكة يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنهم عباد ليس لهم من الأمر شيء.

الثاني: فيه دليل على كثرة الملائكة؛ حيث إنه يأتي كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، حيث لا يعلم عددهم الهائل إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (٢٦٤) (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ**».

٥٤- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ قَائِمٌ، فَذَلِكَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ:** ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥، ١٦٦]»، **رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ**(١).

الشَّرْح

وهذا الحديث -أيضًا- يدلُّ على أن الملائكة يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ بالركوع والسجود والقيام؛ عبادةً لله عَزَّوَجَلَّ، وفيه بيان كثرتهم في السماء -على سعتها-؛ إذْ ليس فيها موضع قَدَمٍ، إلا وفيه مَلَك يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا دليل على كثرتهم، وأنهم ملؤوا السماء -على سعتها-، ويدل على هذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ لأن الملائكة تَصفُّ عند ربِّها للعبادة؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**»؛ يعني: في الصلاة، «فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ**»(٢)، وفي هذا دليل على عبادة الملائكة لله عَزَّوَجَلَّ وعلى كثرة عددهم؛ حيث إنهم يملؤون السماء -على سعتها.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٠)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ١١١، ١١٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٣٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (١١٩) (٤٣٠)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٥- وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلَا شِبْرٍ وَلَا كَفٍّ، إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ، أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا»(١).

الشَّرْح

وهذا الحديث كالأحاديث السابقة فيه ذكر عبادة الملائكة، وفيه ذكر كثرتهم؛ حيث إنه لم يَبقَ في السَّماء فضاء، بل هم ملؤوه، وفيه ذكر مسألة عظيمة، وهي أنه على الإنسان أن لا يغترَّ بعمله مهما كثُر، فالملائكة يُسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومع هذا يقولون لله عَزَّ وَجَلَّ: «**سُبْحَانَكَ ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ**»؛ لأن حق الله عظيم، ولو قارن الإنسان عمله بنِعَم الله عليه، لما بلغت شيئًا يُذكر أمام هذه النِّعَم، فالعمل قليلٌ وإن كثُر؛ لأن نِعَم الله أكثر وأكثر، فلا أحدَ يعبد الله حقَّ عبادته؛ لعظم حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا فإن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أفضل الخَلْق على الإطلاق، وأكثرهم عبادة لله عَزَّ وَجَلَّ يقول: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٢)، هذا فيه

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤)، وفي الأوسط (٤/ ٤٤)، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، والنسائي (١٤٤٨)، وابن ماجه (١١٧٩)، وأحمد (٢/ ١٤٧)، والحاكم (١/ ٤٤٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٦٠)، والصغرى (١/ ٢٨٥)، وأبو يعلى (١/ ٢٣٧) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اعتراف بأنَّ عمل المخلوق مهما بلغ، فإنه لا يعادل حقَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا فيه -أيضًا-: أنه على الإنسان أن لا يَغْترَّ بعمله، أو يُعجَب به.

وفي قوله: «إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا» بيان أنَّ مَن سَلِمَ من الشِّرك، فإنه سَلِمَ من خطر عظيم، وفيه -أيضًا-: الخوف من الشِّرك، وأنَّ الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شكروا الله عَزَّوَجَلَّ أنه سلَّمهم من الشِّرك، وهذه نعمة عظيمة، فمَن سَلِمَ من الشرك، فإنه قد سَلِم من الخطر العظيم، ومَن وقع في الشِّرك، ولم يَتُبْ منه، فإنه لا نجاة له.

[وَصْفُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ]

٥٦ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»(١)، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ»، وَالضِّيَاءُ فِي «الْمُخْتَارَةِ».

الشَّرْح

هذا الحديث فيه ذكر عِظَم خِلْقة الملائكة، وأن هذا الملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبع مئة عام، فدلَّ على عِظَم خِلْقة الملائكة، وأنه لا يعلم خِلْقه المَلَك إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان هذا عِظَم المخلوق، فكيف بعِظَم الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!!!

وفيه: أن من الملائكة صنف يحملون العرش، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر:٧]، وقوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٤)، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٤٨) بلفظ: «خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٩٩) بلفظ: «أَرْبَعِمِائَةِ عَامٍ».
قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤١٥): (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات).
وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٦٥): (وإسناده على شرط الصحيح).

فَمِنْ سَادَتِهِمْ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْأَمَانَةِ وَحُسْنِ الخَلْقِ وَالْقُوَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم:٥-٦]، وَمِنْ شِدَّةِ قُوَّتِهِ أَنَّهُ رَفَعَ مَدَائِنَ قَوم لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وَكُنَّ سَبْعًا- بِمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْأُمَمِ -وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِمَائِةِ أَلْفٍ- وَمَا مَعَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ وَالحَيَوَانَاتِ، وَمَا لِتِلْكَ المَدَائِنِ مِنَ الْأَرَاضِي وَالْعِمَارَاتِ عَلَى طَرَفِ جَنَاحِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِنَّ عَنَانَ السَّمَاءِ، حَتَّى سَمِعَتِ المَلَائِكَةُ نِبَاحَ كِلَابِهِمْ وَصِيَاحَ دِيكَتِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَهَذَا هُوَ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1].

وَقَولُهُ: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أَيْ: ذُو خَلْقٍ حَسَنٍ وَبَهَاءٍ وَسَنَاءٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ، قَالَ مَعْنَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيْ: ذُو قُوَّةٍ[2].

وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَتِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]؛ أَيْ: لَهُ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ، وَلَهُ مَكَانَةٌ وَمَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أَيْ: مُطَاع فِي المَلَأِ الْأَعْلَى ﴿أَمِينٍ﴾ ذِي أَمَانَةٍ عَظِيمَةٍ، وَلِهَذَا كَانَ هُوَ السَّفِيرَ بَينَ اللهِ وَبَينَ رُسُلِهِ[3].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٥١٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ٢٠٦٧)، وابن كثير (٤/ ٣٤١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٩٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٠-١١)، والقرطبي (١٧/ ٨٦)، وابن كثير (٧/ ٤٤٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٦٣-١٦٥)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٨)، والقرطبي (١٩/ ٢٤٠)، وابن كثير (٨/ ٣٣٨).

الشَّرْح

من سادات الملائكة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو المَلَك الموكَّل بالوحي، وقد مدحه الله جَلَّ وَعَلَا بالأمانة، فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء:١٩٣]، فهو أمين على الوحي، ومدحه بالقوَّة؛ قوَّة الخِلْقة والبَدَن في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾، ووصفه بحسن الصورة، فقال: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي: خلقة حسنة، ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٥]، علَّم نبيَّنا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسيأتي ذكر شيء من قوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾؛ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، جاء أنه لما أمره الله بإهلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولوط نبيٌّ من أنبياء الله، وهو ابن أخي إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإبراهيم هو عمُّه -عليهما الصلاة والسلام-، وجاء مهاجرًا مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أرض بابل بالعراق إلى الشام، وأرسله الله إلى قومه، وكان قومه أُمَّةً خبيثة، قومَ سَوْء، وكانوا يأتون الذُّكران من العالمين، وهم أول مَنْ فعل هذه الفاحشة الشنيعة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فقد خلق الله للرجال النساء يكنَّ زوجات لهم، وهنَّ طيبات، ومحلٌّ للحرث والإنجاب، وكون هؤلاء القوم الخبثاء يَعْدِلون عمَّا خلق الله لهم من أزواج، ويكفرون نعمة الله، ويهلكون الحرثَ، ويضعونه في أدبار الرجال، فهو دليل على خُبثهم، وهذه جريمة شنيعة تأنف منها حتى البهائم، فأرسل الله إليهم نبيَّه لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنكر عليهم فِعْلَتهم، وقال لهم -كما أخبر الله تعالى-: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم

بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]؛ يعني: متجاوزون من الحلال إلى الحرام، وهؤلاء خرجوا من الإنسانية إلى البهائمية المنحطَّة، بل حتى البهائم لا تفعل هذا الفعل، فلما أَبوا أن يتركوا هذه الجريمة، عاقبهم الله بعقوبة لم يُعاقب بها أمَّةً من الأمم؛ لأنَّ فِعْلهم لم يفعله أحد من قَبل، فأمر الله جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يرفع ديارهم -وكانت سبع مدن مكتظَّة بالسكان- وما فيها من الأمتعة والحيوانات، فحملها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على طرف جناحه، إلى أن بلغ بها عنان السماء، فسمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها عليهم، وأُتبعوا بحجارة من سجِّيل عقوبةً لهم، وكانت هذه البلاد المخسوفة ممرًّا للعرب إذا سافروا إلى الشام، ولا يعتبرون؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٠]، وقال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]. وقال -أيضًا-: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر:٧٦]، وتسمَّى بحيرة لوط، أبقاها الله على هذه الصورة عبرة وعظة؛ ولهذا جاء في الأحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»(١)، وأجمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على قتل مَن يفعل فعلهم، ولكنهم اختلفوا في كيفية القتل، فمنهم مَن رأى أنه يُرفع إلى أعلى مكان في البلد، ثم يُلقى، ويُتبَع بالحجارة؛ كما فعل الله بقوم لوط، ومنهم مَنْ يَرى أنه يُحَرَّق في النار، وقد حرَّق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وأحمد (٤/ ٤٦٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن العلماء مَن يرى أنهم يُقتلون بالسيف، فالعلماء لم يختلفوا في قتلهم، وإنما اختلفوا في كيفية قتلهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥] وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦] لابد أن بينهما فَرْقًا، فالمِرَّة غير القوة، والمِرَّة: هي الهيئة الحسنة؛ كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه أوصاف جبريل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فيه وصف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالكرم، ووصفه بالرسالة، فهو رسول من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، يرسله إلى مَنْ يشاء من رسله من بني آدم بالوحي، فهو واسطة بين الله عَزَّ وَجَلَّ والرسل من البشر بالوحي، وهذا مدحٌ له، ولهذا قال عنه تعالى: ﴿كَرِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، فوصفه تعالى بالقوة، ثم وصفه بما هو أعلى، فقال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير:٢٠] بعُلوِّ المكانة، فهو قريب من الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم قال: ﴿مَكِينٍ﴾؛ أي: له مكانة عظيمة، ثم قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ﴾؛ أي: تطيعه الملائكة، فهو رئيسهم ومقدَّمهم، ثم قال تعالى: ﴿ثَمَّ﴾، وهي اسم إشارة، فقوله تعالى: ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: في السماء، ثم قال: ﴿أَمِينٍ﴾، فوصفه تعالى بالأمانة، هذه أوصاف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم قال تعالى عن نبيِّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يتلقَّى الوحي من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾؛ لأنهم كانوا يصفونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنون، والله جَلَّ وَعَلَا نفى عنه ذلك، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: رأى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على خِلْقته التي خلقه الله عليها بالأُفق، وذلك في بطحاء مكة، لَمَّا حصل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الضيق والشدَّة

من كفَّار أهل مكة، فسمع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صوتًا من فوق رأسه، فرفع طرفه إلى السماء، فإذا هو جبريل بين السَّماء والأرض، له ست مئة جناح[1]؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٣-٢٤]، ما هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿بِضَنِينٍ﴾ على الغيب؛ أي: ما هو بمُتهم على الأخبار التي يُخبر بها عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هو صادق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، هذا القرآن ليس من قول الشياطين؛ لأن الشياطين لا تقرب الوحي؛ لأنه يُحرقها، وهي لا تطيق ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ يعني: بالقرآن، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾؛ أي: لايليق بهم، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؛ يعني: عن الوحي، فهم مبعدون، يُرجمون بالشُّهب، فلا يستطيعون أن يَقْربوا من الوحي، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٥-٢٦]، ليس لكم طريق لتكذيب هذا الرسول وهذا القرآن بعد هذه الأوصاف العظيمة، وهذا السند المتصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فالسند إنما هو عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٧).

[أَجْنِحَةُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

٥٧- وَقَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ رَآهُ عَلَى صِفَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيهَا مَرَّتَينِ(١)، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، رَوَى ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

الشَّرْح

لقد رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على خلقته التي خلقه الله عليها مرتين؛ مرة في مكة حين رفع رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي المرة الثانية ليلة المعراج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٤]؛ أي: ليلة عُرج به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما في بقيَّة الأحوال، فقد كان يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة البشر، ويراه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويظنون أنه رجل من البشر؛ لأنهم لا يطيقون رؤية جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على خِلْقته، فيأتي بصورة رجل؛ كما في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ»، هذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نهاية الحديث: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (٢٨) (١٧٤).

(٣) سبق تخريجه (ص ٧).

٥٨- وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ». إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ[1].

الشَّرح

ما زال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يسوق الأحاديث الدَّالة على عِظَم خِلْقة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويؤيِّد ما جاء في هذه الأحاديث قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، دلَّت الآية على أن للملائكة أجنحة، وأنها كثيرة، منها ما هو مثنى وثلاث ورباع، ثم قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٩٤)، وابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٤٩)، وأبو يعلى (٨/ ٤٠٩)، وابن حبان (١٤/ ٣٣٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٧٨).

[صِفَةُ ثِيَابِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

٥٩- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ رَفْرَفٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

الشَّرْح

وهذا دليل آخر على عِظَمِ خِلْقَةِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ هيئته جميلة، وقد بسط أجنحته بحُلَّته الخضراء الجميلة، وقد سبق بيان جمال وبهاء وعِظَم خلقته عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما مضى من الأحاديث.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٨٣)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٨٤)، والطيالسي في مسنده (١/ ٢٢٢)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٣٤)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٦)، والحاكم (٢/ ٥٠٩).

٦٠- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنْهَبِطًا، قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ، مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ»، رَوَاهُ أَبُو الشَّيخِ[1].

٦١- وَلِابْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «جِبْرِيلُ: عَبْدُ اللهِ، وَمِيكَائِيلُ: عُبَيْدُ اللهِ، وَكُلُّ اسْمِ إِيلَ، فَهُوَ اللهُ»[2].

٦٢- وَلَهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ مِثْلُهُ، وَزَادَ: «وَإِسْرَافِيلُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ»[3].

الشَّرْح

هذا تفسير لكلمة: (إيل) في أسماء الملائكة الكرام.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠/ ٢٧٥)، وابن راهويه (٣/ ٨٠٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٦٨).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٢/ ٢٩٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري (٢/ ٢٩٧).

[جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ المَلَائِكَةِ]

٦٣- وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ الْمَلائِكَةِ؟ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(١).

الشَّرْح

هذا فيه أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ -ويقال: جبرائيل- هو أفضل الملائكة؛ لأن الله اختصَّه بالوحي، وبسماع كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يسمع كلام الله، ويُبلِّغه لمَن أمره الله بتبليغه له؛ كما جاء في الحديث: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رَعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، صُعِقُوا، وَخَرُّوا لِلهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلَ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ**»(٢)، فهذا دليل على فضل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على غيره من الملائكة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٦٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٩٨).

[خوف الملائكة من النار]

٦٤- وَعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الجُونِي أَنَّهُ بَلَغَهُ: «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ، مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ، فَيُلْقِيَنِي فِيهَا». رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ(١).

الشَّرْح

وهذا الحديث فيه -كما سبق- أن الملائكة مع كثرة عبادتهم لا يَغترُّون بأعمالهم، ويخافون أن يعصوا الله عَزَّوَجَلَّ، فيقذفهم في النار؛ كما حصل لإبليس، فإنه كان مع الملائكة يعبد الله، فلمَّا عصى الله، لعنه الله عَزَّوَجَلَّ، وأبعدَه. وجبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى النار وشدَّة عذابها وأنها دار العقاب، خشي أن يعصي الله، فيقع فيها.

وفي هذا دليلٌ: على أنه لا ينبغي للإنسان أن يُزكِّي نفسَه، وأنه ينبغي له أن يخاف من النار، ويخاف الله ومكره عَزَّوَجَلَّ بمن عصاه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٠)، والذي في الزهد للإمام أحمد (ص٢٦): أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمْ تَأْتِنِي إِلَّا وَأَنْتَ صَارٌّ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، قَالَ: إِنِّي لَمْ أَضْحَكْ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ».

[الْمَلَائِكَةُ لَا تَتَنَزَّلُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه]

٦٥- وَلِلْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرَائِيلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»، فَنَزَلَتْ: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ [مريم:٦٤] الآية(١).

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ(٢).

الشَّرْح

في هذا الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكثر الزيارة له؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبُّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيؤخذ منه الحثُّ على محبَّة عباد الله الصالحين وزيارتهم، فطلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الإكثار من الزيارة؛ ليكثر فرحُه وأُنسُه به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾، فهذا فيه أن الملائكة تحت تدبير الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنهم لا ينزلون إلا بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يتنزلون بحسب رغبتهم هم، وإنما ينزلون إذا أمرهم الله بالنزول.

وقوله: (وَمِنْ سَادَاتِهِمْ مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ) كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قام من الليل يستفتح، فيقول: «**اللهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٨، ٤٧٣١، ٧٤٥٥).

(٢) سبق تخريجه (ص١٧٥).

تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١)، وخصَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء الثلاثة؛ لأن جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ موكَّل بالوحي الذي فيه حياة القلوب، وميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ موكَّل بالقَطْر الذي فيه حياة الأرض، وإسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ موكَّل بالنفخ في الصُّور الذي فيه حياة الناس يوم القيامة بعد الموت، هؤلاء الثلاثة هم أفضل الملائكة؛ لأن كلَّ واحد منهم موكَّل بالحياة؛ حياة القلوب، وحياة الأرض، وحياة الأبدان عند البعث من القبور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، فالذي ينفخ في الصُّور هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ينفخ فيه نفخة الصعقة، فيموت كلُّ مَنْ في السماوات والأرض، إلَّا من استثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم ينفخ فيه ثانية، فيَحيا كلُّ مَنْ مات، ويقوم سَويًّا، فهذا وجه كون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصَّ هؤلاء الثلاثة في استفتاحه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠) (٧٧٠) من حديث أبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: **اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

٦٦- وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ لِجِبْرَائِيلَ: «مَالِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ فَقَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»**(١).

الشَّرْح

وهذا كما سبق في الحديث عن جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان يبكي، فسأله النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بكائه، فقال: **«مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ، مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ، فَيُلْقِيَنِي فِيهَا»**(٢)، وهذا ميكائيل مثله، لا يستطيع أن يضحك منذ خُلقت النار من شدَّة خوفه منها، فالملائكة مع عبادتهم وقربهم ومكانتهم من الله تعالى لم يأمنوا على أنفسهم من النار، فهذا فيه الحثُّ على شدَّة الخوف من النار، وليس المراد هو مجرَّد الخوف من النار فقط، ولكن الخوف والعمل للنجاة منها، فالمطلوب هو الخوف مقرونًا مع عمل ما يُرضي الله وتَرْك معصيته جَلَّ وَعَلَا، فالخوف دون العمل لا يُفيد شيئًا، والعمل دون الخوف لا يفيد شيئًا كذلك، والمفيد هو الجمع بين الأمرين: العمل والخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]؛ يعني: يؤتون من الأعمال الصالحة العظيمة، وهم خائفون من ردِّها ومن عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يغترُّون بأعمالهم، أو يُدْلون بها على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١/ ٥٥)، وفي الزهد له (ص٦٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨١٤، ٨١٥)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٠٣).

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ: إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، وَهُو الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ.

الشَّرْح

الصُّور: قَرنٌ لا يعلم عِظَم خِلْقَتِه إلا الله تعالى، وفيه أرواح بني آدم، فإذا نفخ فيه إسرافيل، خرجت منه كلُّ روح، ودخلت في بدن صاحبها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ينفخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتطير الأرواح، كلُّ روحٍ إلى جسمها.

[صَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ لِلنَّفْخِ فِي الصُّورِ]

٦٧- رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَالحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا»[(١)].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه ذكر خوف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممَّا أطلع عليه من أنَّ مَلَك النَّفخ في الصُّور قد تهيأ لذلك منتظرًا للأمر، وهذا فيه دليل على قُرب قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، وقيام الساعة هول عظيم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج:١-٢]، فكيف لا يخاف الإنسان من هذا الهول، ولا يستعدّ له؟!

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣١)، وأحمد في المسند (٥/ ١٤٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٣)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٥)، وفي الصغير له (١/ ٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٥).

[إِسْرَافِيلُ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ]

٦٨- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ السُّفْلَى، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَأَبُو نُعَيمٍ فِي الْحِلْيَةِ[1].

الشَّرْح

وهذا دليل آخر على عظم خلقة الملائكة، فهذا ملك من الملائكة قدماه في الطبقة السفلى من الأرض، ورأسه قد اخترق الطبقة العُليا من السماء السابعة، وهذا دليل على عِظَم خِلْقتِهم وهيئتهم.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٩٧، ٣/ ٩٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٥).

٦٩- وَرَوَى أَبُو الشَّيخِ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ، قَطَعَ عَلَى أَهْلِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ»[(١)].

الشَّرْح

هذا فيه أنَّ الله أكرم إسرافيل بِحُسْنِ الصَّوتِ، وأنَّ الملائكة تُصغي لصوته، ويذهلون عن تَسبيحهم وتهليلهم إذا سمعوه.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٥٦).

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ مَلَكُ المَوتِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَلَمْ يَجِئْ مُصَرَّحًا بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ تَسْمِيَتُهُ بِعَزْرَائِيلَ، فَاللهُ أَعْلَمُ. قَالَهُ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ(١).

الشَّرْح

تسمية ملك الموت هكذا جاءت في القرآن؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، ولكن لم يُسمَّ بعزرائيل، ولم يثبت له اسم معيَّن في القرآن ولا في السُّنة، وإنما قال الله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، وجاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل، والله أعلم بصحة ذلك!

انتهى المصنف الآن من بيان عِظَم خلقة الملائكة وعبادتهم وخوفهم من الله جَلَّوَعَلَا، وبيان كثرة عددهم، ثم شرع في بيان أعمالهم وأصنافهم، فكلُّ صنفٍ منهم له عمل وكَّله الله إليه؛ ليقوم به.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ٤٧).
قال الحافظ ابن حجر في الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (ص١٠٨): (وأن تسمية ملك الموت عزرائيل، فقد اشتهر ذلك بين الناس، وقد راجعت مبهمات القرآن لأبي القاسم السهيلي فلم أجد ذلك فيه، ثم راجعت تفسير القرطبي فوجدته ذكر أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولم ينسبه لقائل، ولا ذكر فيه أثرًا، ثم راجعت تفسير الثعلبي فوجدته حكى أن اسمه عزرائيل، وعزاه لتفسير مقاتل وتفسير ابن الكلبي). اهـ.

وَقَالَ: إِنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا هَيَّأَهُمْ لَهُ أَقْسَامٌ: فَمِنْهُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَمِنْهُمُ الْكَرُوبِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ(١)، وَهُمْ مَعَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢].

وَمِنْهُمْ سُكَّانُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ يَعْمُرُونَهَا عِبَادَةً دَائِمَةً لَيْلًا وَنَهَارًا صَبَاحًا وَمَسَاءً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ.

قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَاوَاتِ(٢).

---

(١) أخرج عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٩٢)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٠١) من طريق قتادة عَنْ عَامِرٍ الْبِكَالِيِّ، قَالَ: (إِنَّ اللهَ جَزَّأَ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ، وَالْجِنَّ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ، فَتِسْعَةُ أَجْزَاءٍ مِنْهُمُ الْكَرُوبِيُّونَ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ، وَهُمْ أَيْضًا الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَلَا يَفْتُرُونَ).

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٠، ٣١١): (وفي المعقبات قولان:

أحدهما: أنها الملائكة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد والحسن وقتادة في آخرين، قال الزجاج: والمعنى للإنسان ملائكة يعتقبون يأتي بعضهم بعقب بعض، وقال أكثر: المفسرين هم الحفظة اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر وقال قوم منهم ابن زيد هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ عزم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس على قتله فمنعه الله منهما وأنزل هذه الآية.

والقول الثاني: أن المعقبات حراس الملوك الذين يتعاقبون الحرس، وهذا مروي عن ابن عباس وعكرمة، وقال الضحاك: هم السلاطين المشركون المحترسون من الله تعالى). اهـ.

وانظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١٤- ١١٦)، والدر المنثور للسيوطي (٤/ ٦١٣).

وَمِنْهُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْجِنَانِ، وَإِعْدَادِ الْكَرَامَاتِ لِأَهْلِهَا، وَتَهْيِئَةِ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلَابِسَ وَمَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَصَاغٍ وَمَسَاكِنَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنُ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

الشَّرْح

مِن هؤلاء الملائكة مَن هم موكلون بحمل عرش الرَّحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وقد سبق بيان ذكرهم، ومنهم الذين هم حول العرش، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَمِنْهُمُ الْكَرُوبِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ**)، وهم من أفضل الملائكة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر:٧]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥]، فهؤلاء أقرب الملائكة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، دلَّ على أن الملائكة منهم من هم مقرَّبون من الله عَزَّوَجَلَّ، وهم الذين حول العرش.

(**وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يَشْتَغِلُ بِالْعِبَادَةِ**)، ليلًا ونهارًا في السماوات السَّبع، كل سماء لها سكانها مِن الملائكة يَعْمُرونها بالعبادة، قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨].

(**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ**)؛ كما سبق فإنَّ البيت المعمور في السماء يتعاقب عليه الملائكة، فكلُّ يوم يأتيه عدد كبير منهم، ثم لا يرجعون إليه؛ لأن الله قسمهم في زيارة البيت.

(قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَى الْبَيتِ المَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَاوَاتِ)

يعني: هل هناك فرق بين سكَّان السَّماوات وبين الذين يأتون إلى البيت المعمور؟ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَى الْبَيتِ المَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَاوَاتِ) أي: لعلهم هم سكَّان السماوات؛ إذْ لا فرق بينهم، والله أعلم.

(وَمِنْهُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْجِنَانِ، وَإِعْدَادِ الْكَرَامَاتِ لِأَهْلِهَا، وَتَهْيِئَةِ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلَابِسَ وَمَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَصَاغٍ وَمَسَاكِنَ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)؛ أي: ومن الملائكة مَن هم وظيفتهم داخل الجنان، يُعِدُّون فيها مِن الكرامات التي يأمرهم الله بها، فيغرسون فيها مِن الأشجار، ويَبنون فيها من القصور وغيرها للمؤمنين، هذا دَأْبُهم، ورئيسهم رضوان؛ كما جاء في الحديث[(١)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٥٣٨، ٥٣٩)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٩٠)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الجَنَّةَ لَتُنَجَّدُ وَتُزَيَّنُ مِنَ الحَوْلِ إِلَى الحَوْلِ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، يُقَالُ لَهَا الْمُثِيرَةُ تُصَفِّقُ وَرَقَ أَشْجَارِ الْجِنَانِ، وَحَلَقَ المَصَارِيعِ يُسْمَعُ لِذَلِكَ طَنِينٌ لَمْ يَسْمَعِ السَّامِعُونَ أَحْسَنَ مِنْهُ، فَيَثِبْنَ الْحُورُ الْعِينُ حَتَّى يَشْرُفْنَ عَلَى شَرَفِ الجَنَّةِ، فَيُنَادِينَ: هَلْ مِنْ خَاطِبٍ إِلَى اللهِ فَيُزَوِّجَهُ، ثُمَّ يَقُلْنَ الْحُورُ الْعِينُ: يَا رَضْوَانَ الجَنَّةِ مَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ؟ فَيُجِيبُهُنَّ بِالتَّلْبِيَةِ ثُمَّ يَقُولُ: هَذِهِ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ عَلَى الصَّائِمِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا رَضْوَانُ، افْتَحْ أَبْوَابَ الْجِنَّانِ، وَيَا مَالِكُ أَغْلِقْ أَبْوَابَ الجَحِيمِ عَلَى الصَّائِمِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَيَا جِبْرِيلُ اهْبِطْ إِلَى الْأَرْضِ فاصْفِدْ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ، وَغُلَّهُمْ بِالْأَغْلَالِ، ثُمَّ اقْذِفْهُمْ فِي الْبِحَارِ حَتَّى لَا يُفْسِدُوا عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ حَبِيبِي صِيَامَهُمْ».

وَمِنْهُمُ المُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا-، وَهُمُ الزَّبَانِيَةُ، وَمُقَدَّمُوهُمْ تَسْعَةَ عَشَرَ، وَخَازِنُهَا مَالِكٌ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى الخَزَنَةِ، وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧]، وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]، وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١].

الشَّرح

ومِن هؤلاء الملائكة مَن هم موكلون بحراسة النار وإعداد العذاب فيها، ورئيسهم مالك -كما في الآية التي ساقها المصنف-، ومنهم الزَّبانية التسعة عشر المذكورون في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر:٣٠].

وقوله تعالى على لسان المعذَّبين يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ [غافر:٤٩]، قالوا للخزنة، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾، نادوا رئيس الخزنة، فهم يطلبون الموتَ؛ ليستريحوا بزعمهم، ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧]؛ أي: لا موت لكم، فهم مرَّة ينادون الخزنة، ومرَّة ينادون رئيسهم، وهو مالك، وأمَّا المذكورون في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر:٣٠]، فهؤلاء مقدَّمو الخزنة؛ ومقدَّمهم جميعًا هو مالك، ولمَّا سمع أبو جهل أن عدد الملائكة الذين على النار تسعة عشر،

قال لقريش: «أَفَيَعْجَزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطُشُوا بِرَجُلٍ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟»؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[(1)] [المدثر:٣١]، أي: ليسوا من البشر، فهم ملائكة، ولا يعلم مدى قوَّتهم وعظمتهم إلا الله تعالى، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ابتلاء لهم، ولذلك فهم سخروا من هذا العدد، وأما أهل الإيمان، فلا يصير عندهم تساؤل في هذا الأمر؛ لأن هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والملائكة لا يعلم عِظَم قوتهم وعددهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، فهؤلاء التسعة عشر لا يعلم قوَّتهم وبأسهم وشدَّتهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٤٣٦) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١](١)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ خَلَّوْا عَنْهُ»(٢).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ: وَرَاءَكَ، إِلَّا شَيْئًا يَأْذَنُ اللهُ فِيهِ فَيُصِيبُهُ»(٣).

وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [ق:١٧-١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

الشَّرْح

مِنَ الملائكة مَنْ هو موكَّل بحفظ بني آدم من الأخطار، يمشون معه، ويمنعونه من الوقوع فيها، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا نام، يحرسونه، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته بعبده، فإذا جاء أجلُه، خلَّى الله بينه وبين الأجل.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١٤- ١١٦)، وزاد المسير (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والدر المنثور للسيوطي (٤/ ٦١٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسير (٢/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٣٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٦٠٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٧٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٤٦٠)، وابن كثير (٤/ ٤٣٨).

كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من أنه: «إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ خَلَّوْا عَنْهُ»؛ وذلك لأنه انتهت مهمَّتهم، فهم كانوا يحفظونه حينما كان على قَيد الحياة، ولكن إذا حان وقت دُنوِّ أجلِه وانتهاء حياته، فإنه تنتهي مهمَّتهم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَقَالَ مُجاهِدٌ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ: وَرَاءَكَ، إِلَّا شَيْئًا يَأْذَنُ اللهُ فِيهِ، فَيُصِيبُهُ»**)، وهؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان من الجِنِّ والهوامِّ والدوابِّ والسِّباع والأخطار، إلَّا ما قدَّره الله تعالى للعبد ممَّا يُصيبه، فإنه يُصيبه بتقدير الله تعالى له وبأمره.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَمِنْهُمُ المُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق:١٧-١٨]، **وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾** [الانفطار:١٠-١٢])، ومن هؤلاء الملائكة: الحَفَظة؛ كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، فهؤلاء هم الحَفَظَة، يحفظون أعمالَ بني آدم، وما مِنْ أحدٍ من الناس إلَّا ومَلَك عن يمينه ومَلَك عن شماله، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٧-١٨]، هؤلاء هم الحفظة الذين يحفظون الأعمال، ويكتبونها، وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ [الزخرف:٨٠].

قوله تعالى: ﴿**وَرُسُلُنَا**﴾؛ أي: الحَفَظَة.

[وُجُوبُ الاسْتِحْيَاءِ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّعَرِّي]

٧٠- رَوَى الْبَزَّارُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ لَا يُفَارِقُونَكُمْ، إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثِ حَالَاتٍ: الْغَائِطِ، وَالْجَنَابَةِ، وَالْغُسْلِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ، فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ، أَوْ بِجَذْمَةِ حَائِطٍ، أَوْ بِبَعِيرِهِ»[(١)].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: (وَمَعْنَى إِكْرَامِهِمْ: أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْهُمْ؛ فَلَا يُمْلِي عَلَيْهِمُ الْأَعْمَالَ الْقَبِيحَةَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ كِرَامًا فِي خُلُقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ. ثُمَّ قَالَ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ مِنْ كَرَمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا جُنُبٌ وَلَا تِمْثَالٌ، وَلَا يَصْحَبُونَ رِفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَو جَرَسٌ)[(٢)].

الشَّرح

في هذا الحديث النَّهي عن التَّعرِّي، حتى وإن كان الإنسان خاليًا بنفسِه، ولا أحد يُشاهده، فإن الملائكة تشاهده، ولهذا ينبغي الاستحياء منهم؛ كما ينبغي الاستتار منهم بجدار أو بثوب ونحوه، إن أراد الاغتسال، ولا بأس والحالة هذه من أن يتعرَّى، لكن يكون ذلك من وراء ساتر، وليس في الفضاء دون ستر.

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١/ ١٦٠ رقم ٣١٧)، وقال: فيه حفص بن سليمان لين الحديث. وروى نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٨) عن مجاهد.
(٢) انظر: البداية والنهاية (١/ ٥١).

وأمَّا ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **من أنهم: (لَا يَدْخُلُونَ بَيتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا جُنُبٌ وَلَا تِمْثَالٌ، وَلَا يَصْحَبُونَ رِفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَو جَرَسٌ)**، وذلك لأنهم يكرهون هذه الأشياء، فيبتعدون عن البيت الذي فيه كلب أو صورة، وقد ابتُلي الناس الآن باقتناء الكلاب؛ لأنهم رأوا الكفَّار يقتنون الكلاب، فتشبَّهوا بهم، حتى أدخلوها في السيارات معهم، وهذه الكلاب إذا كانت في البيت، فإنها تمنع دخول الملائكة، وكما ابتُلوا بتعليق الصور في بيوتهم، وهي كذلك تمنع دخول ملائكة الرَّحمة عليهم.

[تَعاقُبُ الْمَلائِكَةِ فِينَا بِاللَّيلِ وَالنَّهارِ]

٧١- وَرَوَى مَالِكٌ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ-: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]»(٢).

الشَّرح

وما زال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يسوق الأحاديث الواردة في أعمال الملائكة -عليهم الصلاة والسَّلام-، فمِن أعمال الملائكة حفظ أعمال بني آدم؛ لأن الله يرسلهم إلى البشر في الأرض، يكتبون ما يصدر من بني آدم من خيرٍ أو شرّ؛ من أعمال صالحة أو أعمال سيِّئة، أو أقوال، فهم يرصدون، ويكتبون كل ما يصدر من أقوالٍ وأفعال؛ قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وهؤلاء يقال لهم: الحَفظَة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم (٢١٠) (٦٣٢)، وأحمد في المسند (١٣/ ٤٧٧)، ومالك في الموطأ (٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨، ٤٧١٧)، ومسلم (٢٤٦) (٦٤٩).

﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، فالإنسان ليس مهملًا، وإنما هو تحت مراقبة من الله وملائكته، وأن أعماله وأقواله لا تضيع ولا تذهب سُدى؛ قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، فالإنسان ليس بمُهمَل، وإن أهمل نفسَه، ولهذا فإنه ينبغي له أن يستحضر هذا، ويستحضر كلَّ ما يصدر عنه، ويُدرك بأنه سيُسجَّل وسيُحاسب عليه، فحينئذٍ سيكون له تخوُّف وتوقُّف عن كثير من الأقوال والأفعال.

وهذا الصنف من الملائكة الذين جاء ذكرهم في الحديث ينزلون من السماء إلى الأرض، حيث يسكن بنو آدم، وهم على قسمين: حفظة في النهار، وحفظة في الليل، فحفظة النهار ينزلون في صلاة الفجر، ويبقون مع الإنسان إلى وقت صلاة العصر، ثم ينزل ملائكة الليل، ويحضرون صلاة العصر، ويستمرون إلى صلاة الفجر، فهذا معنى قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»؛ حيث لا تمضي فترة من الوقت تخلو من هؤلاء الحَفَظَة، فتجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار في صلاة الفجر، ويحضرونها؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]؛ يعني: صلاة الفجر، فقوله تعالى: ﴿مَشْهُودًا﴾؛ أي: محضورًا تحضره الملائكة.

وقد سمَّى الله صلاة الفجر قرآنًا؛ لأنها تُطوَّل فيها القراءة، فمِن هنا يُستحب للإمام أن يُطيل القراءة في صلاة الفجر إطالةً لا تَشُقُّ على المأمومين؛ لأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، وكذلك في صلاة العصر تجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار، هؤلاء يصعدون، وهؤلاء ينزلون،

ويحضرون صلاة العصر؛ ولهذا صار لصلاتَي الفجر والعصر مِيزةٌ على غيرهما من الصلوات.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ يعني: صلِّ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، المراد: هو ذكر فضيلة هاتين الصلاتين: صلاة الفجر، وصلاة العصر.

وقوله ﷺ: «**ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ**»، هذا فيه دليل على إثبات العلو لله تعالى، فيصعد الملائكة الذين انتهت مهمَّتهم إلى الله تعالى.

وقوله ﷺ: «**فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ**»؛ أي: يسألهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سؤال تقرير وشهادة -وإلَّا فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم حالهم، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم-: «كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟»، يسأل سبحانه الذين صعدوا إليه: «كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟»، فهذا سؤال تقرير واستشهاد للملائكة على أعمال بني آدم.

وقوله ﷺ: «**فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»؛ صلاة العصر، «**وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»؛ صلاة الفجر، أو العكس، «**وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»؛ أي: صلاة العصر، «**تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»؛ أي: صلاة الفجر، فهذه شهادة من الملائكة للمسلمين عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم في حال طاعةٍ؛ لتكون شهادتهم لهم بأحسن الشهادة، هم الملائكة الحَفظَة، وهذا عملُهم، وهذه أوقات نزولهم وصعودهم.

[المَلائكةُ تَحفُّ مَجالِسَ العِلْمِ]

٧٢- وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ حَدِيثَ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

الشَّرْح

وهذا الحديث -أيضًا- في بيان صنفٍ من الملائكة، وهم الملائكة الذين يتجوَّلون، يطلبون حِلَق الذِّكر، فمِن الملائكة مَن مُهمَّتُهم حضور دروس العلم وحِلَق الذِّكر، فهذا فيه فضل طلبِ العلم والحثُّ عليه؛ لأنَّ الملائكة تعتني بهذا، وتبحث عنه، وتأتي إليه.

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ»؛ يعني: من المساجد، وهذا فيه أنَّ تعليم العلم ينبغي أن يكون في المساجد؛ لأنه تحضره

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨)(٢٦٩٩)، وأحمد (١٢/ ٣٩٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

الملائكة، وكذا يحضره طلاب العلم والعوامّ، فيستفيدون من هذه الدروس، فهو بيت السَّكينة والرحمة، وهو مأوى الملائكة، بخلاف ما إذا أُقيم الدرس في غير المسجد، فإنه تَقِلُّ أهميته، ويفقد هذه الصِّفة، ويصبح مقصورًا على الحاضرين من الطلاب فقط، فينبغي أن يُعلن العلم، ولا يُخزَّن، ومحلُّ إعلانه يكون في المساجد، ولا يكون في المخيمات أو في محلات يجتمع فيها الطلاب والمشايخ، ولا يحضره غيرهم، فمثل هذا تَقِلُّ أهميته وفائدته، ويفقد هذه الميزة العظيمة، وهي حضور الملائكة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ**»؛ أي: القرآن الكريم، ويدخل فيه السُّنة؛ لأن السُّنة من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فيقرؤون كتاب الله، ويتفقهون فيه، ويتدارسونه فيما بينهم، فيُعلِّم بعضهم بعضًا، فهذا فيه فضل حِلَق وتحفيظ القرآن في المساجد، وهذه ظاهرة عظيمة عند المسلمين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**»، فإن مِن تدارس القرآن، تدارس معانيه وقرأ التفسير، فيقرؤون القرآن، ويتأمَّلون معانيه، ويتدبَّرونه؛ لأنه ليس المقصود قراءة القرآن أو حفظه فقط -مع أهمية ذلك-، لكن هذا لايكفي؛ إذ لا بدَّ من تدارس معانيه وفَهْم ما أراده الله جَلَّ وَعَلَا به والاهتداء بهَدْيه، وأمَّا مجرَّد الحفظ له دون تدبُّر معانيه وفهمها، فهو عمل ناقص.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ**»، والسَّكينة شيء يجعله الله في القلوب، وهي الطمأنينة وذهاب الوساوس والانشغال القلبي، وهذا خاصٌّ بالمساجد، فالطمأنينة إنما تكون في المساجد التي هي بيوت الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ»؛ أي: غطَّتهم رحمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه فائدة ثانية من فوائد الاجتماع في بيوت الله عَزَّ وَجَلَّ لأجل طلب العلم الشرعي.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ»، وهذا هو محلُّ الشاهد؛ حيث إن الملائكة تحيط بهؤلاء المجتمعين في بيوت الله جَلَّ وَعَلَا، وتتحلَّق معهم، فما أعظم أن تُحيط ملائكة الرحمن، وتجلس في حِلَق الذِّكر بعدما ينزلون من السماء، ويبحثون في الأرض، فإذا وجدوا حِلَق الذِّكر، قالوا: هلمُّوا إلى بُغيتكم، فيجيؤون، فيَحفُّون بهم إلى السماء الدُّنيا؛ كما جاء في الحديث(١)، وأمَّا أولئك الذين يلهون ويلعبون ويُغنُّون، فهؤلاء تَحضُرهم الشياطين، وتُشجِّعهم على هذا الشيء، وأمَّا الذين يُقبلون على كتاب الله تعالى وعلى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٥) (٢٦٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا، أَيْ رَبِّ قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

سُنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحفظ والدِّراسة والتفقُّه، فهؤلاء تَحضُرهُم ملائكةَ الرَّحمن.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»، هذه أعظم فائدة ذُكرت في هذا الحديث؛ حيث إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُثني عليهم في الملأ الأعلى عند الملائكة، فهذه فضائل اجتمعت في حِلَق الذِّكر، وهي:

أولًا: نزول السكينة.

ثانيًا: غشيان الرحمة.

ثالثًا: حضور الملائكة.

رابعًا -وهي أعظم الفوائد-: حيث إنه سبحانه يذكرهم في الملأ الأعلى، فقوله: «**وَذَكَرَهُمُ اللهُ**»؛ أي: أثنى عليهم ومَدَحهم «**فِيمَنْ عِنْدَهُ**»؛ يعني: من الملائكة المقرَّبين عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا لمجالس الذِّكر والعلم.

ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»، فالله جَلَّ وَعَلَا لا ينظر إلى الأنساب، وإنما ينظر إلى العمل، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فالأنساب إنما هي من شأن الدُّنيا بين الناس؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات:١٣]، فلا مانع من تعلُّم الأنساب ومعرفتها، ولكن دون الافتخار بها والاقتصار عليها، فهي لا تكفي عند الله تعالى، ولا وزن لها يوم القيامة، وإنما المقصود منها في الدُّنيا التعارفُ والتواصل بين الأقارب والأرحام والتعاون على البرِّ والتقوى، ولكن لا ينفع عند البارئ عَزَّ وَجَلَّ إلا العمل.

فقوله: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ»؛ يعني: تأخَّر عملُه، «لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»، فانظر إلى أبي لهب، وهو عمُّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومِنْ صميم بني هاشم، ولكن لمَّا لم يكن عنده عمل صالح، لم ينفعه ذلك، وأنزل الله فيه قرآنًا يُتلى في ذمِّه إلى يوم القيامة، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]؛ أي: خاب وخسر، وهو عمُّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله نسب شريف رفيع، ولكنه لم ينفعه، ولا ضرَّ بلالًا وسلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنهم ليسوا قَبليِّين، وليسوا من العرب، وأنهم أعاجم، فالأول من الحبشة، والآخر من بلاد فارس، لكن الله جَلَّ وَعَلَا رفعهم بالعمل الصالح، ولا ضرَّهم أنهم ليس لهم نسب عربي وشريف؛ ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ»**؛ أي: لم يقدِّمه «نَسَبُهُ».

[الْمَلَائِكَةُ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ]

٧٤- وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ حَدِيثُ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَفْعَلُ»(١).

وَالْأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

الشَّرْح

وهذا كالحديث الذي قبله، فيه أنَّ الملائكة توقِّر وتحترم طالبَ العلمِ، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا**»؛ احترامًا لطالب العلم، وهذا يدلُّ على شرف طلب العلم الشرعي، فينبغي للناس احترام طالب العلم كما تحترمه ملائكة الرَّحمن، وتتواضع له، ولكن كثيرًا من الناس -مع الأسف- يتنقَّصون طلبة العلم والعلماء، ويُحطُّون من قَدْرهم، ويصفونهم بالتغفيل وعدم فقه الواقع، وأنه ليس لهم هَمٌّ إلا دراسة الحيض والنِّفاس، فيسخرون منهم ومِن الأحكام الشرعية، وهذا دَيْدَنُ بعض الناس مع طلبة العلم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، والنسائي في الكبرى (١٣١) وفي المجتبى له (١٥٨)، وأحمد في المسند (٣٠/ ٩، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٣)، والدارمي (٣٦٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٢٠٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٨٤)، والطيالسي (٢/ ٤٨٤)، والطبراني في الكبير (٨/ ٥٤، ٥٨)، وفي الأوسط (٩/ ١٥٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٨٠)، والبيهقي في الكبرى (١/ ١٨٥) من حديث صفوان بن عسال المرادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٣٦/ ٤٥)، والدارمي (٣٥٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢٤) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والعلماء، وهو الاحتقارُ والازدراء من العلماء، بل يتجاوزون إلى احتقار أحكام العلم، فيسمُّونها الحيض والنِّفاس -ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله-، فمثل هذا ونحوه إنما هو ردَّة عن دين الإسلام، فكل مَن يحتقر العلم الذي أنزله الله إنما هو مرتدٌّ عند دين الله، فالأمر جدٌّ خطير، فليس الأمر مجرّد كلام وانتهى، وإنما هذا الكلام ونحوه يرجع على قائله بالخسارة، ولا يَضرُّ طلبة العلم والعلماء، بل يزيدهم رفعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والقصد من هذا: أنه ينبغي احترام طالب العلم؛ لأن الملائكة تحترمه، فتضع أجنحتها له، وهذا فيه وصف الملائكة بأنَّ لهم أجنحة، وهذا قد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر:١]، لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، فلقد أعطاهم الله القدرة على الطيران والنزول والصعود.

وأما قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَالْأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِهِمْ** عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ **كَثِيرَةٌ جِدًّا**)، فقد أفاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إيراد الأحاديث الواردة في ذكر الملائكة؛ لأن الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان السِّتة، فيجب معرفة هؤلاء الملائكة، والإيمان بهم إيمانًا مفصَّلًا، ولا يكفي الإيمان بهم إجمالًا، ولذلك أفاض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إيراد الأحاديث المتضمنة لصفة الملائكة وأعمالهم وأصنافهم؛ من أجل اعتقاد ما جاء في الأحاديث التي اشتملت على كل هذه التفاصيل.

وهذا بخلاف قول الفلاسفة القائلين بأن الملائكة عبارة عن الهواجس الكامنة في النفس البشرية، فإن كانت هذه الهواجس تعبِّر عن الخير، فهي

الملائكة، وإن كانت هواجس شرّ، فهي الشياطين، فليس في فكرهم أن الملائكة والشياطين مخلوقون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، وإنما يفسِّرون الملائكة بقوى الخير الكامنة في الإنسان، والشياطين بقوى الشرِّ، هذا مذهب الفلاسفة ورأيهم في الملائكة.

وأمَّا مشركو العرب، فإنهم يقولون بأنَّ الملائكة إنما هم بنات الله! وأنه سبحانه تزوَّج من الجنِّ -تعالى الله عمَّا يقولون-، فولدت له البنات وهم الملائكة؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء:٤٠]، وقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:٥٧]؛ يعني: لهم الذُّكور، وقال: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات:١٥٣-١٥٧]، فهم يصفون الملائكة بأنهم بنات، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٧-٥٩]، فهؤلاء يكرهون البنات، فمنهم مَنْ يُبقيها على ذلَّة واحتقار، ويظلمها، ومنهم مَنْ يدفنها حيَّة، وهي الموؤودة، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾؛ يعني: يبقيها حيَّة مُهانةً، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل:٥٩]؛ يعني: يدفنها وهي حيَّة، ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، إلى

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ [النحل:٦٠-٦٢]، فهؤلاء لا يرضون البنات لأنفسهم، ويترفَّعون عنها، وينسبونها لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا تَنَقُّص له عَزَّوَجَلَّ، والشاهد من هذا كله هو قول بعض مشركي العرب في الملائكة بأنهم بنات الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا!

وهناك صنف آخر من مشركي العرب يعبدون الملائكة، ويدعونهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ويَغْلُون فيهم؛ قال تعالى في وصف هؤلاء وعاقبة أمرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، فعبادتهم ليست عبادة للملائكة، وإنما هي عبادة للشياطين؛ لأن الشياطين هم الذين أمروهم بذلك، أمروهم أن يعبدوا الملائكة، والملائكة تتبرأ منهم، وإنما يعبدون الشياطين، ولهذا قال تعالى على لسانهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.

٦- بَابُ الْوَصِيَّةِ بِكِتَابِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣].

• الشَّرْح •

في هذا الحثُّ على التمسُّك بكتاب الله جَلَّوَعَلَا. يقال: أوصى بكذا؛ أي: أمر وأكَّد بالشيء[١]، والله تعالى أوصى بالتمسُّك بكتاب الله تعالى؛ لأنه لا نجاة من الضَّلال في الدُّنيا ومن النار في الآخرة إلا بالتمسُّك بكتاب الله جَلَّوَعَلَا، واتِّباع الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فمَن لم يتمسَّك بهما، فإنه يكون ضالًّا في الدنيا على غير هدًى، ويكون في الآخرة من الخاسرين، ومن أهل النار، فلا نجاة إلَّا بالتمسُّك بكتاب الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، هذه وصية الله تعالى بالقرآن والسُّنة.

والآية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ جاءت في سياق أول سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١-٣].

---

(١) انظر: العين (٧/ ١٧٧)، والصحاح (٦/ ٢٥٢٥)، ومقاييس اللغة (٦/ ١١٦).

فقوله: ﴿ ٱتَّبِعُواْ ﴾، هذا أمرٌ من الله جَلَّوَعَلَا، ﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾، وهما القرآن والسُّنة؛ لأن السُّنة منزلة من الله تعالى؛ ولهذا قال سبحانه بحقِّ نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤]، ثم لما أمر باتِّباع المنزَّل، نهى عن اتِّباع غيره، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾؛ يعني: لا تتبعوا غيرَه من الأكابر والرُّؤساء والرِّجال الذين تزعمون أنهم علماؤكم وأولياؤكم، فتطيعونهم وترفضون ما جاء به الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ وهذا من اتِّخاذ الأولياء، فمَن أطاع مخلوقًا في معصية الله، فقد اتَّخذه وليًّا من دون الله، فلا يُطاع العلماء ولاأحدٌ من الناس، إلَّا إذا أطاع الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ووافق كتاب الله وسُنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أمَّا مَنْ خالف، فإنه لا يُعتبر، سواء كانت مخالفته عن تعمُّد وعناد، أو كانت عن اجتهاد وأخطأ فيه، فلا يجوز تقليد الناس تقليدًا أعمى من غير بصيرة، وإنما يجوز تقليد مَنْ تمسَّك بالكتاب والسُّنة وأصاب الحقَّ، وأمَّا مَنْ خالف، فإنه لا يُعتبر، حتى ولو كان مجتهدًا، وأخطأ في اجتهاده، وهذه قاعدة ينبغي أن يعرفها طالب العلم؛ إذ إن هناك مَن يتعصَّبون لمذاهبهم ومشائخهم ولرؤسائهم وقادتهم دون رجوع إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والحق في ذلك هو أن تُوزَن كلُّ الأمور بميزان الكتاب والسُّنة، فما وافقهما، وجب الأخذُ به، وما خالفهما، وجب رفضُه وعدمُ الالتفاتِ إليه، ولايُعتبر هذا إهانةً للعالم، إذا ما تُجنِّب خطؤه، بل إن العلماء أنفسَهم يقولون: إذا وافَق قولُنا قولَ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فخُذوه، وإذا خالفه، فاضربوا بقولنا عرْض الحائط، كذا قال

الإمام الشافعي، ومثله الإمام مالك، وأحمد، ومن قبلهم الإمام أبو حنيفة -رحمهم الله جميعًا-، فكلُّهم حَذَّرونا مِنْ أَخْذِ أقوالهم كقضيَّة مسلَّمة[١]، بل وينبغي أن تُعرض أقوالُهم على كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا وافقت، فبها ونِعْمَت، وإنْ خالفتْ، فإنَّنا نترحَّم عليهم، ونعتذر لهم، ولكن لا نأخذ خطأهم، ولا يُعتبر هذا تنقُّصًا لهم -حاشا وكلَّا!!

(١) انظر أقوال الأئمة في: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص٢٢)، والإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠)، وإعلام الموقعين (٢/ ٢٠١)، ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٣٣٩)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص٥٧).

[وُجُوبُ التَّمَسُّكِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

٧٥- عَنْ زَيدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ -فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ-، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي...»[١].

وَفِي لَفْظٍ: «كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ، كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ، كَانَ عَلَى الضَّلالَةِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

الشَّرح

هذا الحديث الذي رواه مسلم فيه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في موضع يُقال له: غدير خُمّ، والغدير: هو مجتمع السَّيل من الوادي[٣].

وخُم، قيل: اسم رجل نُسب إليه الغدير، وقيل: اسم غَيضة ملتفَّة بالأشجار نُسب إليها الغدير، وهو قريب من الجُحفة[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦) (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣٧) (٢٤٠٨).

(٣) انظر: العين (٤/ ٣٩٠)، والصحاح (٢/ ٧٦٦)، ومختار الصحاح (ص ٢٢٥).

(٤) انظر: معجم البلدان (٢/ ٣٨٩)، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (١/ ٤٨٢).

فلما رجع النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من حجَّة الوداع، ونزلوا على غدير خُمّ، خطبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الخطبة، فحمد الله وأثنى عليه.

فقوله: «**فَحِمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيهِ**» فيه أنَّ الخطبة تُبدأُ بحمد الله تعالى والثناء عليه، سواء كانت خطبة جمعة أو عيد أو استسقاء أو تعليم، فكل الخطب تُستفتح بحمد الله والثناء عليه؛ كما كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل، ويدخل في هذا خطبة الدروس والمناسبات الأخرى.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا بَعْدُ**»، هذه الجملة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، فهي كلمة فَصْل بين كلامين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**»، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني آدم، ليس مَلَكًا من الملائكة، وليس له من الرُّبوبية شيء، ولهذا جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]؛ أي: مخلوق مما يُخلق منه بنو آدم من أبٍ وأمّ، وهذا بخلاف قول أهل الضَّلال والانحراف الذين يقولون: (إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلوق من نور)، وبعضهم يقول: (إنه خُلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وهذا ونحوه من الأقوال المنحرفة إنما هو من الغُلوِّ المذموم؛ إذ كيف خُلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو من بني آدم؟! فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَر وإنسان من بني آدم؛ فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**» فيه إبطال الغُلوِّ في حقِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أن يقال: (إنه مخلوق من نور، أو قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وقد دلَّ هذا الحديث على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلوقٌ ممَّا خُلق منه بنو آدم والأنبياء قبله -عليهم الصلاة والسلام.

وفيه: أنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُدعى مِنْ دون الله، ولا يُستغاث به؛ لأنه بَشَر، وإنما الذي يُدعى ويُستغاث به هو الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ**»؛ أي: مَلَك الموتِ، وقد جاءه رسولُ ربِّه، ومات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَر، ومات كما يموت البشر، وفي هذا ردٌّ على الغُلاة الذين يقولون: (إن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمت، وإنه حيّ)، فإنه لو كان حيًّا، لما دُفِن في التراب، ولو كان حيًّا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذهب إليه أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عند اختلافهم ليفصل بينهم! لكن أهل الباطل لا ينظرون إلى ما تقتضيه العقولُ، فضلًا عمَّا تقتضيه أدلَّة الشَّرع، فهم يركبون رؤوسهم وأهواءهم، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَر، وهو ميِّت، وقد بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، وأكمل اللهُ به الدِّينَ، ثم بعد ذلك توفَّاه الله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومن شفقته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُمته أنه أوصاهم قبل موته، ولم يتركهم، وإنما أوصاهم بما يقودهم إلى الجنَّة، وهذا من نصحه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا وميِّتًا.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ**»، ثَقَلين: مثنى ثقل، والمراد: القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة، وسمِّي القرآن ثقلًا، وكذا السُّنة؛ لأنه يثقُل العمل بهما على أهل الكسل والخُمول، وقيل: سُمِّيا ثَقَلين لعِظَمهما وكبير شأنهما.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ»، وتدخل فيه السَّنة؛ فهي من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي الوحي الثاني، فالوصية بكتاب الله وصيَّةٌ بالسُّنة -أيضًا-؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، فالسُّنة من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي وحيٌّ أوحاه الله إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أثنى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كتاب الله، ورغَّب في العمل به؛ لأنه هو طريق الهداية، وهو النور المبين، وهو الرُّوح، وهو الحقُّ والصِّراط المستقيم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي»، فقد أوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهل بيته، وأهل بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هم قرابته وزوجاته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]، وفي خطاب أزواج النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾؛ يعني: البَثْنَ في بيوتكنَّ، ولا تُكْثِرنَ الخروجَ. فهذا فيه: أنَّ الأفضل للمرأة أن تبقى في بيتها، ولا تخرج إلَّا لما لابدَّ لها منه؛ لأنَّ الله أمر نساءَ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهنَّ أطهر نساءِ العالمين- بالبقاء في البيوت.

ودُعاةُ السُّفور والانحلال يقولون: (إن المرأة محجوبة ومسجونة بين الجدران)، لا يدرون أن هذا كرامة وحفظٌ لها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

﴿ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٣]، فدلَّ على أنَّ نساءَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل البيت، وكذلك قرابتُه، وهم بنو عمِّه من المؤمنين؛ بني العباس، وبني أبي طالب: علي وجعفر وعقيل، وأبناؤهم، والحسن والحسين ابني عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، هؤلاء هم أهل بيت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلُّ مَنْ تحرُم عليه الصدقة هم أهل بيت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أوصى بهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإحسان إليهم، ومحبتهم، ومعرفة قدرهم، وعدم تَنَقُّصِهِم؛ لأن الإحسان إليهم وتوقيرهم توقيرٌ للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنَّقص من قَدْرهم إنما هو تنقُّص للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيذاؤهم إيذاءٌ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ آذَى عَمِّي، فَقَدْ آذَانِي، فَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**»(١)، فلا شك أنَّ آل البيت الطيبين الصالحين لهم فضلٌ وشرف وكرامة من أجل رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا ردٌّ على طائفتين:

الطائفة الأولى: طائفة الرَّوافض(٢)، الذين غلَوا في حبِّ آل البيت،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨)، والنسائي (٨١١٠)، وأحمد (٢٩/ ٥٧)، من حديث عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: «أَنَّ العَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغْضَبًا وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**مَا أَغْضَبَكَ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا وَلِقُرَيْشٍ، إِذَا تَلَاقَوْا بَيْنَهُمْ تَلَاقَوْا بِوُجُوهٍ مُبْشَرَةٍ، وَإِذَا لَقُونَا لَقُونَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ للهِ وَلِرَسُولِهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي فَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**».

(٢) هي فرقة من فرق الشيعة الضالة، سموا (رافضة) لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، =

حتى اعتقدوا أنَّ خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ باطلة، وأنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أوْلى بالخلافة بعد النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا فهم يُسمُّون عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالوَصِيِّ؛ أي: وصيّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا غُلوٌّ في أهل البيت وإهدار لفضل أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وإبطال لخلافتهم، وأنهم ظَلَمة مغتصبون للخلافة -بزعمهم-، بل يقولون: (هم كَفَرة)، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بهم -رضي الله تعالى عنهم-.

وقد زاد الأمر في حبِّهم لآل البيت بزعمهم أنهم عبدوهم من دون الله، فلم يقتصر الأمر على اعتقاد أن الخلافة لهم بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما زاد الأمر إلى أن عبدوهم مِنْ دون الله، وبَنَوا على قبورهم المشاهد، وسمَّوها المقدَّسات، وهم يَحجُّون إليها الآن، هؤلاء هم الرافضة الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت، وخرجوا عن الحقِّ إلى الكفر والشِّرك والضَّلال.

الطائفة الثانية: هي طائفة النَّواصب(١)، الذين يُبغضون آل البيت، ويتنقصُّونهم، ويَحطُّون من قَدْرهم، فهم على طَرَفي نقيض مع الرَّوافض،

=ويقال: سموا بالروافض؛ لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خرج على هشام بن عبدالملك، فطعن عسكره على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمنعهم من ذلك فرفضوه، فقال لهم زيد بن علي: رفضتموني؟ قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم. وهم يدعون الإمامية لقولهم بالنص على إمامة على ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦ وما بعدها)، والفرق بين الفرق (ص١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٥٢).

(١) النواصب عند أهل السنة: هم المتدينون بِبُغض علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنهم نصبوا له، أي: عادوه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة:(ويحبون أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...، =

فأولئك يَغلُون، وهؤلاء يُفرِّطون في حقِّ أهل البيت، ويتنقَّصون من قَدْرهم، ويذمُّونهم.

وأما أهل السُّنة والجماعة، فهم توسَّطوا في أهل البيت؛ فعرفوا قَدْرَهم، وأَحبُّوهم، وأكرموهم، واحترموهم، وحفظوا فيهم وصيَّة رسول الله ﷺ -خلافًا للنواصب-، لكنهم لم يَغلُوا فيهم مثل غُلُوِّ الرَّوافض، ولم يَهينوهم ويُفرِّطوا في حقِّهم كتفريط النَّواصب الذين ناصبوا العَداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ، وقد أوصى بهم الرسول ﷺ، لهذا يجب العمل بوصيَّته ﷺ، فمَن أهدر حقَّهم، وتَنقَّصهم، فقد خالف وصيَّته ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَفِي لَفْظٍ: «كِتَاب اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلالَةِ»)**، هذا تفسير لقول الله تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟** ﴾ [آل عمران:١٠٣]، فقد فسَّر الحديث أنَّ المراد بـ﴿ **بِحَبْلِ ٱللَّهِ** ﴾ هو القرآن، وأنَّ مَنِ اعتصم به، فإنه يَهتدي

=ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة). انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤).

فالنواصب هم الذين عادوا أهل البيت، لاسيما عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمنهم من يسبُّه، ومنهم من يفسِّقه، ومنهم من يكفره؛ كما أشار لذلك شيخ الإسلام. انظر: منهاج السنة (٧/ ٣٣٩).

قال العلامة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (النواصب هم الذين ينصبون العداء لآل البيت، ويقدحون فيهم، ويسبونهم، فهم على النقيض من الروافض). انظر: شرح الواسطية (٢/ ٢٨٣). النواصب عند الشيعة: هي صفة لكل مسلم سني.

ويُفلح، ويَسعد في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾؛ يعني: القرآن، ﴿فَنَسِيتَهَا﴾؛ يعني: لم تعمل بها، وليس معنى النسيان أنه نَسِيَ حفظها، وإنما نَسِيَ العملَ بها، ولو كان يقرؤها ويحفظها، ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [طه:١٢٦-١٢٧]، فالإنسان لو عمل بالقرآن، وإن لم يكن يَحفظهُ، فهو من أهل القرآن ومن المتمسِّكين به، فليست المسألة مسألة حفظه وحسب، وإنما المسألة هي مَدَى التمسُّك بالقرآن والعمل له، ولكن يُقال: إنَّ حِفظَ القرآنِ إنما هو وسيلة إلى العمل به للوصول إلى الهُدى والابتعاد عن الضَّلالة؛ لأن فيه النَّجاة في الدُّنيا والآخرة؛ كما بيَّن ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[مِنَ الضَّلَالِ تَرْكُ الْكِتَابِ وَسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

٧٦- وَلَهُ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطَّوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَةِ يَوم عَرَفَةَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ -إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ-؛ كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[(١)].

الشَّرح

هذا الحديث جاء في سياق خطبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم عرفة في حجَّة الوداع، وأنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فخطب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل صلاة الظُّهر في وادي عُرنَةَ، وكان من جملة ما أوصى به كتاب الله، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ**»، وهو القرآن والسُّنة التي هي من كتاب الله؛ لأنها وحيٌّ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمَن تمسَّك بما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القرآن والسُّنة، فإنه لن يَضِلَّ في الدُّنيا، ولن يشقى في الآخرة؛ لأنه مشى على الطريق الصحيح، وهو الصِّراط المستقيم والحَبْل المتين، وحالُنا في هذه الدنيا في لُجَّةٍ وَغَرقٍ مليء بالضلالات والأهواء والشهوات، وليس لنا نجاة إلا من خلال هذا الحَبْل، فمَن تمسَّك به وعضَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧) (١٢١٨).

عليه بالنَّواجذ، نَجا من هذه الأخطار والضَّلالات، ومَن أطلق هذا الحَبْل، هلك وغرق في هذه اللُّجج والبحار.

ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما أوصى بكتاب الله في حجَّة الوداع التي وادَعَ فيها الناس، توفِّي بعدها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه الخطبة التي خطبها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي آخر خطبة خطبها مع خطبة غدير خُمّ، وقد تشابَهت الخطبتان، ففي كلتا الخطبتين أوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتمسُّك بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا، والسِّرُّ في تكرار هذه الوصية -والله أعلم- أنه شعر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقُرب أجله، فكرَّر الإيصاءَ بالتمسُّك بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا من شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُمَّته ونُصحه لها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**»، هذا كما في قوله تعالى: ﴿**فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف:٦]، فالله جَلَّ وَعَلَا يسألُ الأُمَمَ يوم القيامة: هل بلَّغتكُم رُسلكم؟ فأهلُ الإيمان يقولون: نعم، بلَّغتنا، وأما أهلُ الكفر فيقولون: ﴿**مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ**﴾ [المائدة:١٩]، فهم يجحدون، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَني**»؛ يعني: تسألون: هل بلَّغتكم؟ ولهذا فقد أجابه الصحابة -رضوان الله عليهم- «**قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ**»، وفي قوله: (**فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ**» فيه إثبات عُلوِّ الله جَلَّ وَعَلَا، فَرفْعُ أصبعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إشارة إلى ربِّه، ففي هذا إثبات واضح لعلوِّه جَلَّ وَعَلَا على خَلْقِهِ؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إليه في العُلوِّ، فهذا من أدلَّة عُلوِّ الله على خَلْقه.

وقوله: «**وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ**»؛ يعني: يُصوِّبها إلى الحاضرين؛ ثم قال: «**اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**)؛ يعني: أنِّي بلَّغتُهم، وأنَّهم أقرُّوا بالبلاغ، فاستشهد الله عليهم؛ لئلا يقول أحد: (إنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُبلِّغ).

[مَنْ تَرَكَ الْحُكْمَ بِكِتَابِ اللهِ قَصَمَهُ اللهُ]

٧٧- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ». فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ، قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ، أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢]، مَنْ قَالَ بِهِ، صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ، أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ، عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ، هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: غَرِيبٌ[(١)].

• الشَّرح •

هذا الحديث من جملة الأحاديث التي ساقها المؤلِّف رَحِمَهُٱللَّهُ في الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ سبقه أحاديث صحيحة في الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من جملتها، وهذا قد رواه الترمذي وغيره، ولكن الترمذي قال: (هذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٧٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، والبزار (٣/ ٧١، ٧٢)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٠) وفي مسند الشاميين (٣/ ٢٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٥٣). قال أبو عيسى: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال). اهـ.

حديث غريب، لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه، وإسناده مجهول)، وهذا الحديث من أقسام الآحاد على اعتبار أن الحديث في الأصل ينقسم إلى قسمين: حديث متواتر، وآخر آحاد.

والحديث المتواتر: ما يرويه جماعة عن جماعة، يتعذَّر تواطؤهم على الكذب من بداية السَّند إلى نهايته(١).

والحديث الآحاد: هو الذي لا يبلغ حدَّ التواتر، فلا يرويه جماعةٌ عن جماعة(٢)، وهو ثلاثة أقسام: المشهور، والعزيز، والغريب.

والمشهور: ما رواه ثلاثة، فأكثر إلا أنه لم يبلغ حدَّ التواتر(٣).

والعزيز: ما رواه اثنان(٤).

والغريب: ما تفرَّد به واحد(٥)، وحديث الباب من هذا القسم، فقد تفرَّد

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح (١/ ٢٦٧، ٣٧٢)، والتقريب والتيسير للنووي (ص ٨٥)، والمنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي (ص ٣١)، والتذكرة في علوم الحديث لابن الملقن (ص ١٧).

(٢) انظر: المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي (ص ٣٢)، والخلاصة في معرفة الحديث (ص ٣٢)، والديباج المُذَهَّب في مصطلح الحديث (ص ١٢)، ورسالة في أصول الحديث (ص ٦٧).

(٣) انظر: اختصار علوم الحديث لابن كثير (ص ١٦٥)، ونخبة الفكر (٤/ ٧٢١)، ونزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص ٤٩)، والتوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر (ص ٤٩).

(٤) انظر: مقدمة ابن الصلاح (١/ ٢٧٠، ٣٧٤)، والتقريب والتيسير للنووي (ص ٨٦)، والمنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي (ص ٥٦)، واختصار علوم الحديث لابن كثير (ص ١٦٧).

(٥) انظر: مقدمة ابن الصلاح (١/ ٢٧٠، ٣٧٤)، والتقريب والتيسير للنووي (ص ٨٦)، والمنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي (ص ٥٥)، واختصار علوم الحديث لابن كثير (ص ١٦٦).

به واحد، والحديث ضعيف -كما أشار إلى ذلك الترمذي-؛ لأنه من رواية الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والحارث الأعور متكلَّم فيه. ورَفْعُه إلى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خطأ، والصَّواب: أن يكون من كلام عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فيكون من الموقوف، ومعناه صحيح تؤيِّده الأدلة الأخرى.

قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ**»، هذا إخبار منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن وقوع الفتن، وقد بيَّن ذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة، ومن ذلك قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**»(١)، وفي مسلم وغيره: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»(٢)، فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**» صحيح، جاءت به الأحاديث الصحيحة.

والفِتن: جمع فتنة، وهي: الابتلاء والامتحان والاختبار؛ ليظهر الصادقُ الإيمانِ المتمسِّك بدينه من المنافق؛ لأنه عند الفتن يتميَّز ويظهر الصادق من المنافق(٣)؛ كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٥)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، من حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٦) (١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) قال الأزهري في تهذيب اللغة (١٤/ ٢١١): (جِمَاعُ مَعْنى الفِتْنَةِ فِي كَلَام الْعَرَب الابْتلاءُ والامْتِحَانُ، وَأَصلهَا مأخوذٌ من قَوْلك: فَتَنْتُ الفِضّةَ والذَّهَبَ إِذا أذبتهما بالنَّار ليتميز =

ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢-٣]؛ أي: ليعلم الذين صدقوا في إيمانهم والكاذبين دعوى الإيمان، فإن الكاذب والمنافق عند الفتن يتخلَّى الواحد منهم عن دينه، وأمَّا الصادق، فإنه يتمسَّك بدينه، ويصبر على ما يُصيبه، وهذه علامة الصِّدق، بخلاف المنافق الذي ينسلخ من دينه لأجل أن يسلم في دُنياه، فيبيع آخرته بدُنياه.

وقوله: «**فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟**»؛ يعني: ما طريق السلامة من هذه الفتن؟

قوله: «**كِتَابُ اللهِ**»؛ أي: القرآن، ويشمل هذا السُّنة النبوية الشريفة؛ لأنها مستمدة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**»(١)، فكتاب الله يشمل القرآن والسُّنة.

وقوله: «**فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ**»، فإن القرآن يحتوي أخبار الأمم الماضية، والنبأ: هو الخبر المهمّ، والمراد أنَّ القرآن فيه قصص الأنبياء والمرسلين، فهو يخبر عمَّا جرى ووقع في الماضي كأنه مشاهد؛ من أجل أن يكون الناس على بيِّنة، وليعلموا أنَّ هذا الابتلاء والامتحان الناتج عن الفتن ليس جديدًا، وإنما هو شيء جرى على الأمم السابقة، فمِنهم مَن هلك، ومِنهم مَنْ نجى.

وقوله: «**وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ**»؛ أي: القرآن، ويدخل في هذا السُّنة كذلك؛ إذ كلٌّ منهما يُخبر عن المستقبل، وما يُمكن أن يكون في آخر الزمان من الفتن،

=الرَّدِيء من الجيِّد). وانظر مادة (فتن) في: الصحاح (٦/ ٢١٧٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤١٠)، ولسان العرب (١٣/ ٣١٧).

(١) سيأتي تخريجه (ص٢٩٧).

وما يمكن أن يكون بعد الموت من أحوال أهل القبور، وما بعد ذلك من البعث والنشور، وما يكون من الأهوال في القيامة، كلُّ هذا تحدَّث عنه القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة حتى كأنه مشاهَد.

وقوله: «وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ»؛ أي: أنه في حال اختلافكم، فإن القرآن يحكم فيما فيه تختلفون، فيعطي صاحب الحقِّ حقَّه، ويُنصف المظلوم من الظالم، هذا في الخصومات، وأما في المقالات، فإنه يبيِّن المقالة الصحيحة من المقالةِ الخاطئة؛ لأنه إذا ما رُجع إلى القرآن، فإنه يفصل بين الناس في الخصومات والمقالات وفي كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، فالقرآن يحكم بين الناس، ولهذا أنزله الله، فلم ينزله سبحانه للتلاوة والتَّغنِّي به وتجويده وتحسين الأصوات بقراءته فقط أو للتلذُّذ بسماعه، فما أنزله من أجل هذا فقط، بل أنزله؛ ليكون حكمًا بين الناس فيما يمكن أن يختلفوا فيه، وليكون المرجع إليه.

وقوله: «وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ»، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، والهَزْل ضد الفَصْل، فهو يفصل بين الحقِّ والباطل، والهَزْل: هو اللعب، والقرآن الكريم منزَّهٌ عن أن تكون هذه صفته.

قوله: «مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ»؛ أي: أعرضَ عنه، ولم يلتفت إليه، فإن الله يَقصِمُه، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ

لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

وقوله: «وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ، أَضَلَّهُ اللهُ»، فمَن أراد الهدى من غير كتاب الله، فلن يصل إلى طريق الهُدى والصواب، فمَن يرجع إلى المنطق والجدل وعلم الكلام، ويستدل بهذه الأمور على أنها قواعد عقلية يقينية، وأن كتاب الله دلالته ظنيَّة؛ لأنه دليل سمعي، وليس عقليًّا، فمَن كانت هذه طريقته -وهي طريقة المبتدعة الذين يستدلون بالمنطق وعلم الجدل والكلام-، فلن يصل إلى الهدى والصواب، كيف لا وهم يؤوِّلون كلام الله حتى يتَّفق مع منطقهم؟! وهذه هي طريقة أهل الضلال.

وأمَّا أهل الحقِّ، فإنهم لا يَعْدِلونَ عن القرآن؛ لأنه هو دليلهم، ولا يعبؤون بقواعد المنطق وعلم الكلام، ولا يلتفتون إليها؛ لأنَّ الله أغناهم عنها، فأهل السُّنة والجماعة يستدلون بالقرآن في أبواب العقائد والمعاملات والأحكام وفي كل شيء، ولا يلتفتون إلى الجدل كأهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين يستدلون بقواعد المنطق، ويتركون أدلة القرآن بحُجَّة أنها ظنيِّة لا تَفيد العلم اليقيني، وأمَّا علم الجدل وقواعد المنطق، فهي أدلة عقلية تفيد اليقين عندهم!

وقوله: «وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ»، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وحبل الله: هو القرآن الذي أنزله الله لهداية الخلق، فمَن تمسَّك بهذا الحبل، نَجا، ومَنْ تركَه، هلك.

وقوله: «وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ»، هذا كما وصفه الله تعالى، فقد وصفه بالذِّكر، وبالقرآن، وبالفرقان، وغير ذلك من أسماء القرآن وأوصافه.

وقوله: «وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، والصِّراط: هو القرآن. فمَن سار على هُداه، رَشَد، ومَنِ ابتعد عنه، ضلَّ.

وقوله: «هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ»، فمَن كان هواه تابعًا للقرآن، فإنه لا يَزيغ؛ بمعنى: لا يَضلُّ ولا يشقى، ومَن كان هواه مخالفًا له، فإنه يزيغ، ويضيع، ويضلُّ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤]، وقال: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الزخرف:٣٦]؛ يعني: عن القرآن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧]، فهؤلاء الذين زاغت بهم الأهواء يحسبون أنهم على الصواب مستمرُّون على ما هم عليه من الضلال، فلا يحصل عندهم شك فيما هم عليه، ولا يظنون إلا أنهم على الحقِّ والصَّواب!

وقوله: «وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ»؛ أي: لا تُخطئ به، ولا تختلط، فهو كما قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]، يقرؤه العربي بوضوح وسهولة، حتى إنَّ الأعجميَّ الذي لا يعرف اللغة العربية إذا تلا القرآن، فإنه يقرؤه كما هو، لا يغيِّر منه حرفًا، وهو لا يعرف كلمة واحدة من كلمات اللغة العربية، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

وقوله: «وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ» في التفقُّه في معانيه وتدبُّره، فلا أحد يُحيط بما في القرآن من الأسرار والأحكام والحِكَم مهما تأمَّل وتدبَّر، فكلُّ عالم يأخذ منه بقَدْر ما يستطيع، فلا أحد استطاع أن يحيط بكل ما في القرآن الكريم من المعاني والأسرار التي فيه؛ لأنه بحر، ولكن كلٌّ يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفَهْم، ويبقى الكثير والكثير في هذا البحر الزاخر، المليء بالمعاني والأسرار المتنزَّلة من لَدُن حكيم عليم.

وقوله: «وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ»؛ لأنَّ من إعجاز القرآن الكريم وعجائبه أنه لو كرَّر قارئه قراءته، فإنه لا يسأم من قراءته، ولو سمعه السامع عدَّة مرات، لما ملَّ من سماعه، بخلاف الكلام الآخر الذي مصدره البشر، فإنه لو كرِّر، لَمَلَّ منه القارئ والسامع على السَّواء، بخلاف كلام الخالق، الذي كلَّما كُرِّر، زادت الرَّغبةُ فيه، والتلذُّذ بقراءته وسماعه، فإذا سمعه السامع، أو قرأه القارئ، فإنه يشعر وكأنه يقرؤه أو يسمعه لأوَّل مرة، وهذا من إعجاز كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، الذي أحكمَ نَظْمَهُ، وأتقنَ بيانَه.

وقوله: «وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ»، وهذا شبيهٌ بقوله: «وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ»، فعجائبه كثيرة من جوانبَ عديدة، فمنها ما يتعلَّق بالقصص، وفي الأخبار المستقبَلَة، ومنها ما يتعلَّق بالفقه الذي فيه، ومنها ما يتعلق بتراكيبه وألفاظه وأساليبه وبلاغته وفصاحته، فكلَّما استعرض القارئ قراءته، تَبدَّت له عجائبُهُ؛ في جمال لغته، وفي سَرْد قَصَصِه، وفي أساليب أوامره ونواهيه، وفي عَرْض أخباره، وغير ذلك كثير ممَّا هو كامنٌ بين دفَّتيه.

وقوله: «هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢]»، وفي هذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢]، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢]، والجنُّ خَلقٌ من خَلق الله من عالَم الغيب مكلَّفون ومأمورون ومنهيُّون مثل الإنسان، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث إلى الجنِّ والإنس، وقد وَفَدَ على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفدٌ من الجنِّ، وطلبوا منه موعدًا، فأعطاهم الموعدَ، فكلَّموه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلَّمهم، وقد أَثنتِ الجنُّ على هذا القرآن، وتعجَّبت منه، ودَعت قومها إلى الإيمان به، وهذا من عجائب هذا القرآن.

وقوله: «مَنْ قَالَ بِهِ، صَدَقَ»؛ أي: بالقرآن، فقد صَدق؛ لأن القرآن الكريم معصوم من الخطأ، فمَن اتَّبعه، وقال بما يدلُّ عليه، فإنه يصدق في قوله واجتهاده وحُكمه.

وقوله: «وَمَنْ عَمِلَ بِهِ، أُجِرَ»؛ أي: مَنِ امتثل بما جاء به القرآن الكريم من الطاعات والأعمال الصالحة، فإنَّ الله يُثيبه، ويكتب له الأجر العظيم.

وقوله: «وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَـدَلَ»؛ أي: مَنْ جعله مرجعًا للحكم في الخصومات بين الناس والمنازعات، فإنه يَعدل، فيُعطي صاحبَ الحقِّ حقَّه، ويَمنع الظالمَ عن ظُلمه، وهذا هو العَدْل، وهذا إنما يكون في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

وقوله: «وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ، هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، فمَن دعا إلى كتاب الله، فإنه يدعو إلى هدًى، وأمَّا مَن دعا إلى غيره، فإنه يدعو إلى ضلال، وماذا بعد الحقِّ إلا الضَّلال؟!

هذه هي أوصاف القرآن الكريم، وهي أوصاف صحيحة، وإن كان الحديث لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن معانيه صحيحة مؤيَّدة بالأدلة الثابتة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموافقة لما عليه الواقع قديمًا وحديثًا وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

٧٨- وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ، فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ، فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]». رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرَانِيُّ(١).

الشَّرح

وهذا كما في الحديث الصحيح: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»(٢)، وهذا الحديث كذلك، فيه: أَنَّ ما أحلَّه الله، فهو الحلال، وما حرَّمه، فهو الحرام، وما سكت عنه، فهو عفوٌ؛ لأنَّ الله لم يسكت عنه نسيانًا، وإنما سكت عنه؛ لأنه عفا عنه؛ رحمةً بعباده، فالواجب من الإنسان أن يَقبل من الله عافيتَه، ويُحِلّ الحلالَ، ويُحرِّم الحرامَ، وما سَكت عنه، فهو معفوٌّ عنه، فلا يسأل عنه، لأنَّ الحلالَ بيِّن، والحرامَ بيِّن، وفي الرجوع إلى كتاب الله وسُنة رسوله يتبيَّن منهما الحلال والحرام.

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١/ ٧٨ رقم ١٢٣)، والدار قطني (٣/ ٥٩)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٠٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢١). قال الحاكم: (حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). اهـ.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧١، ٧/ ٥٥): (إسناده حسن ورجاله موثقون). اهـ. وسكت عنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٠٧) (١٥٩٩) من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[الصِّرَاطُ هُوَ الإِسْلَامُ]

٧٩- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ، وَلَا تَعْوَجُّوا، وَفَوقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ! لَا تَفْتَحْهُ، إِنْ تَفْتَحْهُ، تَلِجْهُ». ثُمَّ فَسَّرَهُ، فَأَخْبَرَ: أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الإِسْلَامُ، وَأَنَّ الأَبْوَابَ المُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ المُرْخَاةَ حُدُودُ اللهِ، وَالدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ القُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ يَذْكُرُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ». رَوَاهُ رُزَيْنٌ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَحْوِهِ[1].

الشَّرْح

الصِّراط في اللغة: هو الطريق[2]، والمراد به هنا: الإسلام، ولهذا قال

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (١١١٦٩)، وأحمد في المسند (٢٩/ ١٨١، ١٨٢)، والمروزي في السنة (ص١١)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٨٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٨٠) من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه).
وأورده المنذري من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الترغيب والترهيب (٣/ ١٧١)، وقال: (ذكره رزين ولم أره في أصوله، إنما رواه أحمد والبزار مختصرًا بغير هذا اللفظ بإسناد حسن). اهـ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٠)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٢٣٢)، والصحاح (٢/ ٥٥٠)، ومقاييس اللغة (٦/ ١٠٥)، ولسان العرب (٣/ ٤٥٩).

تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالإسلام هو الطريق الموصل إلى الله تعالى، فمن أراد الوصول إلى مرضاة الله وجنَّته، لابُدَّ له من اتِّباع النهج الموصِل إليه، وهو الإسلام الذي هو صراط الله، ولكن من حكمة الله تعالى أن جعل على جَنبَتي هذا الطريق أبوابًا يمينًا وشمالًا، وعلى هذه الأبواب ستور مُرخاة، وهذه الأبواب إنما هي أبواب الفتن والشرور، فمَن فتحها ووَلج فيها، فقد خرج عن الطريق المستقيم، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فهناك صراط مستقيم، وهناك سُبلٌ كثيرة، وهي الأبواب التي على جنبتي هذا الصِّراط، فالواجب هو السَّير على الصِّراط، وعدم الالتفات إلى هذه الأبواب، ولاكَشْف السُّتور التي عليها، والسُّتور هنا هي الحدود التي جعلها الله لرَدْع مَن يريد أن يدخل في هذه الأبواب؛ ولهذا قال في تفسيره لهذا الحديث: «وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللهِ، وَالدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ القُرآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ يَذْكُرُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»، وكل ذلك واضح معناه.

[التَّحْذِيرُ مِنْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ]

٨٠- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «تَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:٧]، قَالَتْ: فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

الشَّرح

هذا حديث عظيم، فيه: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل الكتاب، وجعل منه آياتٍ محكَماتٍ وأُخر متشابهات، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧] أي: انحراف، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، على قراءة من يعطف قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وعلى قراءة أخرى في الوقوف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يكون ابتداء كلام، ومعنى الآية الكريمة واضح؛ حيث إن القرآن فيه آيات محكمات وآيات متشابهات، والمحكمات: هي التي لا يحتاج في تفسيرها إلى غيرها؛ لأنها واضحة في معانيها، وأمَّا المتشابهات: فهي الآيات التي يُحتاج في تفسيرها إلى إرجاعها إلى غيرها؛ مثل: المطلَق، والمجمَل، والمنسوخ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (١) (٢٦٦٥).

فهذه الأنواع ونحوها لا يُستدلَّ بها، حتى يُراجع القسم الآخر من الآيات المحكمة، فيُقيَّد المطلَق، ويُبيَّن المجمَل، ويُنسخ المنسوخ، ويُعمل بالناسخ، وهذه طريقة الراسخين في العلم؛ أنهم يردُّون المتشابه إلى المُحكَم، ويجمعون بين الآيات والأحاديث بعضها من بعض؛ لأن كلام الله يُفسِّر بعضُه بعضًا، وكذلك كلام الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفسِّر بعضُه بعضًا.

وأما أهل الزيغ، فعلى العكس؛ فيأخذون المتشابه، ويتركون المُحكم ولايستدلُّون به(١).

فبالنظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣]، فإنها تدلُّ على أنَّ القاتل كافر خارج من الملَّة، وخالدٌ في النار، ولكن بردِّها إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات:٩]، فإنها تفسِّرها، وتدلُّ على أن القتل ليس بكفر أكبر، ولكنه كفر أصغر؛ بدليل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(٢)، فقَتْل المؤمن متعمِّدًا كفرٌ، ولكنه كفرٌ أصغر، وليس بكفرٍ مخرجٍ من الملَّة، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:١٠]، فالخطاب في هذا إلى المؤمنين بأن يُصلحوا بين

---

(١) انظر في معنى المحكم والمتشابه: تفسير الطبري (٥/ ١٩٢- ٢٠١)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٧٦- ٣٧٧)، وزاد المسير (١/ ٢٥٨- ٢٦٠)، والقرطبي (٤/ ٩- ١١)، وابن كثير (٢/ ٦- ٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (١١٨) (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إخوتهم من المؤمنين، فدلَّ على أنَّ القاتل لا يكفر، وإنما هو فاعل لكبيرة من كبائر الذُّنوب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]، فلو أخذنا بهذه الآية، لقلنا: إنَّ عدَّة الوفاة سنة؛ لأن هذا صريحُ الآية، ولكن بإرجاعها إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، فتكون هذه الآية ناسخة للآية الأخرى، فنُسخت العِدَّة من سنة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

فالمنسوخ لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ.

وأمَّا أهل الزَّيغ، فيأخذون بالمنسوخ بحجَّة أنها آية من كتاب الله، وأنه لا مانع من الاستدلال بكتاب الله! فأهل الزيغ يأخذون طرفًا من الأدلَّة، ويتركون الطرف الآخر.

والخوارج -وهم من أهل الزَّيغ- قد أخذوا آيات الوعيد، وكفَّروا المسلمين، وتركوا آيات الوعد، ولو جمعوا بينهما -كما فعل أهل السُّنة-، لاهتدوا.

والمُرجئة[١] على العكس؛ فقد أخذوا آيات الوعد والرَّجاء، وتركوا آيات الوعيد، فضلُّوا؛ فالخوارج ضلُّوا؛ لأنهم أخذوا بطرف، وهؤلاء ضلُّوا؛ لأنهم أخذوا بطرف من النُّصوص.

---

(١) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ١٣٢)، والفرق بين الفِرق (ص ١٩٠).

وأما أهل السُّنة والجماعة، فجمعوا بين النُّصوص، وقالوا: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧]، هذه هي طريقة الراسخين في العلم، وأمَّا أهل الزَّيف، فإنهم يأخذون طرفًا من الأدلة، ويتركون الطرف الآخر الذي يُقيِّده ويُفسِّره، أو ينسخه، أو يُبيِّن مجمَله؛ ولذلك فإنه لا يجوز الاستدلال بالقرآن الكريم، إلَّا لمن بلغ في العلم مرتبة تؤهِّله للاستدلال، وهم المجتهدون، أمَّا المبتدئ في طلب العلم، فهذا لايجوز له أن يستقلَّ بالفهم والرأي، أو أن يُصدر الأحكام؛ لأنه لم يتمكَّن من طريقة الاستدلال وفَهم الأدلة وربط بعضها ببعض.

فقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧]، الأمُّ: هي التي يَرجع إليها الشيء، فالمتشابهاتُ تُردُّ إلى الأُم -وهي المحكمات-؛ حتى تفسِّرها، ولاتُقطع عنها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَاحْذَرُوهُمْ**»؛ أي: لا تَغتَرُّوا بهم؛ لأنهم أهل زَيغٍ، ويُضلُّون عن سبيل الله، وما أكثرهم اليوم بسبب الجهل وعدم التمكُّن من العلم، وبعضهم قد يكون عالمًا، ولكنه صاحب هوًى، فيأخذ المتشابه لأجل التلبيس على الناس.

[التَّحْذِيرُ مِنَ اتِّبَاعِ سُبُلِ الشَّيْطَانِ]

٨١- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، وَقَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١).

الشَّرح

حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا مثل حديثه الذي سلف قبل حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السابق تمامًا، وفيه: أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يُفسِّر هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فأراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفسِّرها بضرب المَثَل الذي يوضِّحها، وذلك أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا على الأرض، ليس فيه انحراف، «ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ»، فقال عن الخط المستقيم: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٤)، والنسائي في الكبرى (١١١٠٩)، وأحمد (٧/ ٢٠٨)، والدارمي (٢٠٢)، وأبو يعلى (٩/ ١٥٨)، والمروزي في السنة (ص٩)، والطيالسي (١/ ١٩٧)، والبزار (٥/ ٩٩، ١١٣، ١٣١، ٢٥١)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٣)، والحاكم (٢/ ٢٦١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٢): رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم ابن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف.

يعني: صراطه المستقيم، وقال ﷺ عن الخطوط التي عن يمينه وشماله: «**هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، وهي الانحرافات التي تُضلُّ الناسَ، انحرافات في كلٍّ منها مذاهب فاسدة ونِحَلٌ باطلة، وأقوالٌ كاذبة، هذه هي السُّبل، وصراطُ الله واحدٌ، والسُّبل كثيرة؛ لأن أهواء الناس وأقوالهم كثيرة، فإذا ما اتَّبع أحدٌ أقوالهم، ضاع، وضلَّ، ومَن اتبع صراطَ الله، اهتدى دون أن يحصل عنده لبس؛ لأنه ليس عنده إلا طريق واحد، فمَن يسير في طريق واحد، لابدَّ أنه سيستريح، ومَن أراد السَّير في طرق كثيرة، فإنه لا يدري في أي طريق يكون الصواب، وستلتبس عليه الطريق، وبالتالي سيضيع بين هذه الطُّرق، فمن رحمة الله وفضله على خلقه أنْ وحَّد لهم الطريق، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فمَن انحرف عن الصراط، هلك في هذه السُّبل والطرق المليئة بالمقالات، والمذاهب والمتاهات؛ ولأجل تلاشي هذه الانحرافات -رحمةً بالخلق- جعل الله لهم القرآن والسُّنة، فإذا ما اشتبهت الأمور والمذاهب عليهم، رجعوا إليهما؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

[التَّحْذِيرُ مِنَ اتِّبَاعِ غَيرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

٨٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْتُبُونَ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلَالَةِ قَومٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيهِمْ إِلَى نَبِيٍّ غَيرِ نَبِيِّهِمْ وَإِلَى أُمَّةٍ غَيرِ أُمَّتِهِمْ»، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]». رَوَاهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي مُعْجَمِهِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ(١).

الشَّرح

في هذا الحديث النَّهيُ عن أخذِ شيء من التوراة أو الإنجيل والكتب السابقة؛ لأنَّها نُسخت بالقرآن الكريم، والشيء إذا نُسخ، فإنه لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ. وهذه الشرائع إنما كانت لَمن قَبلنا، وقد انتهت بشريعتنا؛ فشريعتنا هي الحاكمة، وهي المُهيمنة، ورسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم الرُّسل، وتجب طاعته على كلِّ مخلوقٍ من الجنِّ والإنس، ومن اليهود والنصارى، ومن من كلِّ أصحاب المَلَلِ والنِّحل، فلا يجوز لأحد أن يقول -مثلًا-: أنا على شريعة موسى، أو: على دين المسيح، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه أبو بكر الإسماعيلي في معجمه (٣/ ٧٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
وروى نحوه الدارمي (٤٧٨)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢١/ ٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٧٢، ٣٠٧٣) من حديث يحيى بن جعدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»(١)، فكيف بغير موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ**﴾ [آل عمران:٨١]؛ يعني: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿**مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي**﴾؛ أي: عهدي ﴿**قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران:٨١]، لقد أخذ الله تعالى الميثاق على الرُّسل أنه إذا بُعث الرَّسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتَّبعوه، فإذا كان الرُّسل يجب عليهم اتِّباع نبيِّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بغيرهم؟!

فهذا فيه: ردٌّ على الذين يقولون الآن: (إنَّ اليهود على دين، والنصارى على دين، والمسلمين على دين، وإن كلًّا من اليهود والنصارى إنما يقصدون الوصول إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنَّ كلًّا من هذين الفريقين تابعٌ لرسولٍ من الرُّسل)! كيف يستقيم هذا مع أنه بعد بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا أحدَ يُتبع إلا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٢)، فبعدَ بعثة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينبغي لدينٍ أو مِلَّة أن تكون إلَّا ملَّة الإسلام، وتلك الشرائع السابقة قد انتهت، ولا يجوز العمل بها بعد بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣/ ٣٤٩)، والدارمي في سننه (٤٤٩)، وأبو يعلى (٤/ ١٠٢)، وعبدالرزاق في مصنفه (٦/ ١١٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠) (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥١]، فالكتاب -الذي هو القرآن- كافٍ، فلا ينبغي الذهاب إلى التوراة والإنجيل أو إلى الزَّبور؛ كما لا يجوز الالتفات إلى غير القرآن من الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ قد انتهى العملُ بها، فالذي أنزلها هو جَلَّوَعَلَا، وهو الذي أنهى العملَ بها، وأحال على القرآن، فلم يبق بعد بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاب ولا دين، إلَّا القرآن والإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١]، فأما الذي لا يؤمن بحجَّة أن جميع الكتب السابقة صحيحة، وأنها كلُّها من عند الله، وأنَّ جميع الأديان باقية، ولم تنسخ، فهو كافر، وليس بمؤمن، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، وهذه المقالة التي يُردِّدونها الآن بأنه لا يجوز التحجُّر، وأن اليهود على حق والنصارى كذلك، وأنهم أصحاب دين؛ فلا مانع من التعاون والتآخي، ومن إقامة المؤتمرات والندوات لهذا الشأن، كلُّ هذا إنما هو من أجل أن يصرفوا المسلمين عن دينهم، ولهذا ينبغي للمسلمين أن يتنبَّهوا لهذه المكيدة!

٨٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ فِيهِ مَوَاضِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: هَذِهِ كُتُبٌ أَصَبْتُهَا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَغَيُّرًا شَدِيدًا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الحَارِثِ لِعُمَرَ: أَمَا تَرَى وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ نَزَلَ مُوسَى، فَاتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي، لَضَلَلْتُمْ، أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ سَعْدٍ وَالحَاكِمُ فِي الْكُنَى[(١)].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استنكر على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا رأى معه شيئًا من الكتب السابقة، فظهر على وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستنكار، حتى قيل لعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنه أخطأ، وأغضب رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا فيه دليل -أيضًا- على أنه لا يجوز لنا العُدول عن القرآن إلى الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ انتهت، والقرآن كافٍ وشاملٌ لِمَا فيها من الحقِّ، فلا يبقى كتابان بأيدي المسلمين، وإنما هو كتاب واحد، هو كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥١].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٣/ ٣٤٩)، والدارمي (٤٤٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٧)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٩١)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١١٣).

٧- باب حقوق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ

وَقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩] الْآيَة، وَقولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور:٥٦]، وَقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧] الآية.

الشَّرح

بعدما انتهى المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ من بيان التوحيد الذي هو رأس الإيمان، وذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، وبيان أنَّ التوحيد هو حقُّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على عباده؛ كما في حديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ الذي فيه قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ له: «**هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ على اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(١)، هذا هو حقُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العباد أن يعبدوه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ(٢):

حَــقُّ الْإِلَــهِ عِـبَــادَةٌ بِــالْأَمْــرِ لا ... بِهَوى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيطَانِ

مِـنْ غَـيرِ إِشْـرَاكٍ بِـهِ شَيئًـا هُمَا ... سَبَبَـا الـنَّجَـاةِ فَحَبَّـذَا السَّبَبَانِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٤٨) (٣٠).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٤٧).

لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الْإِلَهِ وَنَارِهِ ... إِلَّا الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّبَبَانِ
وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... أَو ذُو ابْتِدَاعٍ أَو لَهُ الْوَصْفَانِ[1]

هذا حقُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: عبادتُه بالأمر؛ يعني: بالشَّرع، لا بهوى النُّفوس كالبِدَع والمُحدَثات؛ لأنها كلُّها للشيطان، وإن كان صاحبُها يظنُّ أنه يتقرَّب بها إلى الله، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا لا يَرضى إلَّا بما شَرع؛ ولهذا قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ لا ... بِهَوى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيطَانِ

فلابدَّ من البراءة من الشَّرك، فلا تكفي عبادة الله وحدها؛ لأنَّ المشركين يعبدون الله، ولكنهم يعبدون معه غيره، فعبادتهم لله باطلة؛ لأنهم لم يتركوا الشِّرك، فهم يعبدون الله، ويعبدون معه غيره؛ ولهذا قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنْ غَيرِ إِشْرَاكٍ بِهِ شَيئًا).

وقوله: (هُمَا) أي: الإخلاص والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ذكر أنَّ الناس بعد ذلك منقسمون؛ فمنهم المشرك، ومنهم المُبتَدع غير المشرك، ومنهم مَنْ جَمعَ الوصفين: الشرك والبدعة، ولهذا قال:

وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... أَو ذُو ابْتِدَاعٍ أَو لَهُ الْوَصْفَانِ

فلم يَنجُ من الناس إلَّا من جمع بين الإخلاص وبين المتابعة للرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَّا بقيَّة الناس، فلم يخرجوا عن بقية هذه الأقسام الثلاثة: إمَّا مشركون، وإمَّا مبتدعة، وإمَّا جامعون بين الوصفين: الشرك والابتداع في الدِّين، فينبغي التنبُّه لهذا، فهذا هو حقُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الحقُّ الأول.

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

والحقُّ الثاني: هو حقُّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه بعد حقِّ الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يُخلط حقُّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع حقِّ الله تعالى، ولهذا قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

لِلَّهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ ... وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الْحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا ... مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ

فالله جَلَّ وَعَلَا له حقٌّ على حِدَة، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حقٌّ على حِدَة، فلا ينبغي خلطُ الحقَّين، وجعلهما حقًّا واحدًا، فالرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من العبادة شيء، وعليه فيجب معرفة ما هو حقُّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من أجل عدم الخلط بين حقِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين حقِّ الله تعالى، الذي سبق ذكره فيما سلف، وأما الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فله عدَّة حقوق، ومن أهمها:

أولًا: الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبرسالته.

ثانيًا: محبَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من محبَّة النفس والمال والوالد والولد والناس أجمعين؛ لأنه هو الذي أنقذ الله به الناس من الظلمات إلى النور، وهو الذي هدى الله به الخلق إلى الإسلام، فتجب محبَّته أكثر من محبَّة المرءِ لنفسِه وولده ووالديه؛ كما سيأتي في الحديث.

ثالثًا: طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَن آمن به وأحبَّه، فإنه لابدَّ وأن يُطيعه فيما أمر وفيما نهى عنه، فيجتنبه، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، فالطاعة والمتابعة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جملة حقوقه على

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٤٧).

الناس، وإلَّا فما فائدة الإيمان به ومحبتَّه إذا لم يُطع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُتَّبع؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء:٨٠]، فمهمَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي البلاغ، وأمَّا الهداية، فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، فيجب معرفة أن الهداية إنما هي بيد الله تعالى، وليست بيد الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا يملك إلَّا البلاغ، قال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى:٤٨]، وأمَّا هداية القلوب، فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست بيد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نقول هذا؛ لأنَّ بعض الناس يَغْلُو في حقِّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجعله في مرتبة الألوهيَّة، وبينما البعض الآخر يجفُو في حقَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يُطيعه في كثير من الأمور، وإنما يتَّبع نفسَه وهواه، فما وافق هواه فيما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخذه، وما خالف هواه، راوغ لأجل التخلُّص منه، وهذه طريقة أصحاب الأهواء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُحبُّونه، ولكنهم لا يتركون البِدَع والمُحدثات التي نهى عنها الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، متناسين أو متجاهلين أن من حقِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم اجتناب ما نهى عنه، واتِّباع ما أمر به، ومتجاهلين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١)، فالذين يُزاولون البدع قد نَقَصوا حقَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كانوا يزعمون أنهم يُحبُّونه، فالمحبَّة تقتضي الاتِّباع، قال

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٢٩٧).

تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

تَعْصِي الْإِلَـهَ وَأَنْـتَ تَـزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ شَنِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِيعُ

فالاتباع من علامة محبَّة الله ورسوله، والمحبَّة الصادقة لا تكون مجرَّدة عن العمل الذي يعني اتِّباع ما أَمَرا به ونَهَيا عنه.

وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

ذكر الله في هذه الآية ثلاثة حقوق:

الحق الأول: حق الله جَلَّوَعَلَا.

الحق الثاني: حقُّ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحق الثالث: حقُّ ولاة أمور المسلمين.

فقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ في سنَّته؛ وأما القرآن، فهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فطاعة ما جاء في القرآن طاعةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، والسُّنة هي كلام الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطاعة ما جاءت به السُّنة الشريفة هي طاعةٌ للرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾؛ أي: من المسلمين، و(مِنْ) التي في ﴿ مِنكُمْ ﴾ تبعيضية، فيجب طاعة وليِّ الأمر المسلم؛ لأن معنى: ﴿مِنكُمْ ﴾ أي: من المسلمين، وأمَّا إذا كفر

---

(١) شطر بيت مأخوذ من بيتين لعبد الله بن المبارك، انظر: تفسير الثعلبي (٣/ ٥١)، وتاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٩)، وينسبان أيضا لأبي العتاهية، ومحمود بن الحسن الوراق، وغيرهما.

أو ارتدَّ، فإنه لا يُطاع، ولكنه ما دام مسلمًا، ولم يخرج من الإسلام، فتجب طاعتُه، وإن عصى وخالف، ما دامت مخالفته لم تصل إلى حدِّ الكفر المخرج من الملَّة، فإنه تَجبُ طاعتُه، وإن جار، وإن ظلم، وإن فجر فجورًا دون الكفر؛ لِمَا في طاعتهم من المصلحة واجتماع الكلمة وحقن الدِّماء والمصالح الكثيرة التي من بينها دَفْع الظَلَمة ونُصرة المظلومين.

إلَّا أنَّ طاعة وُلاةِ الأمور مقيَّدة، وأمَّا طاعة الله تعالى وطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي طاعةٌ مطلقة؛ لأنَّ الله لا يأمر إلا بما هو حقٌّ، وكذلك الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَّا وُلاة الأمور، فإنهم قد يأمرون بمعصية، فهم ليسوا بمعصومين؛ ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»(١)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»(٢)، فإذا أمر الوُلاة بمعصية، فلا طاعة لهم في هذا، ولكن ليس معنى هذا أن تنعزل ولايتُهم، وإنما تبقى، ولكن لا يُطاعون فيما أمروا من المعاصي، وإنما يُطاعون فيما لم يخالف كتابَ الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال المفسِّرون: المراد بهم الأمراءُ، وقال آخرون: المراد بهم العلماء، والصواب أن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يشمل الأمراء والعلماء؛ فهؤلاء بسلطتهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (٣٩) (١٨٤٠) من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٥٤٤)، وأحمد (٢/ ٣٣٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٥٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٧٠)، والأوسط (٤/ ١٨١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٢٦)، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

وأخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (٣٩) (١٨٤٠)، في حديث طويل.

وهؤلاء بعلمهم، فالعلماء من وُلاة الأمور؛ لأنهم يتكلمون عن الله تعالى وعن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، فهو سبحانه قد قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقل: صلُّوا؛ لأنه ليس المقصود صورة الصَّلاة، وإنما المقصود إقامة الصَّلاة؛ أي: أن تكون الصلاة قائمة، بمعنى أنها صلاة موافقة للشرع، تؤدَّى في وقتها مع جماعة المسلمين، وبطهارة وخشوع كاملين وحضور بين يَدَي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا المقصود من قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: إقامتها على الوجه المشروع؛ من إكمال شروطها، وأركانها، وواجباتها، ومتِّماتها من السُّنن والمستحبَّات.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، الزكاة قرينة الصَّلاة في كثير من الآيات، فالصَّلاة حقٌّ لله، والزَّكاة حقٌّ للفقراء والمساكين؛ قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٩]، فهي حقٌّ للمساكين والفقراء والمصارف التي بيَّنها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور:٥٦]، وهذا الأمر الثالث، جاء بعد الأمر بإقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ وطاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكون فيما أمر به وفيما نهى عنه، فلا يكفي أن يُقيمَ المسلم الصَّلاةَ، وأن يؤتي الزَّكاة، بل لابدَّ له من طاعة الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمر، فيُفعل، وفيما نهى عنه، فيُجتَنب، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الالتزام بهذه الأوامر الثلاثة يسبِّب الرَّحمة من الله تعالى.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٧١-١٨٣)، وزاد المسير (١/ ٤٢٤)، والقرطبي (٥/ ٢٥٩)، وابن كثير (٢/ ٣٤٥).

فقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣]، هذا فيه ذكر حقَّ الله تعالى، وقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فيه ذكر حقَّ الخَلْق من الفقراء والمساكين من المسلمين، وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ فيه ذكر حقَّ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو الشاهد في هذه الآية.

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧]، فالمراد من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي: من الأوامر ومن الأموال -أيضًا-؛ لأن سبب نزول الآية كان في الفَيء، فما آتاكم الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المال، فخذوه، وقوله: ﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧]؛ عن المعاصي والمخالفات، فسبب نزول الآية في الفيء، ولكن لفظها عامٌّ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب، هكذا الأصل عند العلماء؛ أي: فما آتاكم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الأموال ومن الأوامر، فاقبلوه، وما نهاكم عنه من المخالفات، فيجب عليكم اجتنابه(١).

وفي هذه الآية إثبات العمل بالسُّنة النبوية، وفيها ردٌّ على القائلين بأنه لا ينبغي الأخذ إلا بالقرآن الكريم، والله جَلَّوَعَلَا ردَّ عليهم بهذه الآية بقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾، والسنة مما آتانا الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهذه الآية تعتبر أصلًا لكلِّ ما جاءت به السُّنة مما لم يَرد له ذكرٌ في القرآن الكريم، وعلى هذا الدَّرب والطريق الواضح مَنْ جاء بعد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من أئمة العلم والدِّين.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٥١٤-٥١٨)، وزاد المسير (٤/ ٢٥٧)، والقرطبي (١٨/ ١٢)، وابن كثير (٨/ ٦٥).

[وُجوبُ قِتَالِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا جَاءَ بِهِ]

٨٤- عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ**(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُمِرْتُ»** الذي أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**، هذا فيه وجوب قتال المشركين؛ حتى يكون الدِّين كلُّه لله، ولا يبقى شرك، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال:٣٩]، فقتال المشركين إنما هو لأجل شركهم وإزالته؛ لأن الخَلْق خُلقوا لعبادة الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا عبدوا غيرَه، وجب قتالُهم بأمر الله جَلَّ وَعَلَا، فهو سبحانه لم يَخلُقْهم ليعبدوا غيرَه، بل خلقهم ليعبدوه، فإذا خالفوا وعبدوا غيرَه، فإنهم يُقاتَلون، ولا ينبغي تَركُهم ينشرون الشِّرك في الأرض، ويجبرون الناس عليه.

وفي الحديث ردٌّ على القائلين: (إن الإسلام دين مسالَمةٍ وسلام وتسامح، وليس دينَ قتالٍ إلا في حَقِّ مَنِ اعتدى على المسلمين، فإنه يُقاتَل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦) بنحوه، ومسلم (٣٤) (٢١) بلفظه.

مِنْ باب الدِّفاع)! هذا كلام باطل، بل يجب قتالُ المشركين لأجل شركهم وإزالتِه وقَمْعِ المشركين؛ حتى يكون الدِّين كلُّه لله، إذا كان عند المسلمين قوَّة واستطاعة، فلا ينبغي لهم أن يتركوا الجهاد؛ لأنه واجبٌ وفرضٌ من فروض الإسلام، وأما الدفاع، فكلُّ الخَلْق يدافعون عن أنفُسِهم، حتى البهائم تدافع عن نفسها، فكلُّ مَنِ اعتُدي عليه يُدافع عن نفسه، فهذا لا يحتاج إلى أمرٍ من الخالق جَلَّوَعَلَا؛ لأنه أمرٌ فِطْريّ وغير خاصٍّ بالمسلمين ولا بغيرهم، فلا يحتاج إلى نزول آيةٍ إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى المؤمنين، لكن الكلام هنا في هذا الحديث إنما هو عن جهاد الكفار لنَشر الإسلام وإزالةَ الشِّرك، وهذا من أعظم فرائض الإسلام، وقد جعله النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِرْوَة سَنَام الإسلام[1]،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٣٦/ ٣٤٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٧٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٩٩).

عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ ﴾، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ -إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

فلا ينبغي الالتفات إلى مقالة من يُهوِّلون أمر الجهاد لإرضاء الكفار بالقول لهم: (إنما نحن إخوة في الإنسانية، وديننُا دينُ مسالمةٍ مع غير المسلمين، وليس في ديننا أن نُقاتل مَن هم على غير ملتنا)، ونحو ذلك من المقالات التي لم يأمرهم الله بها، فكل هذا الكلام وشبهه من باب تعطيل الجهاد، الذي أمر الله به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، وهو جحد لركن من أركان الإسلام؛ لأن بعض العلماء عَدَّ الجهاد ركنًا من أركان الإسلام، فجعله الرُّكن السادس من أركان الإسلام.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، لم يقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يكفوا أذاهم؛ ليصبح الأمر مجرَّد دفاع عن النفس، وإنما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فالغاية التي ينتهي عندها قتال الناس هي عند شهادتهم أن لا إله لا الله.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيُؤْمِنُوا بِي**»؛ يعني: يشهدوا أن محمدًا رسول الله، فإذا أتوا بالشهادتين، وَجَبَ الكَفُّ عنهم حتى يتبيَّن منهم ما يُناقص الشهادتين، فإذا تبيَّن، فإنهم يُعتبرون مرتدِّين، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، كففْنا عنهم، ووَكَلْنا سرائرهم إلى الله تعالى؛ ولهذا لما لحق أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مشركًا بالسيف وأدركه، وأراد قتْلَه، شهد الرجل بأن لا إله إلا الله، فقتله أسامةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما بلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنكر على أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنكارًا شديدًا، وقال له: «**أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ**

قَلْبِهِ؛ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟»[١]، وفي رواية قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»**[٢].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِلَّا بِحَقِّهَا»** يعني: إلا إذا تبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، كأن يجحدوا الزكاة، أو يُنكروا وجوب الصلاة، ولهذا لما امتنع طوائف من العرب عن دفع الزكاة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاتلهم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ»، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك بعدما قال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»**، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[٣]، فكان في ذلك الخيرُ والمصلحةُ للإسلام والمسلمين؛ لأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لو تركهم على ما هم عليه، لحصل في الإسلام نقصٌ كبير، ولتركت كل طائفةٍ من الناس ركنًا من أركان الإسلام، فالحزم كان شيمة أبي بكر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (١٥٨) (٩٦)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجها مسلم (١٦٠) (٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم(٣٢) (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ في هذا الأمر الخطير، مستدلًا بهذه الكلمة النبوية العظيمة «إِلَّا بِحَقِّهَا»؛ أي: حق لا إله إلا الله، والصلاة من حق لا إله إلا الله، وكذا الزكاة والصيام والحج، فليست (لا إله إلا الله) مجرَّد لفظ، والتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة هو صميم لا إله إلا الله، فمن كان يقولها وهو يشرك بالله، فإنها لا تنفعه، ولا يُعصم دمه ولا ماله، بل يقاتل، ولو كان يقولها؛ لأنَّ هذا من التناقض، فكيف يقولها، ويدعو غير الله؟! كأن يقول مثلًا: (يا عليّ، يا حسين، يا بدويّ)، فكلُّ هذا ونحوه من الشرك؛ لأنه قال: (لا إله إلا الله)، ولم يعمل بمقتضاها، فيجب التفقُّه في مثل هذه الأمور والتنبُّه لها، فكل هذه الأمور ونحوها إنما هي من الشبهات التي يُوردها أهلُ الضلال، ولابُدَّ من الرَّدِّ عليها بكلام الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ.

والشاهد في الحديث قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ**»، فهذا هو حقُّ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ، وهو الإيمان به وبما جاء به وتصديقه.

[ذِكْرُ الْخِصَالِ الَّتِي فِيهَا حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ]

٨٥- **وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).

الشَّرْح

في هذا الحديث ذكرت ثلاثُ خصال، مَنْ كانت فيه هذه الثلاث وَجد بهنَّ حلاوة الإيمان؛ كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُفهم من هذا أنَّ الإيمان له طعم، وموصوف بالحلاوة، فقد يكون المرء مسلمًا، ولكنه لا يجد طعم حلاوة الإيمان، ولا توجد حلاوة الإيمان، إلا لمن تلذَّذ بالعبادات وأحبَّها، وكره المعاصي، وأبغضها كما يَكرهُ أن يُقذف في النار، فمن كانت فيه هذه الصفات، وجد طعمَ حلاوة الإيمان، وقد بيَّنها ووضَّحها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»؛ يعني: مِنَ النَّفس ومن الوالد والولد والأقارب والناس أجمعين، فلا يقدِّم على محبَّة الله جَلَّ وَعَلَا ومحبَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا أبدًا، وإذا تعارض شيءٌ مع محبَّة الله تعالى ومحبَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يترك ويتخلى عن هذا الشيء، فيترك الوطنَ والمال والولد والوالد أو أيَّ شيء آخر من أجل محبَّة الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم (٦٧)(٤٣).

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة:٢٤]، فتقديم ما يحبُّه الله ورسوله على ما تُحبُّه النفس إنما هو علامة محبَّة الله ورسوله، وأما إن كان العكس، وذلك بتقديم ما تحبُّه النفس على ما يحبه الله ورسوله، كان ذلك علامة من علامات الفسق.

وفي الحديث بيان: أنه ينبغي أن تكون محبة الله تعالى أولًا وقبل كلِّ شيء، وبعدها محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن كثيرًا من المبتدعة لا يلهجون إلا بمحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يذكرون محبة الله تعالى، ولا تأتي لهم على لسان، مع أن الأصل في هذا هو محبة الله تعالى، وفي الدرجة الثانية محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»، فقدَّم الله تعالى أولًا، ثم ذكر نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**»؛ أي: بعد أن يكون الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبَّ إليه من كل شيء، ينبغي للمرءِ المسلم أن يُحبَّ ما يُحبُّه الله تعالى من الأشخاص، وأن يترك ما يَكرهه الله تعالى من الأشخاص، فيُحبُّ ما يحبُّه ويُبغض ما يبغضه الله تعالى؛ لأن هذا من علامة صدق محبَّة الله تعالى ومحبة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»؛ لأنَّ الله يكره الكفر والشرك والمعاصي، فلا يجد المرء طعم الإيمان إلا بعد أن يبغض هذه الأشياء، ولا يكفي منه أن يتجنبها فقط، بل لابد أن

يبغضها بقلبه؛ لأنَّ بُغضَ هذه الأشياء لا يكون إلا عند مَنْ وَجد حلاوة الإيمان.

والشاهد في الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»، وهذا فيه محبَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنها تأتي بعد محبَّة الله تعالى مباشرة، وأنها مقدَّمة على كلِّ شيء.

٨٦- **وَلَهُمَا عَنْهُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مَرْفُوعًا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**[(١)].

الشَّرْح

وهذا فيه: أن الإيمان لا يتحقَّق إلا إذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبَّ إلى المرء المسلم من ولدِه، وأحبَّ إليه من والدِه، ومِن جميع الناس، فإذا كان المرءُ كذلك، فإنه يكون قد قدَّم علامةً على صدق محبته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من محبته لولده ووالده والناس أجمعين، هذه هي العلامة، ومنها تقديم ما أمر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما نهى عنه على ما يُمكن أن يأمر به الوالد والولد، أو ما يمكن أن يأمر به الناس، فيترك جميع ما يمكن أن يأمروا به، ويأخذ ما نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه علامة محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما يُفهم ذلك من الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٧٠) (٤٤).

[الرَّدُّ عَلَى مَنِ اكْتَفَى بِالْقُرْآنِ عَنِ السُّنَّةِ]

٨٧- وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا، اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا، حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللهُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه(١).

الشَّرْح

وهـذا الحديث من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث أخبر عن شيء سيحصل، وحصل كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه يأتي أُناسٌ مُتْرَفون على أرائكهم، لا يَجِدُّون في طلب العلم، وإذا ما ذُكر لهم حديثٌ عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخبر بأنه لايعمل إلا بما في القرآن الكريم، فما كان فيه من حلالٍ أو حرام، أخذ به، وأما أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي محلُّ شكٍّ عندهم، من حيث أسانيدها ورواتها ومتونها، فهؤلاء لا يقبلون إلا ما جاء في القرآن الكريم، بحُجَّة أنه متواتر، وأما السُّنة، فأكثرها آحاد، وليست متواترة، فيتركونها!! فهؤلاء ونحوهم يُسمَّون بالقرآنيِّين، الذين يَدَّعون العمل بالقرآن فقط، وهي فرقة معروفة في الهند وفي غيرها، ومثلهم الخوارج

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٤١٠)، والدارمي (٦٠٦)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٧٤)، وفي مسند الشاميين (٢/ ١٣٧)، والمروزي في السنة (ص٧٠)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠).

الذين يُنكرون السُّنة، ويَدَّعون بأنهم لا يعملون إلا بما جاء في القرآن الكريم؛ لأنهم جهال بالسُّنة، ولهذا يُشكِّكُون في أسانيد الأحاديث المتضمِّنة للسُّنة، فيَطعنون في رُواتها وحُفَّاظها.

ومِنْ هؤلاء مَنْ لا يُنكر جميعَ السُّنة، وإنما يُنكر الآحاد من الأحاديث، ولا يقبل إلا المتواتر منها، بحُجَّة أن أحاديث الآحاد ظَنِّية، والمتواتر هو الذي يفيد العلم، والآحاد عندهم يُعمل به في مسائل الفقه، وأما في العقائد، فلا يعملون بخبر الآحاد؛ بحُجَّة إفادته للظن، والعقائد لا تُبنى -بزعمهم- إلا على العلم، هكذا يقولون!! وهذا ما عليه المعتزلة وما يسمى في زماننا بالعقلانيين؛ ولذلك فهم يُنكرون صفات الله وأشياء كثيرة في العقيدة بحُجَّة أنها ما جاءت إلا برواية الآحاد!!

ونحن نقول: إنَّ ما صحَّ عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -سواء كان متواترًا، أو كان آحادًا-، فهو يفيد العلم واليقين، ويجب العمل به، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يُرسل جماعات إلى الأقطار، وإنما كان يرسل أفرادًا، ويعمل وُلاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمراؤه بخبر الرسولِ الذي أرسله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع واحد، فبلَّغ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن يرفض أمراؤه هذا بحُجَّة أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُرسل إليهم جماعة؛ ليشهدوا أنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ما جاء به رُسُله، وهم فُرادى؛ والصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كانوا يُصلُّون العصر إلى بيت المقدس؛ لبقائهم على الأصل، ولما نُسخت القِبْلة وحوِّلت، صلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العصر في مسجده إلى الكعبة، فخرج رجلٌ واحد من عنده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتى إلى أُناسٍ يصلُّون إلى بيتِ المقدس صلاة العصر،

فقال: (إنَّ القِبلة قد حوِّلت إلى الكعبة)، فاستداروا أمامهم نحو الكعبة[١]، فلم يقولوا: هذا خبرُ آحاد؛ فلا نعمل به.

ولذلك فإنه ما دام الخبر صحيحًا، فلا مجال للتشكيك فيه، وإن كان خبرَ آحادٍ.

ثم إن القرآن الكريم يتضمن مُجملات لا يُفصِّلها إلا السُّنة النبوية، فنرى أنَّ القرآن الكريم قد أمر بالصلاة في كثير من الآيات، ولكنه لم يذكر منها عدد ركعاتِ أيِّ صلاة منها، في حين نجد هذا مذكورًا ومفصَّلًا في السُّنة النبوية، فسُنَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبِّينة لِمَا جاء مجملًا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، فالسُّنة النبوية الشريفة مبيِّنة للقرآن، ومُقيِّدة لُمطلَقِه، وهي دليل عليه ومفسِّرة له.

ومِنْ ذلك أن الله تعالى ذكر في كتابه فَرضيَّة الزكاة، ولكننا لا نجد في القرآن الكريم -على كثرة الآيات التي تناولت هذه الفريضة- الأموال التي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢)، ومسلم (١١) (٥٢٥) عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ».

تجب فيها هذه الزكاة، فلم يُذكر في القرآن زكاة الإبل والبقر والغنم، أو زكاة الخارج من الأرض، ولا زكاة عروض التجارة، فلا نجد في القرآن إلا الأمر بإيتاء الزَّكاة، ولا نجد فيه ذِكْر النِّصاب؛ لا نصاب الإبل، ولا البقر، ولا الذَّهب، ولا الفضة، ولا غير ذلك مما نراه مبيَّنًا ومفصلًا في السُّنة النبوية الشريفة، ففي قوله تعالى مثلًا: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨] لم يُذكر في الآية أيُّ يد تُقطع، ولكن جاءت السُّنَّة الشَّريفة، فبيِّنت أنَّ اليد اليمنى هي التي تُقطع، وبيَّنت كذلك حدَّ اليد التي تقطع، فبيِّنت أن الذي يُقطع من اليد هو من بداية مفصل الكَفِّ، ويُترك الذراع والعَضُد، فلو اقتصرنا على ما جاء في القرآن، لبقيت الأحكام معطَّلة؛ لأنه لا يوجد ما يفسِّرها ولا ما يُوضِّحها ويُبيِّنها؛ كما هو موجود في السُّنة النبوية، سواء كانت متواترة أو آحادًا؛ إذ المتواتر من الأحاديث قليل؛ قياسًا لمجموع السُّنة النبوية الشريفة، التي أغلبها من الأحاديث الآحاد، فلو تركنا الآحاد، لما بَقي شيء يُذكر منها؛ ولكن هؤلاء حالهم -كما جاء في الحديث- جهلة خاملون، لا يطلبون العلم من مظانِّه، ولم يتكلَّف أحدهم دراسة الأسانيد، وإنما هو متكئ على أريكته؛ كما وصفه رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا كلُّه نتيجة البقاء على الجهل وعدم السَّعي للتعلُّم، وفي هذا خطر عظيم، يُخشى على الأمَّة منه ومن هذه المقالات الفاسدة، والعلم لا يؤخذ من كل مَنِ ادّعاه، وإنما يؤخذ من العلماء الراسخين المعروفين الذين تلقَّوه عمَّن قبلهم، وإلا سنقع فيما أخبر عنه الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ففي الحديث: الدعوة إلى وجوب العمل بالسُّنة، والتصديق بها، وأن هذا من حقِّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، وعدم الاكتفاء بما جاء في كتاب الله تعالى الذي يدعو أصلًا إلى أخذ ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، أوليس في القرآن قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]؟ أوليس في القرآن قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]؟

والسُّنة النبوية وحيٌ من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، ولهذا فإنَّ العلماء يسمونها الوحي الثاني، والقرآن هو الوحي الأول.

٨ - بَابُ تَحْرِيضِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ وَتَرْكِ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩] الآية، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] الآية.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ تَحْرِيضِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ) التحريض معناه: الحث على (لزوم السُّنة)؛ أي: التمسُّك بطريقة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالسنة يراد بها: الطريقة؛ أي: طريقة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُراد بها: ما ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقوال وأفعال وتقريرات. فمعنى (لُزُومِ السُّنَّةِ) أي: التمسُّك بها؛ لأنها هي ضمان النجاة يوم القيامة، فمن ترك السُّنة، هلك، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ أي: قدوة حسنة، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

الْمَهْدِيِّينَ»(١)، وقال -أيضًا- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«إِنِّي تَارِكٌ فيكم مَا إِنْ تَمسَّكتم بِهِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَي: كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّتي»**(٢)، والمراد بكتاب الله: القرآن، والمراد بالسُّنة: ما كان عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الطريقة والأقوال والأفعال والتقريرات الواردة عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٣)؛ لأن السُّنة تفسرِّ القرآن، وتوضِّحه، وتدُّل عليه، وهي الوحي الثاني، وهي الحكمة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة:٢]، فلا نجاة إلا بالتمسك بسنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا شكَّ أنَّ أصل سُنَّة الرسول هو التمسُّك بالقرآن الكريم؛ فقوله: (والسُّنّة)؛ أي: القرآن؛ لأن القرآن الكريم هو الأصل، فلا نجاة إلا بالتَّمسُّك بالسُّنة في كلِّ وقت وفي كلِّ زمان، فمَن حاد عن السُّنة وأخذ بغيرها، هلك، ومَن أخذ بها وسار عليها، نجا، سواء كانت السُّنة في العقيدة، أو في العبادات، أو في المعاملات، أو في الآداب والأخلاق، فالسُّنة عامَّة، وأَوْلى ذلك في العقيدة التي دعا إليها الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقد كان أول ما دعا إليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كغيره من الأنبياء هو التوحيد وإصلاح العقيدة، ثم بعد ذلك يأتي العمل فيما دعوا إليه -عليهم الصلاة والسلام-.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص ٢٩٧).

(٢) أخرجه الدارقطني (٥/ ٤٤٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، والحاكم (١/ ١٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) انظر: أصول السرخسي (١/ ١١٣)، وإرشاد الفحول (ص٦٧)، وفتح المغيث للسخاوي (١/ ٢٥)، وتدريب الراوي للسيوطي (١/ ٤١).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَتَرْكِ الْبِدَعِ)، فقد نهى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المُحدَثات والبدع؛ لأنها مخالفة للسُّنة النبوية الشريفة. والبِدَع جمع بدعة: وهي كل ما أُحدثَ في الدِّين مما ليس منه، ويشمل البدعة في الاعتقاد والبدعة في العبادة وفي الأعمال، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُل مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**»(٢)؛ فالواجب أن تُعرض أقوالُ الناس والعلماء وأفعالهم وعباداتهم واجتهاداتهم على سُنَّة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما وافقَ السُّنة، فإنه يؤخذ به، وما خالفها، فإنه يُترك، ولايعمل به، وإن استحسنه مَنِ استحسنه، واعتبره زيادة خير أو عبادةً، والحقيقة أن ما خالف السُّنة إنما هو شر، وليس بخير؛ لأنه يُبعد عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، في هذه الآية دليلٌ على وجوب التزام السُّنة النبوية والاقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأُسوة: هي القدوة؛ والتأسِّي معناه الاقتداء، فالقدوة هو الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَنْ عداه فإنما يُقتدى به إذا وافق سُنَّته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما مَنْ خالفها، فهو ليس قدوة، بل هو قدوة سيِّئة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقًا في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ مع الفتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ مع الفتح).

(٢) سيأتي تخريجه (ص٢٩٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، لقد ساق المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية؛ لأنه جاء في ترجمة الباب النهي عن التفرُّق والاختلاف، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، والدِّين واحد، وهو ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وما خالفه، فليس بدين، وإن زعم أصحابه أنه من الدِّين، والتفرُّق يُحدِث الشِّقاق والبغضاء وكثرةَ الأهواء، وقد يُحدثُ القتال وسفك الدماء، وقد يُخِلُّ بالأمن، فلابُدَّ من الاتِّفاق على ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران:١٠٥]، فقد ذكر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم لما تفرَّقوا، هلكوا، فالتفرُّق لا خير فيه.

ومن المعلوم أن الناس يختلفون في الاجتهاد والآراء والفقه، ولكن الواجب عرض أقوالهم واجتهاداتهم وآرائهم على كتاب الله تعالى؛ ليجتمع المتفرِّقون، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]. فقوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى كتاب الله و﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ في حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يُردُّ إليه، وبعد موته إلى سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فالخلاف يُحسم، والنزاع يُنهي، وذلك بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يختلفون في بعض الأمور، ولكنهم كانوا يردُّون خلافهم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يتفقون، وهكذا كان مَنْ بَعدهم من أهل الإيمان والصِّدق، فقد كانوا إذا اختلفوا، ردُّوا خلافهم إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يكن أحدهم يتعصَّب لرأيه؛ لأن هذا لم يكن من شأنهم رَحِمَهُمُ اللهُ.

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾؛ أي: شرع الله لكم ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وهو أول الرُّسل ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، هؤلاء خمسة رسل، وهم أُولو العزم الوارد ذكرهم في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧]، فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل على القول المشهور، ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى:١٣]، ودين الرُّسل واحد، لكن ذكر هؤلاء الرسل؛ لأنهم أولو العزم، وإلا فدين الرسل والأنبياء جميعهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم بحسب المصلحة والحكمة التي يعلمها الله تعالى(١)،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (١٤٥) (٢٣٦٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**».

ولكن عبادة الله هي عبادته في كل وقت بما شرع، فإذا نُسخ، فالعمل على الناسخ، ويُترك المنسوخ، والله جَلَّ وَعَلَا يشرع لكل أمة ما يُناسبها، ثم ينسخه بشريعة أخرى تناسب الجيل الذي بعده، وهكذا إلى أن جاء محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنسخ الله به الشرائع السابقة، وبقي دين الإسلام الذي جاء به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا في الفروع، وأما الأصول، فلا يقع فيها نسخٌ، فالتوحيد ليس فيه نسخ، وإنما النسخ يكون في الأحكام العملية؛ كالبيع والشراء، والأنكحة، ونحو ذلك مما يجري فيه التغيير، حسب حكمة الله جَلَّ وَعَلَا، بخلاف أصول الدين والعقيدة؛ فلانسخ في ذلك.

والشاهد في الآية الكريمة: قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى:١٣]؛ أي: أقيموا الدِّين على ما جاء من غير اختلاف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

[الْوَصِيَّةُ بِسُنَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْبِدَعِ]

٨٨- وَعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ -وَصَحَّحَهُ- وَابْنُ مَاجَه(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا»(٢). ذَكَرَهُ بِمَعْنَاهُ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠، ٢/ ٤٩٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٩)، وفي الأوسط (١/ ٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٧، ٢٥٧)، وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٥)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١١٥).

الشَّرح

هذا حديث عظيم، فيه أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظ أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وهذا من سُنَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يَتخوَّلهم بالموعظة أحيانًا، فيؤخذ من هذا مشروعية الموعظة، وأنَّ العالم أو الواعظ أو إمام المسجد ينبغي له أن لا يَغفُل عن جماعته من المسلمين، بل يعظهم أحيانًا، ولا يُطيل عليهم ويتركهم دون أن يُذَكِّرهم بما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة. وقد كان ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَعظ أصحابه، فطلبوا منه أن يداوم على الموعظة، فقال لهم: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»(١).

وفي الحديث أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظ أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في يوم من الأيام، وجاء في بعض الأحاديث أن ذلك كان بعد صلاة الفجر(٢).

وقوله: «مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ»، وذلك أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعطيَ جوامعَ الكَلِم وفَصْلَ الخطاب، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختار الألفاظ المؤثِّرة في موعظته، دون أن يستطرد بما لا فائدة فيه. وقوله: «وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ» يعني: بلغ تأثيرها إلى القلوب والأفهام.

وقوله: «فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟»؛ يعني: كان قد فَهم هذا الرجل أن هذه الموعظة في آخر حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما فَهِم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨، ٦٤١١)، ومسلم (٨٢) (٢٨٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، و من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟»؛ يعني: أَوْصِنا؛ لأنه من عادة العالم أو وليِّ الامر أو الوالد أنه يُوصي عند نهاية حياته مَنْ خَلْفَه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ»، وتقوى الله: هي فِعْل أوامره، وتَرْك نواهيه، وسمِّيت تقوى؛ لأنها تَقي من عذاب الله، والتقوى كلمة عظيمة، رتَّب الله جَلَّ وَعَلَا عليها خيرات كثيرة، ومعناها: العمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، لرجاء ثواب الله، وتَرْك معصية الله، على نورٍ من الله؛ مخافة من عقاب الله(١).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ»؛ أي: فِعْل أوامره وتَرْك نواهيه؛ رجاءً وخوفًا.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» لوليِّ الأمر؛ لأنه بها يحصل اجتماع الكلمة، وتنتظم بها المصالح، وهي سببٌ للاتفاق، ومَنْجاةٌ من الاختلاف، فلا يحصل الاجتماع والاتفاق إلا بولي أمرٍ يَسُوس الناس، ويُنفِّذ فيهم أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدفع عنهم الأذى والعدوَّ، ويُقيم الحدودَ، ويمنع الظالم، ويردُّ الحقوق إلى أصحابها، ولا يكون كلُّ هذا إلا بوجود وليّ الأمر، ولا يكون وليُّ الأمر إلا بالسمع والطاعة؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا» أي: لا تحتقروا وليَّ الأمر، ولاتُهوِّنوا من شأنه، أو تَسبُّوه عند الناس، إن كان ممَّن نَسَبُه وضيعٌ عندكم،

---

(١) هذا تعريف طلق بن حبيب للتقوى. انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٤٧٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٤)، والحلية لأبي نعيم (٣/ ٦٤).

فلا يُنظر إلى نَسَبه، وإنما يكون النظر في هذا إلى المنصب، فالإنسان سواء كان حرًّا أو عبدًا، فإنه إذا ما تولَّى أمر المسلمين، فإنه يُنظر إلى منصبه، فتَجِبُ طاعتُه، وتَحرُم مخالفته.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي**»؛ أي: من ستطول به الحياة، وهذا خبر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»، وهذا -أيضًا- خبرٌ من باب التحذير، بأنه سيكون في ذلك الزمان اختلاف واسع عما عليه الوضع الآن، وإذا ما حصل هذا الاختلاف، فلا عاصم منه، ولا شيء يمكن أن يُنجي منه سوى العودة إلى كتاب الله تعالى وسُنة نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتمسُّك بهما؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**»، فهي سبيل النجاة «**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهؤلاء هم الخلفاء الراشدون المهديُّون، وعملهم حُجّة وسُنَّة تُتَّبع؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَعَلَيْكُمْ**»، وهي كلمة حَثٍّ، معناها: الزموا سُنَّتي؛ كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ أي: الزموا أنفُسَكم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَمَسَّكُوا بِهَا**» زيادة تأكيد لقوله: «**فَعَلَيْكُمْ**»، وزاد تأكيدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»، والنواجذ: الأضراس، وهذا مثال للذي وقع في مصيبة أو مهلكة، أو كالغريق المُمْسك بالحَبْل الذي هو سبيل نجاته حال خوفه أن يفقد هذا الحَبْل، فإنه يَعَضُّ عليه بأسنانه وأضراسه؛ إذ لو أَفْلَتَ منه هذا الحَبْلُ، هلك، فلا نجاة له بعد الله إلا بهذا الحَبْل، فهو من شدَّة خوفه وحرصه عليه، فإنه يَعَضُّ عليه بأضراسه، ولم

يَكتفِ بأنْ يُمسكَه بيديه؛ خوفًا من أن يَنفلتَ منه، فقد شبَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يقع في الفتن وحاجته للتمسُّك بالسُّنة كحاجة الغريق لأن يتمسَّك بالحَبْل، وإلا فإنه لن ينجو، وهذا تشبيه بليغ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**»، وفي هذا تحذير منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إحداث البدع، والبدعة: ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه(١)، وأما ما أُحدث في أمور الدنيا من الصناعات والمخترعات، فلا بأس به، ولا يُعدُّ من البِدَع، وإنما الكلام على ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه.

قوله: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، في هذا ردٌّ على القائلين بأن هناك بدع حسنة ومُحدثات طيبة؛ لأنه ليس هناك بدعة حسنة، وإنما كل البدع والمحدثات شر؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا أكمل لنا الدين، وما توفي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعدما أكمل الله به الدين، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فلا حاجة إلى إضافات واستحسانات يأتي بها الناس في أمور الدين، فيكفينا الدين الذي أكمله الله تعالى، ولا حاجة بنا إلى الزيادة(٢).

---

(١) انظر: العين (٢/ ٥٤)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٤٢)، والصحاح (٣/ ١١٨٣)، ومقاييس اللغة (١/ ٢٠٩).

(٢) انظر: الاعتصام (١/ ٢٤١ - ٢٤٢)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِمَّا يُورَدُ فِي هَذَا المَوْضِعِ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَسَّمُوا الْبِدَعَ بِأَقْسَامِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْخَمْسَةِ، وَلَمْ يَعُدُّوهَا قِسْمًا وَاحِدًا مَذْمُومًا، فَجَعَلُوا مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ وَمَنْدُوبٌ وَمُبَاحٌ وَمَكْرُوهٌ وَمُحَرَّمٌ.
وَبَسَطَ ذَلِكَ الْقَرَافِيُّ بَسْطًا شَافِيًا وَأَصْلُ مَا أَتَى بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْخُهُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، وَهَا أَنَا آتِي بِهِ عَلَى نَصِّهِ....، فَقَالَ: «... وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ أَمْرٌ مُخْتَرَعٌ، لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ =

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرواية الأخرى: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**» البيضاء أي: الجادة الواضحة، وهي صراط الله جَلَّ وَعَلَا، فمن سار عليه نجا، ومَنْ تركه هلك، فلا طريق إلى الجنة إلا من خلال اتِّباع سُنَّةُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن تركها، كان حاله كحال الذي أضاع الطريق في مهلكة.

ويدور على ألسنة بعض الناس قولهم: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى المحجَّة الْبَيْضَاءَ»، وكلمة (**محجةَّ**) لم تثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الذي ثبت قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ**»، وهي المِلَّة والحُجَّة الواضحة التي لا تقبل الشُّبه أصلًا، ولهذا جاء بعدها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا**»، فصار حال إيراد الشُّبه عليها كحال كَشْفها عنها ودَفْعِها.

=دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ مُتَدَافِعٌ؛ لِأَنَّ مِنْ حَقِيقَةِ الْبِدْعَةِ أَنْ لَا يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ؛ لَا مِنْ نُصُوصِ الشَّرْعِ، وَلَا مِنْ قَوَاعِدِهِ.

إِذْ لَوْ كَانَ هُنَالِكَ مَا يَدُلُّ مِنَ الشَّرْعِ عَلَى وُجُوبٍ أَوْ نَدْبٍ أَوْ إِبَاحَةٍ؛ لَمَا كَانَ ثَمَّ بِدْعَةٌ، وَلَكَانَ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي عُمُومِ الْأَعْمَالِ الْمَأْمُورِ بِهَا أَوِ الْمُخَيَّرِ فِيهَا، فَالْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ بِدَعًا، وَبَيْنَ كَوْنِ الْأَدِلَّةِ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِهَا أَوْ نَدْبِهَا أَوْ إِبَاحَتِهَا جَمْعٌ بَيْنَ مُتَنَافِيَيْنِ.

أَمَّا الْمَكْرُوهُ مِنْهَا وَالْمُحَرَّمُ؛ فَمُسَلَّمٌ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا بِدَعًا لَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذْ لَوْ دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى مَنْعِ أَمْرٍ أَوْ كَرَاهَتِهِ؛ لَمْ يُثْبِتْ بِذَلِكَ كَوْنَهُ بِدْعَةً؛ لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً؛ كَالْقَتْلِ وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَنَحْوِهَا، فَلَا بِدْعَةَ يُتَصَوَّرُ فِيهَا ذَلِكَ التَّقْسِيمُ أَلْبَتَّةَ، إِلَّا الْكَرَاهِيَةَ وَالتَّحْرِيمَ حَسْبَمَا يُذْكَرُ فِي بَابِهِ.

فَمَا ذَكَرَ الْقَرَافِيُّ عَنِ الْأَصْحَابِ مِنَ الِاتِّفَاقِ عَلَى إِنْكَارِ الْبِدَعِ صَحِيحٌ، وَمَا قَسَّمَهُ فِيهَا غَيْرُ صَحِيحٍ). اهـ. بتصرف.

[خيرُ الهَدْيِ هَدْيُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

٨٩- وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١).

الشَّرْح

كان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في خُطَبه: «**أَمَّا بَعْدُ**»، وهي كلمة يؤتى بها للانتقال من كلام إلى كلام آخر، فهي فاصلة بين كلامين. وقيل: هي فَصْل الخطاب الذي أُوتيَه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، فكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمد الله في خُطَبه، ويُثني عليه، ثم يقول: «أَمَّا بَعْدُ».

وقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ**» أي: القرآن، والحديث معناه: الكلام. والقرآن حديث؛ لأنه كلام الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، فالقرآن حديث؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]، فيسمى حديثًا، ويسمى قرآنًا وكلامًا، وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣) (٨٦٧).

وروى البخاري نحوه (٧٢٧٧) موقوفًا على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**إِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**، و﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:١٣٤]».

خير الحديث، فلا شيء يوازي القرآن؛ لأنه كلام الله جَلَّوَعَلَا، وهو أصدق الحديث.

وقوله: «**وَخَيْرَ الْهَدْيِ**»؛ أي: السُّنة التي تُتَّبع «**هَدْيُ مُحَمَّدٍ**»، وفي رواية: «**وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ الأَنْبِيَاءِ**»[١]، ولكن المعروف والمشهور «**وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقوله: «**وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**»، لما ذكر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الأمور، ذكر شرَّها، وهي المحدثات التي تُحدَث في الدِّين. وفي هذا ما يدلُّ على أنه لا يكفي من المرء أن يبيِّن للناس الحق، ويترك بيان الباطل؛ كما يقول بعض الجُهال: (علِّموا الناس التوحيد، ولا داعي لتعليمهم الشرك)! والصحيح في ذلك هو ذِكْر النقيض -أيضًا-؛ لأجل أن يجتنبوه، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الأمرين، فلما ذكر الخير، ذكر -أيضًا- الشرَّ؛ لأجل أن يحذره الناس، فلابد من بيان الخير وبيان الشر، ولهذا نجد في كتب العقائد بيانًا للتوحيد وبيانًا للشرك، ونجد فيها بيان قول أهل السنة والجماعة وبيان قول الطوائف الضالة؛ من أجل الحذر منهم؛ ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**»، وهي البدع.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، هذا زيادة توضيح منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا نفيٌ وردٌّ لمن يقول بوجود بدعة حسنة، وكلمة (كُلّ) فيها ردٌّ للقائلين بهذا القول، وجاء في بعض الروايات: «**وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/ ٣٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، موقوفا عليه. وأخرجه الشهاب القضاعي (٢/ ٢٦٣) من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي (١٧٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

[عِصْيَانُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ]

٩٠- وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قِيلَ: وَمَنْ أَبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي، فَقَدْ أَبَى»(١).

الشَّرح

هذا الحديث فيه أن من أطاع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دخل الجنة، فالذي يريد الجنة عليه بطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف أن الإنسان يأبى دخول الجنة، وذلك بعصيانه ومخالفة أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا دليل على أن طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي السبب لدخول الجنة، وأن معصيته هي السبب للحرمان من الجنة والدخول في النار؛ لأن طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هي طاعة لله جَلَّ وَعَلَا، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأمر إلا بما أمر الله به، فمن فعل ما أمره به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنما أطاع الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) في كتاب الاعتصام، ولفظه: «ومَنْ يَأْبَى»؛ كما في نسخة الحافظ اليونيني، واللفظ المذكور هو لفظ الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٥).

[مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ فَلَيسَ مِنْهُ]

٩١- وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ، فَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، وَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي»(١).

الشَّرْح

في هذا الحديث بيان أنَّ سُنَّة الرَّسول ﷺ هي السُّنَّة السَّمحةُ والسَّهلة التي ليس فيها تشدُّد ولا غُلوٌّ ولا تطرُّف؛ كما أنه ليس فيها تساهلٌ، فهي سُنَّة معتدلة، بعيدة عن الإفراط والتفريط.

قوله: «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ» أي: من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ والرهط: من ثلاثة إلى عشرة(٢)، «إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ»، وهذا من حرصهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير، وهم إنما أرادوا الرجوع

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (٥) (١٤٠١).

(٢) انظر مادة (رهط) في: العين (٤/ ١٩)، وتهذيب اللغة (٦/ ١٠١)، والصحاح (٣/ ١١٢٨)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٥٠)، ولسان العرب (٧/ ٣٠٥).

إلى سنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليبنوا عليها ما هم عليه من العبادة، وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون، فيرجع إلى سُنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون أن يبتدع شيئًا من عنده، فهؤلاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يعتمدوا على اجتهادهم، وإنما ذهبوا إلى بيوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو القدوة، فسألوا عن عمله؛ لأجل أن يقتدوا به، فلما ذكرت لهم نساءُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»؛ أي: رأى كلٌّ منهم أنها قليلة، ثم إنهم اعتذروا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بمعنى أنهم قالوا: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مغفورٌ له ما تقدَّم من ذَنبه وما تأخَّر؛ أي: إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بحاجة إلى زيادة عبادةٍ، وأين نحن منه، وقد غفر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]؟! ومع أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مغفور له إلا أنه لم يترك العبادة، بل قام حتى تفطرت قدماه من طول القيام، ولما قالت له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟»، وذلك بعدما رأت أنه قد تفطَّرت قدماه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كثرة ما كان يقوم من الليل، قال: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**»(١)، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت سُنَّته الاعتدال، فكان يصوم ويفطر، ويصلي وينام، وكان يتزوج النساء،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٨١) (٢٨٢٠) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**»، فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ».

فلا يحرم نفسه من الراحة، ولا من المتعة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الوقت نفسِه لم يكن ليترك العبادة، بل كان يُعطيها حقها، فكان يجمع بين هذا وهذا؛ فيُعطي نفسه حقها من أمور الدنيا، ويُعطي العبادة حقها من أمور الدين.

وقوله: «**كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا**»؛ أي: استقلُّوها، وعدُّوها قليلة، ولكنهم اعتبروا أن هناك فرقًا بينهم وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث غفر الله له ذنبه ما تقدَّم منه وما تأخر، وقالوا: نحن بحاجة إلى الزيادة، وأين نحن من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! هكذا اجتهدوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال كلٌّ منهم مقالته مبيِّنًا وذاكرًا ما عليه حاله من العبادة من قيام الليل وصوم النهار واعتزال النساء، فلما بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غضب، ثم قال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلهِ** عَزَّوَجَلَّ **وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِني**»؛ فمن مال إلى التشدد وإلى حرمان نفسه مما أباح الله لها من الراحة والشهوة والاستجمام، وحمل نفسه على الجد أبدًا، فهو مخالفٌ لسُنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي**» دليل على تحريم التشدُّد والتنطُّع في العبادة، وتحريم الغُلوِّ والإفراط فيها.

وفيه: أنَّ على الإنسان أن يعتدل، وأن يأخذ من الدين بقدر ما يستطيع، فلا أحد يستطيع أن يستكمل الدين كله؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»(١)، فلا أحد يستطيع أن يصل بنفسه إلى درجة الكمال،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (٧٦) (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا قال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ المُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»(١)؛ والمُنْبَتُّ: هو الذي قُطع مركوبُه من شدَّة السير، مأخوذٌ من البَتِّ: وهو القَطْع(٢)؛ أي: صار منقطعًا، لم يصل إلى مقصوده، وفَقَد مركوبه الذي كان سيوصله لو رَفِقَ به، والراحلة هي النفس، فإذا شَددتَ عليها، قطعتك، فعلى المرء أن يأخذ من الطاعات -كقيام الليل، والصيام، وسائر العبادات- دون تشديد على نفسه؛ لأن الاعتدال هو الطريق الصحيح، وفي الحديث: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُه، وَإِنْ قَلَّ**»(٣)، ففي العمل القليل مع المداومة عليه خيرٌ كثير، بخلاف العمل الكثير المنقطع؛ فالوسط والاعتدال هو الخير، وهو أضمنُ للاستمرار، وأما الفرائض، فلابد منها، وهي ليس فيها تشدُّد، ولله الحمد.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٤١٥)، ووكيع في الزهد (١/ ٤٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: العين (٨/ ١٠٩)، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٨٣)، ومقاييس اللغة (١/ ١٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٧٨)(٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

[دُعَاءُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْغُرَبَاءِ]

٩٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا**»؛ أي: في أول بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما دعا الناس إلى توحيد الله تعالى؛ ممتثلًا قول ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١-٢]، فاستجاب له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأفرادُ على خوفٍ من الكفار؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا**»، والغريبُ: هو الإنسان الذي فارق وطنه وأهله، فسار في بلد غير بلده، وبين أُناسٍ غير أهله وأقاربه، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»(٢).

والإسلام أول ما بدأ كان أتباعه قليلين، وهم غرباء في وسط المجتمع الكافر في مكة، ولما سأل عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢) (١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: حُرٌّ، وَعَبْدٌ»[(١)]؛ أي: أبو بكر وبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم ازداد عدد المسلمين الذين دخلوا في الإسلام في مكة ومن مختلف القبائل، ثم إنه بعد الهجرة وتشريع الجهاد زادت أعدادهم، إلى أن فتح الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم إنه بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحصل ما حصل من ردَّة كثير من القبائل العربية، وقف أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموقف الحازم، فجاهد المرتدِّين، حتى أخضعهم لحكم الإسلام.

وفي عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتشرت الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، حتى وصل الإسلام إلى كثير من أصقاع الأرض، وانتشر انتشارًا هائلًا، وبلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، فظهر دين الله عَزَّ وَجَلَّ على سائر الأديان، وكثُر أتباعُه.

وبعد ذلك جاءت خلافة بني أميَّة، وانتشر الإسلام، واتَّسعت الفتوحات، وامتدَّت حتى خلافة بني العباس، وتلا ذلك فتنة التتار، وحصل فيها على المسلمين ما حصل، ثم ما زال الإسلام يَضعُف، ويَقلُّ أهلُه، إلى أن يعود في آخر الزمان غريبًا كما بدأ، فيكون عليه القَلَّة من الناس، والمراد بالإسلام: الإسلام الحقيقي، لا الإسلام المُدّعى الذي عليه كثيرٌ من الناس، ولكن العبرة بالإسلام الحقيقي، وهو الذي لا يكون عليه سوى قلّة من الناس، الذين يكونون كالغُرباء، ولهذا جاء أن المسلمين بالنسبة للأمم الأخرى غرباء، وأهل السُّنة والجماعة بالنسبة للفِرَق المخالفة التي تدَّعي

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤) (٨٣١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل.

الإسلام غُرباء كذلك، وسيؤول الأمر إلى ما أخبر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيعود الإسلام غريبًا، وما عليه إلا القلة من الناس الذين يتمسَّكون به تمسُّكًا صحيحًا، فهناك مَنْ يدَّعي الإسلام، ولكنه ليس على حقيقة ما ادّعاه، وإنما هي مجرَّد دعوى لا وزن لها، وهناك مَنْ يدَّعي الإسلام، ويتشدَّد فيه، حتى يخرج منه؛ ليصبح كالخوارج والغلاة؛ لأن الإسلام الحقيقي ليس فيه غُلوٌّ ولا تشدُّد، وهو الإسلام الصحيح، وهذا يَقِلُّ أصحابه في آخر الزمان، حتى يكون غريبًا.

ولابد من وقوع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وهذا خبرٌ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناه الحثُّ على التمسُّك بالإسلام عند حصول الغُربةِ، لئلا ينجرف الإنسان مع التيارات المختلفة والمنحرفة، بل يثبت على الإسلام مهما ناله وأصابه من المضايقات والأذى، حتى ممن ينتسبون إلى الإسلام وغيرهم من الكفار، حتى يغدو غريبًا بين الناس، وقد جاء في الحديث أنه يأتي زمان «**الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ - أَوْ قَالَ: عَلَى الشَّوْكِ**»(١)، فما أحوج المسلم في ذلك الوقت إلى الصبر، وإلا فإنه سينحرف، وقد سئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغرباء؟ فقال: «**الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»(٢)، وفي رواية: «**طُوبَى للغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ٣٣-٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده (٢٤/ ٢٣٧) من حديث عبد الرحمن بن سَنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي إسناده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة. قال الحافظ: (هو واهٍ)، وقال البخاري: (حديثه ليس بقائم). انظر: تعجيل المنفعة (١/ ٨٠٠)، ومجمع الزوائد (٧/ ٢٨٧).

وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٦٧) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ سُنَّتي»[١]، فهؤلاء هم الغرباء، يَصلحون في أنفسهم، ويُصلحون ما أفسده الناس، ومن يصبر على هذا إلا أهل الإيمان والثبات؟

وكما أن الإسلام في غربته الأولى نال أهله من الأذى والمضايقات ما نالهم، فسينال المسلمين في آخر الزمان المتمسكين بالإسلام أشدُّ مما نال الأولين؛ لأن الأولين فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن في آخر الزمان نجد أن المتمسك بالإسلام ليس له أعوانٌ ولا أنصار، بل هو واقع بين أعداء كثيرين، وقد يكون بعض هؤلاء الأعداء من أهله، أو حتى من أولاده وإخوانه وجيرانه، فيحتاج المسلم المتمسِّك بدينه إلى صَبر وثبات؛ ولهذا فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**طُوبَى للغُرَبَاءِ**»؛ وذلك لموقفهم الثابت.

ومعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى للغُرَبَاءِ**»؛ أي: إن لهؤلاء الغرباء الفرح والخير وقُرَّة العين، أو نِعْمَ ما لهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد:٢٩]. وقيل: (طُوبَى): شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلها مئة عام، تخرج منها حُلَل أهل الجنَّة[٢]،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٢٩) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «**شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**».
وأخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨/ ٢١١) عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ، وَآمَنَ بِكَ، قَالَ: «**طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي**» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: =

وقيل: الجنة تسمى طُوبى(١)، فتكون هذه للغرباء في آخر الزمان، فلهم الجنة؛ عوضًا عما فاتهم في الدنيا من الراحة والتلذُّذ بالعيش، فيُعوِّضهم الله نعيمًا لا ينفد.

فهذا حديث عظيم يدلُّ على هذه الأمور العظيمة، وفيه الحثُّ على التمسُّك بالإسلام مهما وصل المسلم من الأذى والمضايقات، فمن أراد الأجر؛ ليكون من أهل طوبى، فليصبر على ما هو عليه من الدين الصحيح ومن الحقِّ.

=يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا».

وله شواهد في الصحيحين، أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٧٦)، والنهاية في غريب الحديث (٣/ ١٤١).

[نَفْيُ الْإِيمَانِ عَنِ الشَّخْصِ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

٩٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ(١).

الشَّرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هَوَاهُ»**؛ يعني: رغبته ومَيْله ومحبَّته لما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن خالف هواه وما تريده نفسه، فإذا بلغ هذه المنزلة، فصار يُحبُّ ما يحبه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اعتُبر هذا علامة من علامة الإيمان.

وهذا الحديث (رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ)، وهو كتاب جليل مطبوع في أربعة عشر مجلدًا، وهو مرجع من مراجع الإسلام، والبغوي: هو الإمام محيي السُّنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، له التفسير المشهور المسمى (معالم التنزيل)، وله (شرح السُّنَة).

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٨٨) وقال: (تفرد به نعيم بن حماد)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، ورواه النووي في أربعينه (ح٤١) وقال:(هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح). وانظر: تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٧، ٣٨٨).

وقوله: (صَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ)؛ أي: في (الأربعين النووية)، فقال: حديث صحيح، رويناه في كتاب (الحجة) بإسناد صحيح؛ وكتاب (الحجَّة) اسمه (الحجَّة على تارك المحجة)، وهو كتاب طُبع أخيرًا محققًا، للفقيه نصر المقدسي. فالإمام النووي حكم بصحة إسناد هذا الحديث، بينما الحافظ ابن رجب في (شرح الأربعين) ضعَّف هذا الحديث، ولكن الحديث له شواهد من القرآن الكريم، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فالآية واضحة في أن المسلم لايكره حُكم الله تعالى وحكم رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو كان يخالف رغبته، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:٩]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد:٢٦]، فالآيات تشهد للحديث في أنه يجب على المسلم أن يكون هواه تابعًا لِما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن كان هواه مخالفًا لِما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كافر؛ لأن من نواقض الإسلام بُغض

الرسول ﷺ، أو بُغض ما جاء به، وأما إن كان لا يُبغض ما جاء به الرسول ﷺ، ولكنه يتكاسل، ويتثاقل عن العمل بما جاء به الرسول ﷺ، فهو ناقص الإيمان، ولا يكون مرتدًا، فيكون قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ**»؛ يعني: لا يؤمن الإيمان الكامل؛ أي: نفيٌ لكمال الإيمان، وأما إن كان يبغض ما جاء به الرسول ﷺ، فهو نفيٌ للإيمان وأصل الإيمان.

[صِفَةُ الْمِلَّةِ النَّاجِيَةِ مِنَ النَّارِ]

٩٤- وَعَنْهُ -أَيْضًا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً، لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة، فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عن وقوع التشبُّه باليهود والنصارى، وقد نُهينا عن التشبُّه بهم، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[2]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وقال: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٢١٨)، وكلاهما من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٧)، والصغير (٢/ ٢٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وروي نحوه من حديث أبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.
وصححه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣)، والحديث فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، قال الحافظ في التقريب: (ضعيف في حفظه، وكان رجلًا صالحًا). وانظر: تهذيب التهذيب (٦/ ١٧٣)، والميزان (٢/ ٥٦١)، والكامل (٤/ ٥٩٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٩/ ١٢٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الحديث أقلُّ أحواله أنه يقتضي تحريم التشبُّه بهم، وإن كان ظاهرة يقتضي كُفر المتشبِّه بهم)(١).

وذلك أن مَنْ تشبَّه بهم في الظاهر، فهذا دليل على أنه يُحبُّهم في الباطن؛ إذْ لو كان يُبغضهم في الباطن، لما تشبَّه بهم، فلا يجوز التشبُّه بالكفار وبعباداتهم ودينهم، ولا في عاداتهم وتقاليدهم؛ لأنَّ المسلمين أعزُّ الأمم، فينبغي عليهم الاعتزاز بدينهم؛ فلا يقلِّدون أحدًا إلا أهل الخير والدِّين والصلاح من المسلمين، ولا يقلِّدون أهل الضلال والكفر والإلحاد، بل يترفَّعون عن ذلك، ويستقلُّون بشخصيَّتهم، وإن كان بعض مَنْ يتشبَهون بالكفار يريد الرُّقي والكمال، فيرى أنهم متقدِّمون في الجانب الحضاري والتشبُّه بهم -في زعمه- رُقيّ، وهو في حقيقته ضلال، فقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَلَنْ نَلْتَمِسُ الْعِزَّ بِغَيْرِهِ»(٢).

وقد أخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن التشبُّه سيكون «**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**»؛ يعني: لا يُترك شيء من أفعالهم إلا ويفعله المتشبِّه بهم، حتى يُصبح مثلهم كما يُشْبه النَّعلُ النَّعلَ الآخر، سواء بسواء، فيقلِّدهم، ويتشبَّه بهم في كل شيء، وما يجري في وقتنا الحاضر يشهد لذلك، فقد أصبح تقليد الكفار والتشبه

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٧٠)، والمستدرك على الفتاوى (٣/ ٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠، ٩٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ الشَّامَ أَتَتْهُ الْجُنُودُ، وَعَلَيْهِ إِزَارٌ وَخُفَّانِ وَعِمَامَةٌ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ بَعِيرِهِ يَخُوضُ الْمَاءَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَلْقَاكَ الْجُنُودُ وَبِطَارِقَةِ الشَّامِ، وَأَنْتَ عَلَى هَذَا الْحَالِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَلَنْ نَلْتَمِسُ الْعِزَّ بِغَيْرِهِ».

بهم منتشرًا حتى في الأمور التافهة والحقيرة، فيتخذونها على أنها من الرُّقي والتقدم، وهم يعلمون أنها تافهة وحقيرة، لا لشيء إلا لأن الكفار يفعلونها، فهذا مصداق قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَذْوَ النَّعل بالنَّعل**»، وفي حديث: «**حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»[1]، بل هناك ما هو أشدُّ من ذلك، وهو قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**»؛ والتشبُّه بالكافر في وقتنا الحاضر على مصراعيه، وربما يبلغ إلى الحدِّ الذي ذكره الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإذا كان الزِّنى محرَّمًا، وهو من أشد الكبائر؛ وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، فكيف إذا كان هذا في ذات محرم؟! فهو أشد، وكيف إذا كان بالأم؟! فهو أشدُّ وأشنع، ولكن سيبلغ التشبُّه والتقليد للكفار لدرجة أنه إن كان فيهم مَنْ يزني بأُمِّه علانية، فسيكون في هذه الأمَّة مَنْ يزني بأُمِّه؛ وهذا تحذير منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألَّا نَنْساقَ وراء التشبُّه بالكفار.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً**»، فاليهود والنصارى كذلك افترقوا في دينهم، فاليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى افترقت إلى ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وكلُّ هذا من باب التشبُّه باليهود والنصارى،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، ومسلم (٦) (٢٦٦٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ**».

لما افترقوا في دينهم، تشبَّه بهم من هذه الأمة من تفرقوا في دينهم، مع أن الواجب هو أن يكون الدين واحدًا، لا اختلاف فيه ولاتفرُّق، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، فالواجب على المسلمين هو اجتماع كلمتهم على الحق، وعلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى عدم التفرُّق والاختلاف، ولكن سيقع ما قضى الله وقدَّر وأخبر عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن هذه الأُمة ستفترق، وقد افترقت على ثلاث وسبعين فرقة وأكثر.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ**»، هذا وعيدٌ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الفرق في أنه سيكون منهم مَنْ هو في النار لكفره، إذا بلغ التفرَّق درجة الكفر، ومنهم من يكون في النار لضلاله، وقد يدخل النار من لا يخلَّد فيها، بل يعذَّب فيها، ثم يخرج منها، فهم كلهم متوعَّدون بالنار؛ إما لكفرهم، وإما لضلالهم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**»؛ أي: كلهم متوعَّدون بدخول النار إلا فرقة واحدة، «قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»، فلا ينجو من النار إلا هذه الفرقة، ولذلك تُسمى الفرقة الناجية، وهم أهل السُّنة والجماعة؛ فتسمى بالناجية؛ لأنها نَجَتْ من النار بتمسُّكها بما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ولم يفترقوا ويختلفوا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ**

الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١)، فلا ينجو من النار إلا من كان على ما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأما من خالف وذهب مع الفرق، فإنه معرَّض للوعيد بالنار.

ففي الحديث: النهي عن التفرُّق والاختلاف، ولكن الاختلاف من طبيعة البشر، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا جعل لهم مخرجًا من هذا الاختلاف، وهو الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، فالمخرج من الخلاف أو الاختلاف هو الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]، فالمرجع الذي يُعرف به الحقُّ من الباطل مما اختلف فيه الناس هو كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن كل فرقةٍ ستدَّعي أنها على الحق وغيرها على خطأ أو ضلال، ولكن الفصل هو الرجوع إلى ما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإلى كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٧).

[أَجْرُ مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى، وَإِثْمُ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ]

٩٥- وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١).

الشَّرح

في هذا الحديث أن الدعوة إن كانت إلى حقٍّ، فهي مشروعة ومطلوبة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فالدَّعوة إلى الحق مطلوبة ومأمورٌ بها، وفيها فضل عظيم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى**»؛ أي: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»؛ أي: يناله أجرٌ عظيم؛ لأنَّ كلَّ مَنْ تبعه واقتدى به وعمل بالهدى، فإنَّ الدَّاعي الأول له مثل أجور مَنْ تَبِعَه إلى يوم القيامة، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له مثل أجور أُمَّتِه، وكذلك أئمة الإسلام الذين دعوا إلى الله تعالى، وألفوا الكتب، واهتدى الناس بدعوتهم على اختلاف العصور لهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٦) (٢٦٧٤).

من الأجر مثل أجور مَنْ تبعهم إلى يوم القيامة، وفي هذا فضلٌ عظيم، وخيرٌ كثير.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ**»، الضلالة ضد الهدى؛ أي: دعا إلى باطل وبدع ومحدثات وخرافات وإلى شركيات، «كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥]، فدُعاة الضلال عليهم من الآثام مثل آثام من اقتدى بهم وعمل بالضلال؛ تبعًا لهم، فيتحملون ذلك، ويجري عليهم الإثم، حتى وهم أموات.

وأما دُعاة الحقِّ، فيجري عليهم الأجر وهم أموات؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١)، فيجري أجرُ العلم على صاحبه إلى يوم القيامة، حتى وهو ميت، وفي هذا خير كثير.

ففي الحديث: فَضْلُ الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الدعوة إلى الحقِّ.

وفيه: النهي والتحذير من الدعوة إلى الضلال.

وفيه: أن الدُّعاة ينقسمون إلى قسمين: دُعاة هدًى، ودعاة ضلال، وهذا واقع في حياة الناس اليوم، ودعاة الضلال في وقتنا الحاضر أكثر من دُعاة الهدى، فلا يُغترُّ بهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤) (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِه]

٩٦- وَلَهُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»**[1].

الشَّرْح

وهذا الحديث كسابقه في بيان عظم أجر فعل الخير والدلالة عليه والدعوة إليه، وأن أجره يكون مثل أجر فاعله.

وقوله: «**أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي**»؛ أي: انقطعت راحلتي، أو هلكتْ دابَّتي، وهي مركوبي. فطلب من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُحمله بأن يعطيه دابَّةً يركبها، ويَحمل عليها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتذر إليه بقوله: «**مَا عِنْدِي، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ**».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»، والدلالة على الخير تشمل الخير المعنوي، وتشمل كذلك الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك من دل أحدًا على آخر يعينه، كمن دل محتاجًا على واحدٍ من المحسنين ليُعينه، فله من الأجر مثل أجر الْمُحسِن الذي حقَّق طلب هذا المحتاج.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣) (١٨٩٣).

ففي الحديث: الحثُّ على التعاون على البِرِّ والتقوى.

وفيه: أن من دل على الخير، كان له من الأجر مثل أجر فاعله، وهذا ترغيب للدلالة على الخير المعنوي والحسِّي.

[أَجْرُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

٩٧- وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لَا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ -وَحَسَّنَهُ-، وَابْنُ مَاجَه، وَهَذَا لَفْظُهُ(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي»، المراد: من عَمِلَ بسُنَّةٍ من سُنن الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أنْ تُركتْ من الناس أو جهلوها، ثم نَشرها أحدُ الناس: «فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا»؛ ففي هذا الحثُّ على إحياء السُّنَن التي قد نسيها الناسُ أو جهلوها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لَا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا»، هذا فيه أنَّ من أحيا أو ابتدع بدعة، فعليه من الإثم مثل آثام مَنْ عمل هذه البدعة، وفي هذا -أيضًا- ردٌّ على مَنْ يُروِّجون للبدع؛ من إحياء الموالد، وزيارة آثار الصالحين والتبرُّك بها، فهؤلاء عليهم من الإثم مثل آثام مَنْ تبعهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٧) وقال: (هذا حديث حسن)، وأخرجه ابن ماجه (٢١٠)، والبزار في مسنده (٨/ ٣١٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٢٨).

[أَسْبَابُ الْفِتَنِ]

٩٨- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ، يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّةٌ يَجْرِي النَّاسُ عَلَيهَا؛ فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ، قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّةٌ. قِيلَ: مَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ، وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(١).

الشَّرْح

هذا أثرٌ عظيم من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابيِّ الجليل، قوله: «كَيْفَ أَنْتُمْ»؛ أي: كيف يكون حالكم؟ أو كيف تكونون؟

وقوله: «إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ»؛ أي: خالطتكم، «يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ»؛ يعني: ينشأ عليها الأطفال، «وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ»؛ أي: يَكبرُ، ولم تُغيَّر حتى تستقر، ويَظنُّها الجهال سُنَّة.

وقوله: «وَتُتَّخَذُ سُنَّةٌ يَجْرِي النَّاسُ عَلَيهَا؛ فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ، قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّةٌ»؛ أي: تُتَّخذ السُّنة بدعة، والبدعة تُتَّخذ سُنَّة، وسيكون هذا في آخر الزَّمان، فإذا ما دعا أحد الناس إلى سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: هذا مبتدع، أو خارجي، أو وهابي، فيُلقِّبونه بألقاب شنيعة؛ لأنه خالف ما

---

(١) أخرجه الدارمي (١٩١)، وعبد الرزاق (١١/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٢١٢).

عليه الناس؛ علمًا بأن المطلوب هو الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، لا ما عليه الناس؛ فدل على أن ما عليه الناس لا يُتخذ حجَّة ما دام مخالفًا لما جاء في سنة الرسول ﷺ، وإن تطاول زمنها أو توارثها الناس، فلا عبرة بها، فينبغي التفطن لهذا الأمر؛ لأنها إذا استقرت في عقول الناس، ظنوها سنة، لدرجة أنهم يُدافعون عنها، ويقولون: (غُيِّرت السُّنة)؛ لجهلهم بذلك، فدل هذا على أنه يجب المبادرة لإنكار البدع والمحدثات، ولا يجوز السُّكوت عنها؛ لأنه إذا سكت عنها، توارثها الناس، واحتجوا بها.

وقوله: «**قِيلَ: مَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟**»، هذه كنيته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واسمه عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذلي، من السابقين الأوَّلين إلى الإسلام.

وقوله: «**إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ**»، الفقه: هو الفهم في دين الله عَزَّ وَجَلَّ، قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا، يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١)، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢]، فلم يقل جَلَّ وَعَلَا: ليحفظوا أو ليقرؤوا، وإنما قال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾، فالمدار هنا على الفقه والفهم عن الله ورسوله ﷺ، وأما الذي يَحفظ النصوص، ويقرؤها، ويُكثر المطالعة في الكتب، دون أن يفهمها، فهو من القراء، وليس من الفقهاء، ومثل هذا يكثر في آخر الزمان؛ حيث يكثر القراء الذين يحفظون النصوص، ويطَّلِعون على الكتب، وليس عندهم فقهٌ وفهمٌ لما تدلُّ عليه، وهذا كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٧٥) (١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

النَّاسُ رُءوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[١]، فدلَّ على أن فُقدان الفقهاء في المجتمع خطر عظيم، وأن وجود القراء لا يكفي، ولا ينفع، ولا يُسمن، ولا يغني من جوع، بل يضر؛ لأنهم يفتون بغير علم؛ ولهذا قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والأماني: هي القراءة، فيقرؤون كثيرًا، ولكنهم لا يَفهمون، فينبغي التفقُّه في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك بالتلقِّي عن أهل العلم والفقه في دين الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة:١٢٢]؛ يعني: سافروا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى العلماء؛ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾، لا أن يبقوا في بلادهم أو بواديهم يقرؤون القرآن؛ لأن هذا لا يكفي؛ لأن العلم هو الفقه، وليس الحفظ فقط، ولكن الحفظ وسيلة إلى الفقه، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»**[٢]، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«رُبَّ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»**[٣]، فقد يسمع المرء ويحفظ دون وعي، ولكن ربما يُبلغ هذا إلى إنسان فقيهٍ يعرف معناه، فليس المدار على ما عليه الكثير من الشباب اليوم؛ حيث عكفوا على قراءة الكتب، ثم تصدَّروا للشرح بعدما

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (١٣) (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، والنسائي (٥٨١٦)، وأحمد في المسند (٣٥/ ٤٦٧)، والدارمي (٢٣٥)، وأبو يعلى (٩/ ٦٢)، وابن حبان (٢/ ٤٥٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٤٣) وفي الأوسط (٧/ ٢٠١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٣). وكتب فضيلة الشيخ عبد المحسن العباد رسالة أثبت فيها تواتره.

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (٢٩) (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قرؤوا، أو تعلَّم بعضهم على يد البعض الآخر، وتركوا العلماء، ففي هذا خطر شديد، وهو الذي حذَّر منه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل حذَّر منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ»، فدل على أن كثرة القراءة والقراء لا يفيد شيئًا.

وقوله: «وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ»، هذه هي الآفة، وهي قلَّة وجود الفقهاء أو انعدامهم.

وقوله: «وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ، وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ»؛ حيث يفشو المال في آخر الزمان، وتُنزع الأمانة من قلوب الناس، فيكثر الخداع والغش والكذب في معاملاتهم.

وقوله: «وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ»، هذا كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود:١٥]؛ يعني: يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ويتعلَّم العلم الشرعي لأجل الوظيفة وحمل الشهادة، لا رغبةً في العلم، ويكون النظر دائمًا للمستقبل الدنيوي، لا الأُخروي، وهذا واضح من عمل بعض الناس اليوم؛ حيث يطلبون الدنيا في أمور الآخرة، إلا مَنْ رحم الله.

فالواجب على المسلم أن يُخلص عمله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه الأحوال هي التي تكثُر فيها البدع والمنكرات؛ لأن كل واحد منهمك في دُنياه!

[مَنْ يَهْدِمُ الإِسْلَامَ]

٩٩ - وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ أَيْضًا(١).

الشَّرْح

هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمير المؤمنين، وقد بين ما يمكن أن يهدم الدين، ويسيء إلى الإسلام وأهله.

فقوله: «زَلَّةُ الْعَالِمِ»؛ لأنَّ العالِمَ إذا أخطأ، وأفتى بفتوى خاطئة، اتَّخذها الناس على أنها فتوى من عالم، وهذا مما يُوجب على العالم الحذر من الإقدام على الفتوى، إلا إذا تثبَّت من دليلها من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يتسرَّع في الفتوى، فيُفتي، ويأخذها الناس على أنها صواب؛ لأنها من عالِم، بخلاف فتوى العوام، الذين لا عبرة بما يصدر منهم؛ لأن الناس يعرفون أنه لا يصلح للفتوى، ولكن المشكلة أن يصدر الخطأ في الفتوى من العالِم المعروف بالعلم! وهذا مما يؤكِّد ويُوجب على العلماء أن يتأكَّدوا ويتحرَّوا، ويتثبَّتوا في الفتوى؛ لئلا يخطؤوا، فتصير فتواهم حجَّة للناس والعوام، فيأخذون بها، وهي خطأ.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢١٤).

وقوله: «**وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ**»، المنافق: هو الذي يُظهر الإسلام ويُبطن الكُفر، ويحفظ القرآن، ويقرأ الكتب، ويتعلم؛ حتى يكون عليم اللسان، لا عليم القلب، فتراه يُجادل بالكتاب والسُّنة؛ لأنه يحفظ النُّصوص، ويُغرِّر بالناس؛ كما يفعل بعض الكتاب في وقتنا الحاضر الذين يلتمسون بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة للدلالة على مقالاتهم الضالَّة، وفي هذا خطر عظيم؛ لأنه إذا ما برز المنافقون في الكتابة والتأليف والخطب والمحاضرات والندوات، فستكون الأمَّةُ على خطر؛ لأن الناس لا يعلمون نفاقهم، ولا يعلمون أنهم لا يفهمون الكتاب والسُّنة، فإنهم إذا ما سمعوا الآية أو الحديث، ربما يقتنعون بما يصدر عن هؤلاء.

وقوله: «**وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ**»، والمراد بهم السلاطين المضلُّون الجبابرة الذين لا يريدون الحقَّ، فهم يهدمون الإسلام؛ لأن الناس يتبعونهم؛ إما خوفًا من سطوتهم، وإما رغبةً فيما عندهم من حُطام الدنيا.

فأخطر ما يكون على المسلمين هؤلاء الأصناف الثلاثة، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٣٧/ ٧٩) من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأصله في مسلم (١٩) (٢٨٨٩).

[وُجُوبُ الْاقْتِدَاءِ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ]

١٠٠- وَعَنْ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا تَعَبَّدُوهَا؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللهَ مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

الشَّرْح

هذا مرَّ نحوه في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والذي فيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(٢)**، وهنا يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا تَعَبَّدُوهَا»**.

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم القدوة بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم تلاميذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذوا وتلقوا العلم عنه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(٣)**، فهم أفضل الأمَّة، وهم

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص١٦)، والمروزي في السنة (١/ ٣٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٠). وأخرجه البخاري بنحوه (٧٢٨٢) عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ القُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا».

(٢) سبق تخريجه (ص٣١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢١٠) (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القدوة بعد الرسول ﷺ؛ لأنهم أُمناء على دين الله، فيؤخذ عنهم العلم والدِّين.

وقوله: «**فإنَّ الأوَّل لم يَدَع للآخِر مقالًا**»، أول الأمَّة: هم الصحابة رضي الله عنهم، والتابعون والقرون المفضَّلة لم يَدَعوا لَمن جاء بعدهم مقالًا، فقد بيَّنوا الدِّين، وبيَّنوا الحقَّ، وقعَّدوا القواعد، فهذا فيه الترغيب بالتمسُّك بما كان عليه السَّلف الصالح، وفيه التحذير ممَّن جاء بعد القرون المفضَّلة، إلا مَنْ كان سائرًا على ما كان عليه السَّلف الصالح من الأئمَّة الهُداة.

وقوله: «**فَاتَّقُوا اللهَ مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»؛ أي: اتبعوا سبيل العلماء، الذين يقرؤون كتاب الله، ويتَّبعون سُنَّة رسول الله ﷺ، ولا تُحدِثوا شيئًا من عندكم، أو تأخذوا عمَّن جاء بعد هؤلاء.

١٠١- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ». رَوَاهُ رُزَيْنٌ**(١).

الشَّرْح

وهذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كانت كلماته كلها حكمة ونور، التي رسم فيها الطريق الصحيحة، التي من خلالها يصل المسلم إلى السُّنة الصحيحة، دون انحراف أو اعوجاج عن الصراط المستقيم.

فقوله: «**مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ**»؛ لأن الميت قد انتهى، ولا يُخشى عليه من الفتنة، وأما الحيُّ، فإنه عُرضة للفتن، فمن أراد الاقتداء، فليقتدِ بالأئمة السابقين، وأما بالنسبة لمن جاء بعدهم، فإنه يؤخذ منهم ما وافقَ الحقَّ، ويُترك ما خالفه.

وقوله: «**أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»، وهذا مثل قول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سبق في الأثر السابق القائل فيه: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا تَعَبَّدُوهَا»؛ لِمَا في

(١) رواه رزين كما في المشكاة (١/ ٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥).

الصحابة -رضوان الله عليهم- من الصفات التي لا توجد في غيرهم من هذه الأمة؛ لأنهم كانوا «أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا»، فقلوبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ أتقى قلوب هذه الأمة، وعلمُهم راسخ، وليس متذبذبًا، وإنما هو ثابتٌ على الكتاب والسُّنة، ولا يتكلَّفون الكلام وكثرته، وإنما يقتصر كلامهم على الإفادة، ولهذا يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان المتقدِّمون أكثر علمًا، وأقل كلامًا، والمتأخِّرون أكثر كلامًا، وأقل علمًا)[(١)].

وقوله: «**اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ**»؛ لأنه سبحانه ما اختارهم إلا لعلمه بأنهم يصلحون لخلافة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمَّته.

وقوله: «**فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ**»، فلاتنتقصوهم، أو تتكلموا فيهم؛ كما يفعل المبتدعة وأهل الضلال من الرافضة والمعتزلة وغيرهم، بخلاف أهل السُّنة، الذين يقدِّرون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويحترمونهم، ويُجلُّونهم، ويترضَّون عنهم، ويقتدون بهم، ويثقون بهم تمام الثقة.

---

(١) انظر: فضل علم السلف على الخلف (ص٥-٦).

[تَحْرِيمُ الْمُجَادَلَةِ فِي الْقُرْآنِ]

١٠٢- وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ، فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ، فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه(١).

الشَّرْح

إن القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]؛ وقد فصِّلت آياته، ويصدِّق بعضه بعضًا، ويفسِّر بعضه بعضًا، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فكلام الله جَلَّ وَعَلَا معصوم من الاختلاف ومن أن يُناقض بعضُه بعضًا، بل يصدِّق بعضُه بعضًا، ويُفسِّر بعضُه بعضًا، وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، فهناك آيات واضحة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٥٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٢٧).

وأخرج ابن ماجه نحو هذا الحديث (٨٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ، تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**».

في نفسها، وهي المُحكَمة، وهناك آيات يحتاج في تفسيرها لآيات أخرى؛ لأنه لا يتَّضح المطلوب منها في نفسها، بل لابد من ضمِّها إلى الآيات المُحكَمة لتفسِّرها، فطريقة الراسخين في العلم: أنهم يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض؛ فالمُطلق منه تقيِّده آيات أخرى، والمُجمل توضِّحه آيات أخرى، وهناك آيات منسوخة، تنسخها آيات أخرى، وهذا يحتاج إلى معرفة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز للإنسان أن يَدْخُل في تفسير كتاب الله دون أن يكون عنده أصول يعرف بها كيف يفسِّر كلام الله، ولذلك وضع العلماء قواعد للتفسير، تسمى أصول التفسير، ولابد لطالب العلم أن يعرف هذه القواعد وهذه الأصول.

وأما الذين في قلوبهم زيغ وهدفهم التلبيس على الناس، وتشكيكهم في دينهم، فإنهم يأخذون المتشابه، ويستدلون به، دون أن يردُّوه إلى المُحكَم، وسيأتي في الحديث: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**»(١)، وهناك صنفٌ آخر ليس عندهم زيغ، وإنما عندهم جهل، فلا يُتقنون تفسير القرآن على الوجه المطلوب، فيأخذون الآيات المتشابهات، دون أن يردُّوها إلى المُحكَمة، ويستدلون بها، لا عن زيغٍ، ولكن عن جهل، وهذا حرام، ولا يجوز، والأول كفر؛ لأن الذي يقصد التلبيس فهو كافر، وأما الذي حمله الجهلُ على هذا المدخل، فهذا يعتبر ضالًّا، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٢)،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (٣/ ٤٩٦) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وقال: «**مَنْ قَالَ: فِي كِتَابِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **بِرَأْيِهِ، فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ**»(١)، فكتاب الله جَلَّوَعَلَا يُجَلُّ ويعظم، فلا ينبغي أن يدخل في تفسيره والاستدلال به إلا أهل العلم والرسوخ، قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ مِنۡهُ ءَايَـٰتٌ مُّحۡكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَـٰبِ** ﴾ [آل عمران:٧]، والأُم هي التي يَرجع إليها الشيء، ﴿ **وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ** ﴾ [آل عمران:٧]، والناس في ذلك قد انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: وهم أهل الزَّيغ الذين أخذوا المتشابه، وتركوا المُحكَم بقصد التضليل.

القسم الثاني: وهم أهل الرسوخ في العلم، وهم الذين يردُّون المتشابه إلى المحكم. ويقولون: كلٌّ من عند ربِّنا -المحكم والمتشابه-، فلايأخذون طرفًا، ويتركون الطرف الثاني؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضًا.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث خرج على الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وهم يبحثون في بعض الآيات المُشكلَة، فوجَّههم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقال: «**فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ، فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»؛ لأنَّ الذي لا يُحسن ولا يُتقن فَهْم كلام الله لا يدخل في تفسيره، ويتقوَّل على الله بأنه أراد كذا وكذا، ففي هذا خطر عظيم عليه وعلى غيره، فإذا كان لايعلم، فليتوقَّف، ويَرُد عِلْمَه إلى عالِمِه سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والحاصل أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز الخوض فيه إلا بعلمٍ وبصيرةٍ وإلمامٍ بقواعد وضوابط تفسيره.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وقوله: «قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ»؛ أي: يتدافعون، فيُبدي كلُّ واحد رأيه، ويخطّئ الآخر، فيختلفون في تفسيره.

وقوله: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا»؛ أي: من اليهود والنصارى، فحرَّفوا التَّوراة والإنجيل، وغيَّروا فيهما، فهلكوا.

وقوله: «ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ»؛ يعني: جعلوا بعضه يُعارض بعضًا، في حين أنه لا يتعارض أبدًا، ولكن هذا يحتاج إلى علمٍ وبصيرة؛ لئلا يقع هذا التعارض المزعوم.

وقوله: «وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، فالآيتان مختلفتان في الظاهر، فواحدة تُوجب العِدَّة سنة، والأخرى توجب العدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام، وفي هذا يقول العلماء: إن آية الحول منسوخة بآية الأربعة أشهر وعشرة أيام، فالعدة للوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وأما المتاع للحول، فهذا كان في أول الأمر، ثم نُسخ، والقرآن يدخله النسخ، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، فلا تعارض بين الآيتين؛ لأن العمل على الآية الأولى، وأما الثانية، فهي منسوخة. وفي مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، فهذه فيها الأمر بالوصية للوالدين، وهي

منسوخة بآية المواريث: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ ۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ ۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ [النساء:١١]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»(١)، فلا يُجمع للوالدين بين الميراث والوصية، ومثل هذا الاستنباط والفهم يحتاج إلى علم وبصيرة، وأصول التفسير تُبيِّن هذه القواعد وتوضِّحها، وكذلك سُنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسر القرآن وتوضحه، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]، فلم تذكر الآية من أين تُقطع اليد، ولكنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أنها تُقطع من مَفصِل الكفِّ من الذِّراع، فقد بيَّنَتْهُ السُّنة العملية من الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم لم تذكر الآية أيَّتهما تقطع اليمنى أم اليسرى، وقد جاء في قراءة ﴿ **فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا** ﴾(٢)، فهذه القراءة تفسِّر المطلق، وهذا يحتاج إلى سعة علم وبصيرة. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣]، فلم يذكر في الآية عدد الركعات وهيآتها، ولا عدد الصلوات، فلا نجد بيان هذا وتوضيحه إلا في السُّنة النبوية الشريفة، وقد بُيِّن في آيات أخرى أوقات الصلوات، ومن ذلك

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وأحمد (٥/ ٢٦٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره البخاري معلقًا (٣/ ١٠٠٨) كتاب الوصايا، بَاب: لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٨/ ٤٠٨) عَنْ عَامِرٍ قَالَ: فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم:١٧-١٨]، فيُفسِّر القرآن بعضه بعضًا، والسُّنة كذلك تفسِّره.

ومن ذلك لا نجد مقادير الزكاة المستحقة من الأغنياء للفقراء، وما هي الأموال التي تجب فيها، ومتى تَجِبُ، وكم النِّصاب، فهذا وغيره بَيَّنَتْهُ السُّنة النبوية الشريفة، فلابد من التعقُّل في هذه الأمور، وتركها لأصحاب الرُّسوخ في العلم الذين يفسرون كلام الله بعضه ببعض أو بسُنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القولية والعملية.

٩- بَابُ التَّحْرِيضِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَكَيفِيَّةِ الطَّلَبِ

١٠٣- فِيهِ حَدِيثُ الصَّحِيحَينِ فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ: «أَنَّ الْمُنَعَّمَ يَقُولُ: جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا، وَاتَّبَعْنَا، وَأَنَّ الْمُعَذَّبَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُ»(١).

الشَّرْح

هذا الحديث فيه ذَمُّ التقليد الأعمى، وذلك أنَّ المعذَّب هو المقلِّد الذي يقول: «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُ»؛ لأنه لا يؤمن به، ولم يتعلَّم كتابَ الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا حاول أن يتعلَّم أمورَ دينه؛ لأنه لا يهتم به، وإنما أخذ الدِّينَ بالتقليد فقط، وهذا مما ينبغي أن لا يكون؛ لأنَّ الواجب على المسلم أن يتعلَّم أمور دينه، والعقيدة لا يجوز فيها التقليد مطلقًا، فلابد للإنسان من أن يتعلَّم عقيدته -إما مجملةً، وإما مفصَّلة-، حسب الاستطاعة، ولا يقلِّد أحدًا فيها، وهذا هو الذي يقول فيه المعذَّب: «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُ»؛ بعدما يُجيب بـ«لا أدري»، إذا ما سئل عن ربِّه ودينه ونبيِّه؛ فالتقليد في العقيدة لا يجوز، ولابد من تعلُّمها، وأقل الأحوال

---

(١) حديث فتنة القبر أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (١١) (٩٠٥) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفي الباب من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبي هريرة، وجابر، وعائشة، والبراء بن عازب، وأبي سعيد، رضي الله عنهم أجمعين. انظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٧، ٢٣٨).

في ذلك أن يتعلم المختصرات في العقيدة المشتملة على أنواع التوحيد وأنواع الشِّرك وما يتعلق بهما؛ حتى يعبد الله على بصيرة، ويتعلم معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويعرف من هو الرسول ﷺ، فيعرف اسمه ونسبه وموطنه ومتى بُعث ﷺ، ويعرف سيرته، وأين بُعث، وأين هاجر، فلابد من معرفة ذلك.

وينبغي كذلك معرفة الدين، وأركان الإسلام الخمسة، ومعرفة ما هو الإسلام، وتعريفه، وحقيقته، ومعرفة الأركان الستة للإيمان.

[فَضْلُ الْعُلَمَاءِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ]

١٠٤ - وَفِيهِمَا عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»**[(١)].

الشَّرْح

في هذا الحديث الوارد في (الصحيحين) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحثُّ على التفقه في الدين، وأنه على الإنسان ألا يجهل أمور دينه، بل لابد له من أن يتفقه في أمور دينه، والفقه معناه: الفهم، والمراد به هنا: فهم أمور دينه على وجهٍ يتمكن فيه من الإتيان به على الوجه المطلوب والمشروع، لا عن جهل وتقليد، وإنما عن علم وبصيرة.

فالفقه في الدِّين معناه: الفَهْم في الدِّين ومعرفته، وذلك بتعلُّمه، فمن اعتنى بدينه وتعلمه، كان ذلك دليلًا على أن الله أراد به خيرًا، ومن لم يتعلم، ولم يتفقه أمور دينه، كان ذلك دليلًا على أن الله أراد به شرًّا، فمنطوق الحديث: أن من علامة الخير تفقُّه الإنسان في دينه، ومن علامة الشرِّ أن يجهل الإنسان أمور دينه.

والفقه على قسمين:

الأول: فرض عين على كل مسلم.

والثاني: فرض كفاية.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم (٩٨) (١٠٣٧).

فالذي هو فرضٌ على الأعيان هو تعلُّم أركان الإسلام الخمسة؛ التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج، فيتفقه المسلم في هذه الأركان، ويعرف معناها؛ لأجل أن يؤدِّيها على بصيرة، وهذا لا يُعذر فيه أحدٌ بجهله، فإن جهله أحدٌ، فهو على خطر عظيم، فتعلُّم الإنسان ما لا يستقيم دينه إلا به فرضُ عينٍ.

وأما ما زاد على ذلك من فقه المعاملات والمواريث والأنكحة والطلاق والقضاء، فهو فرض كفاية، إذا قام به من يكفي من الأمة، سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركوه كلهم، أثموا جميعًا؛ لأنه لابد وأن يوجد هذا العلم؛ حتى يقوم العلماء بالحكم به بين الناس في معاملاتهم ومواريثهم وأنكحتهم، وفي القضاء فيما بينهم.

١٠٥- وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1].

الشَّرح

هذا الحديث متضمِّن للأمثلة النبوية؛ والله جَلَّ وَعَلَا يَضرب الأمثال للناس، وكذلك النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضرب الأمثال؛ لتوضيح الأحكام وترسيخها في الأذهان، وهذا مثلٌ عظيم من الأمثال النبوية.

فقد شبَّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلمَ الذي جاء به من الكتاب والسُّنة بالغيث الكثير الذي أصاب الأرض، فأحياها، وكذلك العلم، فإنه تُحيا به القلوب، ثم قسَّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس مع العلم إلى ثلاثة أقسام كأقسام الأرض تمامًا، فالأرض إذا نزل عليها المطر، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يحفظ الماء في الخوابي والأتربة، فيُنبت الكلأ والعشب، فيجتمع فيه حفظ الماء والإنبات، فينتفع الناس بالسقي والرِّي، وينتفعون بالعشب والكلأ، وهذا مثله كمثل الفقهاء المحدِّثين الذين حفظوا النصوص،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (١٥) (٢٢٨٢).

وتفقهوا فيها، وبيَّنوا فقهها للناس، فشرحوها، ووضَّحوها، كالأرض التي جمعت الماء، وأنبتت الكلأ، فحِفظُ العلماء للنصوص والأحاديث مَثَله كمَثَل جَمعِ الماء في الغدران وفي باطن الأرض، وتفقُّههم مثَلُه كمثل إنبات الكلأ، فهؤلاء يقال لهم: فقهاء الحديث؛ كالإمام أحمد، والشافعي، ومالك، والبخاري، ونحوهم ممن جمع بين الحفظ والفهم الذي هو الفقه، وهؤلاء أفضل طبقات العلماء.

والقسم الثاني: هي الأرض الصُّلْبة التي لا تُنبت ولا تُنتج، ولكنها مشتملةٌ على مخابئ الماء التي ينتفع بها الناس، فيشربون منها، ومَثَل ذلك كمَثَل حُفّاظ الحديث والنصوص الذين اعتنوا بأسانيدها، وميَّزوا الصحيح منها عن غيره، فاعتنوا بحفظ السُّنة، دون أن يكون لديهم فقه بهذه النصوص، فكما تنفع الأرض الجدباء التي تحتفظ بالماء، الذي ينتفع به الناس، فكذلك ينفع هؤلاء الحفاظ الناس بما حفظوه لهم من النصوص التي نفع الله بها بسبب حفظهم لسُنَّة نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتدوينهم لها، فهؤلاء فيهم خير كثير، لا يصل إلى درجة الصنف الأول، الذين جمعوا بين الحفظ والفقه.

والقسم الثالث: الأرض الجدباء التي لا تُمسك ماء، ولا تُنبت كلأً، وهذه مَثَلُها كمثل الذين لا يحفظون، ولا يتفقَّهون، وهذا القسم هو شرُّ الأقسام، الذي لا يُستفاد منه بشيء؛ كالأرض السَّبِخة، التي لا تنتفع بالماء، ولا تَمسِكُه لينتفع به الناس، وكذا هذا النوع الثالث من الناس، الذين ليس لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم، لاينتفعون به، ولا يحفظونه، فلا هم نفعوا أنفسهم ولا غيرهم.

وفي هذا الحديث أنواعٌ من العلم، منها ضربُ الأمثال، وفضل العلم والتعليم، وشدَّة الحثِّ عليه، وذم الإعراض عنه.

١٠٦- وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»[(١)].

الشَّرح

هذا الحديث سبق ذكره في مسألة المتشابه من القرآن، وذكرنا أن المتشابه هو الذي لا يتَّضح معناه بنفسه، وإنما بإرجاعه إلى غيره من النصوص، وهذا لا يُستدلُّ به منفردًا، بل يُرجع فيه إلى المُحكم، فيُردُّ إليه؛ ليُفسِّره، فالراسخون في العلم يجمعون بين النصوص، فيردُّون المتشابه إلى المُحكَم، وأما أهل الزيغ، فيأخذون المتشابه، ويتركون المُحكَم؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**»، والمراد من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ [آل عمران:٧]؛ يعني: تفسيره بمفرده، وهو لا يفسَّر إلا بردِّه إلى المحكم، ولا يفسر بالرأي، هذا إذا أريد بالتأويل: التفسير، وأما إذا أُريد بالتأويل ما تؤول إليه هذه الأخبار في المستقبل، فهذا لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، والمراد بتأويله هنا: مآلهُ، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجدًا، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾، وتأويلها: مآلها، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠]، فالتأويل على قسمين[(٢)]:

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥٩).

(٢) انظر معاني التأويل في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٦٨ - ٦٩، ١٣/ ٢٨٨ - ٢٩٤)، ودرء التعارض له (١/ ٢٠١ - ٢٠٨)، والصفدية (١/ ٢٩١).

الأول: تأويل يُراد به التفسير، وهذا يعرفه العلماء الراسخون في العلم.

الثاني: تأويل يراد به ما يؤول إليه المغيَّب من الأخبار -كأخبار الآخرة والجنة والنار-، فهذا لا تُعلمُ حقيقته إلا إذا وقعت مستقبلًا، وهذا لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

[حَوارِيُّو الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُمُ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِه]

١٠٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الشَّرْح

في هذا الحديث بيان أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يكون لهم أصحاب وحواريُّون؛ أي: أنصار ينصرونهم، ويأخذون عنهم العلم، ويتلقون عنهم الشريعة، ويعملون بها، وهؤلاء الذين أخذوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم خير القرون؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(٢)، وذلك لأنهم تَلقَّوا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكتابَ والسُّنَّة والشريعة، فبلَّغوها بأمانةٍ، وعملوا بها، فهؤلاء الذين يكونون مع الأنبياء من الحواريِّينَ والأنصار، وهم أفضل الأمم.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠) (٥٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٣٤).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ**»، وهم المتأخِّرون الذين يخالف قولُهم فِعلَهم، فلا يعملون بما علموه من الحقِّ، وإنما يعملون أشياء لم يؤمروا بها، ويتعبَّدون بأشياء ابتدعوها من عند أنفسهم وبمُحدثات أحدثوها، فيتركون السُّنن، ويعملون بالبدع والمحدثات، وهذا شيء واقع، فنجد كثيرًا من هؤلاء الآن لا يلتفتون إلى السنن، وإنما يحرصون على العمل بالبدع، فلا يُبالون بالسُّنن والأوامر الإلهية، وإنما يعبدون الله على حسب ما تستحسنه أهواؤهم وما يأمرهم به أكابرهم وقادتهم، فهم يفعلون مالا يؤمرون، وفي هذا بيان الفرق بين السَّلف والخَلَفِ، وهو أن السلف يتقيدون بأوامر الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، فيتمثَّلون الكتاب والسنة، ويتجنَّبون البدع والمحدثات، وأما الخلف، فعلى العكس من ذلك؛ فهم يتركون السُّنن، ويعملون بالبدع والمُحدَثات.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»، وهذا كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)؛ فعلى أصحاب السلطة مجاهدة هؤلاء المبتدعة وأصحاب الضلال باليد، ومَنْعِهم من هذه الأمور، ومَنْ لم يكن عنده سلطة ولديه علم، فإنه يجاهدهم باللسان، وذلك بالردِّ والتعقيب عليهم وبيان الباطل الذي يعملون به، ومَنْ لم يكن عنده علم ولا سلطة، فإنه يكرههم بقلبه، ويترك ما هم عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨) (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[تَحْرِيمُ الاقْتِدَاءِ بِغَيرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لو كَانَ نَبِيًّا]

١٠٨- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنَ الْيَهُودِ تُعْجِبُنَا، أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ؛ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ والنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»، رَوَاهُ أَحْمَدُ**[1].

الشَّرح

لقد قال ما قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث؛ لأن شريعته شريعة كاملة، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فهي شريعة كاملة وشاملة لمتطلبات الناس، إلى أن تقوم الساعة، وهي -أيضًا- شريعة ناسخة لِمَا قبلها من الشرائع، فيجب العمل بالناسخ وترك المنسوخ، فلا يجوز لنا أن نأتي بشيء من التوراة أو من الإنجيل، وننشره بين الناس؛ لأن في شريعتنا ما يكفي الجنَّ والإنس، ويكفي لجميع الأزمان إلى أن تقوم الساعة، فينبغي الاقتصار على سُنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما رأى معه أوراقًا من التوراة، وقال له: «**إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنَ الْيَهُودِ تُعْجِبُنَا،**

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣/ ٣٤٩)، والدارمي في سننه (٤٤٩)، وأبو يعلى (٤/ ١٠٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١١٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ، كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»، وذلك لأن شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نُسخت، وأُمر الجميع باتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١)؛ فالذي يبقى على النصرانية بعد بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يبقى على اليهودية إنما هو من أهل النار؛ لأنه ترك ما أمره الله به من اتِّباع هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[أَقْسَامُ أُمورِ الدِّينِ]

١٠٩- وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا، فَلَا تَعْتَدُوهَا، وحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ؛ رَحْمةً لَكُمْ، غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا». حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ(١).

• الشَّرْح •

ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أنَّ أمور الدِّين على أربعة أقسام:

الأول: الواجبات والفرائض، وهذه لا يجوز أن يُضيَّع شيء منها، بل يجب الإتيان بها.

والثاني: المحرَّمات التي حرَّمها الله، وهذه يجب تجنُّبها والابتعاد عنها، وعدم فِعْلِ شيء منها.

الثالث: الحُدود، وهي المباحات التي أباحها الله وأحلَّها للناس، فلا ينبغي تعدِّي الحلال إلى الحرام؛ قال تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة:٢٢٩]، وحدود الله تُطلق، ويُراد بها المباحات، فيقال: فلا تعتدوها،

---

(١) أخرجه الدار قطني في سننه (٥/ ٣٢٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١)، وفي مسند الشاميين (٤/ ٣٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢١).

وتُطلق، ويُراد بها المحرَّمات، فيقال: فلا تقربوها؛ يعني: ابتعدوا عنها، وعن الوسائل الموصلة إليها، وأما المباحات، فلا تتعدُّوها إلى الحرام.

الرابع: المسكوت عنه، الذي لم يُفرض ولم يُحرَّم، ولا يوجد دليل على إباحته، وسكت الله عنه، فنَسكتُ عنه، وهذا معفوٌّ عنه، فلا نبحث فيه من حيث هو حلال أم حرام، فلا دليل على تحريمه ولا على إباحته، ولا على أنه واجب، فيسعنا السكوت عنه؛ لأنه لو كان لنا به حاجة لبينه الله لنا.

وفي هذا الحديث: أنه يجب فِعْلُ الواجبات وتَرْكُ المحرَّمات والاقتصار على المباحات، والسكوت عن المسكوت عنه، ومثل هذا كان في وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة:١٠١]، فهل هذا يعني ترك البحث عن المسكوت عنه في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أم هو عامٌّ إلى أن تقوم الساعة؟

الظاهر -والله أعلم- أنه عامٌّ إلى أن تقوم الساعة، فالمسكوت عنه الذي لا دليل على إيجابه ولا على تحريمه ولا على إباحته، فإننا نسكت عنه كما سكت الله عنه، والله جَلَّ وَعَلَا لم يسكت عنه نسيانًا؛ لأن الله لا ينسى، وإنما سكت عنه؛ رحمةً بالعباد، ولهذا قال عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحْمَةً لَكُمْ، غَيْرَ نِسْيَانٍ**».

ومن هنا قال العلماء: سؤال أهل العلم على قسمين:

القسم الأول: السؤال الذي القصد منه التعنُّت والمباهاة وإظهار العلم مباهاة، وهذا لا يجوز، وهذا مثل أسئلة بني إسرائيل لأنبيائهم؛ كما قال

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(١)، فالسؤال الذي يُقصد به التعنُّت أو التنطُّع أمر مرفوض ولا يجوز.

القسم الثاني: السؤال الذي يُقصد منه معرفة الحكم الشرعي، فهو مأمورٌ به، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (٤١٢) (١٣٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[تَحْرِيمُ الاخْتِلَافِ وَالتَّفْرِيقِ]

١١٠ - وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(١).

الشَّرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ»، هذا كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَنْتَهِكُوهَا»(٢)، فالحرام يُجتنب كلُّه، وأمَّا المأمور به، فيؤتى منه بالمستطاع، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، بخلاف الحرام؛ فإنه يُجتنب كلُّه، وذلك لأنَّ اجتنابه سهلٌ، ولكن قد يكون في المأمورات شيء لا يُستطاع، فقد لا يستطيع المريض أن يتوضَّأ، فإنه يتيمَّم، ولا يستطيع أن يصلي قائمًا، فيصلِّي جالسًا، فإن لم يستطع، فإنه يصلِّي على جَنْبٍ، فقد تأتي أحيانًا أحوالٌ لا يستطيع الإنسان فيها أن يُطبِّق الأمر تمامًا، فإنه يفعل ما يستطيع منه، وهذا من تيسير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالأمر يؤتى منه يستطاع، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وأما النهي، فإنه سهل تجنُّبه؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ»؛ أي: كلَّه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (٤١٢) (١٣٣٧).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٥٦).

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّمَا هَلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»، هذا كحديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ، غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»(١)، ويوضِّح ذلك أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا**»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَدَعُوهُ**»(٢)، ومثل ذلك ما ذكره الله عن بني إسرائيل حينما أمرهم الله على لسان نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يذبحوا بقرة، فلو أنهم أخذوا أيَّ بقرةٍ وذبحوها، لحصل المطلوب، ولكنهم قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٦٨-٧١]، شدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد الله عليهم، وهذا من سوء أدبهم مع الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤١٢) (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولو أنهم أخذوا أيَّ بقرةٍ وذبحوها، لحصل المطلوب!! وهذا من تعَنُّتات بني إسرائيل، وقد نُهينا أن نفعل مثل فِعْلهم مع نبيِّنا ﷺ، وبل أُمرنا أن نتأدَّب معه، ونفعل ما أُمرنا به، أو نفعل ما نستطيع، وما نهانا عنه، اجتنبناه، وما سكت عنه، نسكت عنه، هذا هو الأدب مع النبوة.

[دُعَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ]

١١١ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَحَفِظَهَا، وَوَعَاهَا، وَأَدَّاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ(١).

١١٢ - وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه وَالدَّارِمِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

الشَّرْح

هذا الحديث يشتمل على مسألتين:

الأولى: طلب الحديث.

الثانية: النصيحة لله وللمسلمين.

أما الأولى: ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَحَفِظَهَا، وَوَعَاهَا، وَأَدَّاهَا**»، ففي هذا الحثُّ على العناية بسُنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَقَالَتِي**»؛ أي: حديثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ

---

(١) رواه الشافعي (٤/ ٦٨)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ١٠٩)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، والنسائي (٥٨١٦)، وأحمد في المسند (٣٥/ ٤٦٧)، والدارمي (٢٣٥)، وأبو يعلى (٩/ ٦٢)، وابن حبان (٢/ ٤٥٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٤٣) وفي الأوسط (٧/ ٢٠١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٣). وكتب فضيلة الشيخ عبد المحسن العباد رسالة أثبت فيها تواتره.

أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الوحي الثاني بعد القرآن الكريم، فهي من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو مبلِّغ، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤]؛ ولهذا يقول العلماء: السُّنة هي الوحي الثاني، فهي في الدرجة الثانية بعد القرآن في الاحتجاج والعمل، ولابد من العناية بها من خلال حفظ الأحاديث؛ كما جاءت عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألفاظها من غير تغيير، والوعي الوارد في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَعَاهَا**» معناه: الفقه فيها؛ فلا يكفي الحفظ وحده، وإنما الحفظ مع الفقه ومعرفة معانيها، وهذا فيه الحثُّ على الفقه مع الحفظ، لينتفع المسلمون بسُنَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا يكفي أن يحفظ المسلم الأحاديث، ويفقه معناها، بل لابد وأن يُبلِّغها إلى غيره، فينبغي على طالب العلم إذا عَلم شيئًا ألا يكتمه، بل يُبلِّغه إلى غيره؛ لأن هذا العلم للأُمة إلى أن تقوم الساعة.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ**»؛ لأنَّ حامل الفقه إذا بلَّغه إلى غيره، فربما يكون هذا المبلَّغ أعرف لمعناه وأفقَه. وفي هذا بيان أنه لاينبغي للمرء أن يُزكِّي نفسه، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٧٦]، فقد يحفظ المرء الحديث، ولا يتضح له معناه، فيُبلِّغه إلى مَنْ هو أفقه منه، فيستنبط منه ما لا يفهمه الحامل له، فإذا بلَّغه، برئت ذمَّتُه، وأوصل العلمَ إلى غيره، فيحصل بذلك الخير الكثير.

فيتَّضح من المسألة الأولى: الحثُّ على حفظ الأحاديث النبوية والتفقُّه في معانيها وإبلاغها للغير من المسلمين، وفيه -أيضًا- النهي عن كتمان العلم،

والنهي عن تزكية النفس، وأن لا يرى المرء نفسه بأنه صار فقيهًا، وأنه أفقه من غيره، بل هناك من هو أفقه منه؛ وهذه سُنة الله في خلقه؛ حيث إن الناس يتفاضلون فيما يُعطيهم الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا خَفِيَ على أحدهم شيءٌ، فهناك من المسلمين مَنْ لا يخفى عليه هذا الشيء إذا بلغه الحديث أو الخبر، فلا ينبغي للمرء أن يقتصر على فهمه، أو أن يظنَّ أنَّ هذا الحديث لا يُفهم معناه؛ لأنَّ هناك مَنْ يفهم معناه.

المسألة الثانية: تتمثل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغُّل عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ**»؛ أي: ثلاث خصال «**لَا يُغِلُّ**» من الغِلّ: وهو الحقد، «**عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ**» بمعنى أنَّ هذه الثلاث خصال تطهِّر قلب المسلم من الغِل الذي هو الحقد والبُغض للمسلمين.

الخصلة الأولى: «**إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلهِ**»، وهي مما يطهِّر القلب من الحقد، ويجمع القلوب، فإن القلوب إنما اجتمعت على التوحيد، فالله جَلَّ وَعَلَا أَلَّف بين قلوب المسلمين بكلمة لا إله إلا الله، فلما صار المعبود واحدًا، وتألَّفت قلوبهم، ولَمَّا كانوا يعبدون آلهة متفرِّقة، تعادَوا فيما بينهم؛ فالتوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله يوحِّد القلوب، ويجمعها على معبود واحد وعلى عبادة واحدة؛ فيجب أن يكون العمل خالصًا لله خاليًا من الشِّرك، فلا يُعبد الله ويُعبد معه غيره، فيُذبح ويُنذَر لغير الله، ولا تجوز الاستغاثة بالأموات والأولياء والصالحين؛ لأنَّ هذا لا يكون فيه إخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والله جَلَّ وَعَلَا لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه وصوابًا على سُنّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وأما ما كان فيه شرك، فإن الله لا يقبله، ولا يقبل من المشرك عبادة ولا عملًا، فيحبط عمل المشرك، ولا تبقى لا عبادة ولا أجرٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

والخصلة الثانية: متمثلة في قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ**»، وتعني: عدم الغش، والناصح ضد الغاش، فالمسلم لا يغش المسلمين في جميع تصرُّفاته معهم، وإنما تكون تصرُّفاته معهم على النصيحة وعدم الغشِّ في جميع الأمور، فلا يخدعهم، ولا يغشُّهم في البيع والمعاملات، ولا في المشورة إذا استشاروه، ولا يرضى لهم الخطأ، وإنما يريد لهم الصواب؛ لأنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)، فيكون مع المسلمين ناصحًا لهم في كلِّ الأمور، ولا يُكِنُّ لهم الغدر والخيانة والغش والخديعة، فكما أنه لا يرضى لنفسه بذلك، فإنه يجب ألَّا يرضاه لإخوانه المسلمين.

والخصلة الثالثة: متمثِّلة في قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»، وهذه خصلة عظيمة، ولذلك فإنه يجب لزوم جماعة المسلمين وعدم مخالفتهم والشُّذوذ عنهم -ولو برأي، أو قول، أو فعل-، وكذلك لا يجوز الخروج على إمام المسلمين؛ لأنَّ فيه خروجًا على جماعة المسلمين، ولأنه لا تكون جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، وعليه يجب عدم الذهاب مع الأحزاب والجماعات والمذاهب المختلفة، واتباع الأقوال الشاذة، بل يجب البقاء مع المسلمين وعلى ما هم عليه في

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٧١)(٤٥)، من حديث أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، وهذا لفظ البخاري «لِأَخِيهِ» من غير شك، وجاء عند مسلم «لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ» على الشك.

القول والعمل؛ لاسيما عند الفتن والاختلاف، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخبر عن الفتن التي تحدث، قال له حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[1]، فعلى المسلم أن يتجنَّبَ الاختلاف والشِّقاق ومخالفة المسلمين، ويلزم الجماعة؛ لأنَّ هذا أَنجى وأسلم له، وأبعد له عن الفتن، وهذا نحتاجه في هذه الأيام وما بعدها؛ لكثرة الأهواء والآراء والدعوات المُضلِّلة، ولتسلُّط الأعداء وإثارة الشُّبهات والأحقاد، فعلى المرء أن يلزم جماعة المسلمين، وأن لا يفترق ويخالف جماعتهم.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»، المراد بالدَّعوة هنا: الدعوة إلى الإسلام، وأنه إذا اجتمع المسلمون، فإن دعوتهم إلى الإسلام «تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»، بمعنى أنها تصل إلى من سواهم من الخلق، وأنهم إذا اختلفوا، فإنهم سيشتغلون بأنفسهم، وستنقطع الدعوة التي أُمروا بها، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فنحن قد كُلِّفنا بدعوة البشرية، وهي مسؤولية حمَّلنا الله إياها؛ لأن الله اختار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العرب، وأنزل القرآن بلغتهم، وأمرهم أن يدعوا الناس، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (٥١) (١٨٤٧).

والبيِّنات جاءت من عند الله تعالى، فيجب التمسُّك بها والاجتماع عليها؛ لتكون هي مصدر قولنا وفعلنا، وأما الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، فقد توعَّدهم الله بأن لهم عذابًا عظيمًا؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ يعني: أهل الكتاب، وسبب تفرُّقهم وتركهم للبينات أنهم اتبعوا أهواءهم، فالواجب هو اتِّباع الهدى وعدم اتِّباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]، ولهذا ينبغي التمسُّك بالهدى، وهو الكتاب والسُّنة؛ ففيهما البيِّنات التي أنزلها الله علينا، فلا عذر لنا والكتاب والسُّنة بين أيدينا، فلا ينبغي أن نختلف ونتبع أهواءنا وأقوال الناس والقادة والأئمة من أهل الضلال، ونترك حبل الله المتين الذي أُمرنا بالتمسُّك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

[الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ]

١١٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ**[1].

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ»**؛ أي: أصل علوم الدِّين ومسائل الشرع التي تَهُمُّ المسلم في دينه ودُنياه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«آيَةٌ مُحْكَمَةٌ»**؛ أي: من القرآن الكريم؛ والمُحكَم هو غير المنسوخ وغير المُتشابه، فالآية المحكمة هي غير المنسوخة ولاالمتشابهة، وهي الدليل الصريح الذي يجب الأخذُ بها، وأما الاستدلال بالمتشابه، فهو طريقة أهل الزَّيغ، ومن المعلوم أن الأخذ بالمنسوخ لايجوز؛ لأنه لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ، ومَنْ عمل بالمنسوخ، اعتُبر ضالًّا، والله جَلَّ وَعَلَا ينسخ ما يشاء لحكمة، فينبغي الأخذ بالناسخ وترك المنسوخ، والعمل بالمنسوخ ضلال، وهو عمل بغير دليل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣٣)، والدارقطني في سننه (٥/ ١١٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٤٣). والحديث فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وهو ضعيف، وسبق الكلام عليه أثناء الكلام على حديث الافتراق.

وقوله ﷺ: «**أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ**»؛ أي: من سُنن الرسول ﷺ، والسُّنة تُطلق، ويُراد بها الطريقة التي كان عليها الرسول ﷺ، وتطلق على ما ثبت عن الرسول ﷺ من قولٍ أو فِعْل أو تقرير، وهي الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، فيجب العمل بها بعد كتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: «**قَائِمَةٌ**»؛ يعني: ثابتة، إسنادًا أو حكمًا بألا تكون منسوخة، وهي الدائمة المستمرة المتصل بها العمل.

وقوله ﷺ: «**أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ**»؛ أي: في المواريث؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قسَّم المواريث في كتابه الكريم وفي سُنَّة نبيِّه ﷺ، وأعطى كل ذي حقٍّ حقَّه، فلا يجوز التلاعب بالمواريث وحرمان الوارث وإعطاء غيره؛ لأن الله تعالى لَمَّا ذكر المواريث، قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، فسمَّاها حدودًا، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٣-١٤]، فالمواريث من حدود الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز تعدِّيها، ولاالتلاعب بها، وإنما يُعمل بها، فيُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه من غير زيادة ولانقصان، ولا تقديم ولا تأخير.

وفي هذا: الحثُّ على تعلُّم أحكام المواريث، وقد حث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعلُّمه، وأخبر أنه أول علم يرفع من الأمة، حتى يتنازع الاثنان في فريضة، فلا يجدان من يحكم بينهما(١).

فتعلُّم المواريث يؤدي إلى وصول الحقوق إلى أصحابها، وهو علم عظيم، ولكنه يُنسى؛ كما في الحديث: «**تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهَا، فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي**»(٢)، فهو علمٌ فيه صعوبة، ولابد من المِران، والصبر عليه؛ لئلا تضيع الحقوق والمواريث.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْل**»؛ أي: وما سوى هذه العلوم الثلاث، فهو زيادة، وهي زيادة خير، وعلوم مكمِّلة لهذه الثلاث.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٩٧)، والدارمي في سننه (١/ ٢٩٨)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٦)، والدارقطني في سننه (٥/ ١٤٣)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٤٣): عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي امْرُؤٌ مَقْبُوضٌ فَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ وَتَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ فَإِنِّي مَقْبُوضٌ وَإِنَّهُ سَيُنْقَصُ الْعِلْمُ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ حَتَّى يَخْتَلِفَ الِاثْنَانِ فِي الْفَرِيضَةِ فَلَا يَجِدَانِ مَنْ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا**».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧١٩)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٧٢)، والدارقطني في سننه (٥/ ١١٧)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[تَحْرِيمُ الْقَولِ بِالرَّأْيِ فِي الْقُرْآنِ]

١١٤- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١).

١١٥- وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٢).

• الشَّرح •

في هذين الحديثين الوعيد الشديد على مَنْ فسَّر القرآن برأيه، دون رجوع إلى مصادر التفسير الصحيحة، ولهذا شدَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مَن يفسِّر القرآن بغير علم، وذكر أنه استوجب دخول النار، فقال: «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ**»، وجاء في رواية أنه قال: «**مَنْ قَالَ: فِي كِتَابِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ**»(٣)، والحديث ساقه ابن كثير في أول تفسيره، وجوَّد إسناده(٤).

ففي الحديثين الوعيد الشديد على مَنْ يفسِّر القرآن بغير علم، أو برأيه؛ لأنَّ القرآن يفسَّر بأربعة أشياء، ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في أول (تفسيره)(٥):

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (٣/٤٩٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٣٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧-١٦).

الأول: تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضه بعضًا.

الثاني: تفسير القرآن بالسُّنة النبوية؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبيِّن للقرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

الثالث: تفسير الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ لأنهم تلقَّوا عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسير القرآن.

الرابع: تفسير التابعين؛ لأنهم أخذوا التفسير عن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهناك طريقة خامسة لتفسير القرآن الكريم، وذلك باللغة العربية التي نزل بها.

فأول ما يُبدأ به تفسير القرآن هو تفسير بعضه ببعض، فإن لم يوجد، فمن السُّنة، وإن لم يوجد في السُّنة، فإنه يُفسَّر بتفسير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإن لم يوجد، فبتفسير التابعين، فإن لم يوجد، فإنه يُرجع في ذلك إلى اللغة العربية التي نزل بها، فهذه هي مصادر التفسير، وليس هناك مصدر آخر غير هذه المصادر، وأما تفسير القرآن بالرأي، ففيه الوعيد الشديد.

ومن هنا نأخذ بأن الذين يفسِّرون القرآن الآن بآرائهم وبالفرضيات الحديثة وبالنظريات، أو ما يسمى بالإعجاز العلمي، إنما هم داخلون فيمَن قال في القرآن برأيه، فلا ينبغي أن تجعل هذه الأمور تفسيرًا لكلام الله تعالى؛ لأنها عمل بشري، يخطئ ويصيب، وهذه النظريات تتغيَّر، فقد تأتي نظريات أخرى تغيرها، فلا تُجعل تفسيرًا لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

[التَّرهِيبُ مِنَ الإِفْتَاءِ بِغَيرِ عِلْمٍ]

١١٦- وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ خَانَهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

• الشَّرح •

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ»، هو الجاهل الذي يسأل من يؤمِّل فيه العلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فالمستفتي عمل بما أُمر به؛ إذ تحرَّى أعلمَ مَنْ يجد وأتقاهم، وأمَّا إذا لم يكن قد تحرَّى أعلم مَنْ يجد وأتقاهم، وإنما بحث عمَّن يُرخِّص له، ويبحث له عن المخارج، فهذا ممن لم يسأل أهل الذِّكر، وإنما سأل أصحاب الهوى والجهل، فصار بذلك من أصحاب الهوى والجهل، بخلاف الذي تحرَّى أهل العلم وأفضل من يجدهم؛ ليسألهم، وتكون المسؤولية حينئذٍ على المفتي، إذا أفتاه بغير علم أو بهوىً، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ»، فالمستفتي لم يُقصِّر بعد أن بحث في الناس، واختار من يرى أنه الأحسن، فهو بذل وسعه في تحري المفتي الذي يبيِّن له الحقَّ، فيجب على المفتي حينئذٍ أن يُفتيه بعلم، وإذا لم يكن عنده علم في المسألة، فإنه يجب عليه أن يتوقف،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٨٤، ٢١٥)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٩).

ويقول: (الله أعلم)، أو: (اذهب إلى غيري)، بخلاف ما لو تسرَّع، وأفتى بغير علم، فإنه يكون الإثم حينئذٍ عليه، ولهذا لم يكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجيب في المسائل التي يُسأل عنها، ولم يكن نزل عليه الوحي بعدُ، وإنما كان ينتظر حتى ينزل عليه الوحي والعلم من الله جَلَّ وَعَلَا، فكيف بغيره؟!

وقد جاء إلى الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رجل من بعيد، وسأل عن أربعين مسألة، فأفتاه في أربع مسائل، وقال في ستٍّ وثلاثين: لاأدري! فقال الرَّجل: جئتك من بعيد أسألك، وتقول: لا أدري؟! فقال له: اركب راحلتك، واذهب إلى البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري![1]، ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا تَرَكَ الْعَالِمُ «لاأَدْرِي»، أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ»[2].

فعلى المرء أن يتوقف عن المسألة التي لا يعلمها، ولو كان من أكثر أهل بلده علمًا، أو يُحيل السائل إلى من هو أعلم منه، فإنه لو فعل ذلك، دلَّ هذا على فضله، لا على نقصه، وقد كان العلماء -وإلى وقت قريب- إذا لم يكن عندهم جواب، قالوا: (لا ندري)، ولا يعتبرون هذا نقصًا، وإنما يعتبرونه من خوف الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي هذا الحديث: بيان شدة خطر الفتوى، وأنه يجب على المفتي أن يتثبَّت، ولا يفتي إلا بما ظهر له من الحكم الشرعي، فإن كان عنده علمٌ، قال

(١) انظر: تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٢٢)، والتمهيد لابن عبد البر (١/ ٧٣)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٨٦).

(٢) انظر: حلية الأولياء (٧/ ٢٧٤).

به، وإلا اعتذر عن الإجابة خوف الوقوع في الإثم، وهذا ما كان يفعله سَلفُنا الصالح، بخلاف ما نشاهده في وقتنا الحاضر، الذي كثُر فيه الجهل، وكثُر المفتون والمفتونون الذين يفتنون الناس، وكثُر المُتعالِمون لقلَّة الورع والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعلى مَنْ سُئل وليس عنده معرفة بالجواب أن يقول: (لا أدري)؛ فهذا هو المَخرج له أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ خَانَهُ**»، المشورة نوع من الاستفتاء إلا أن المشورة في الاستفتاء تكون في مسائل الشرع، وأما المشورة المذكورة هنا، فتكون في أمور التجربة والأمور غير الشرعية، فالواجب على مَنِ استُشير أن يدلَّ من استشاره على ما يراه خيرًا له، فإن دله على غير ما يراه خيرًا، فقد خانه؛ لأن المستشير كان قد ائتمنه على أن يدلَّه على ما يراه، فإذا دله على غير ما يراه، كانت هذه خيانة من المستشار، فالواجب على المستشار أن يُبدي المشورة الصحيحة.

١١٧- وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الْأُغْلُوطَاتِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا(١).

• الشَّرْح •

قوله: «**الْأُغْلُوطَاتِ**» جمع أُغلوطة: وهي المسائل التي يُقصد بها غلط العلماء أو المسؤولين؛ ليَزِلُّوا، فيحصل بذلك شرٌّ وفتنة؛ وهذا لا يجوز، وقد نهى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كثرة السؤال، وقال: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»(٢).

فلا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا بقدر ما يحتاج، وعليه أن يترك الأسئلة التي لا يكون بحاجةٍ إليها، ومن باب أولى الأسئلة التي لا يقصد بها الاستفادة، وإنما يقصد بها تغليط العالم، او تغليط المعلِّم، وهذا أمرٌ لا يجوز.

ولا شك أن العالم مهما بلغ من العلم، فربما يغلط؛ لأنه لا يعلم كل شيء، وقد يُفاجأ بسؤال، وليس عنده له جواب، فإن أجاب بخطأ، أُشْكِل، وإن قال: (لا أدري)، قد لا يحتمل بعض الناس قوله: (لا أدري)، فالواجب على السائلين أن يتأدَّبوا في السؤال، فيسألوا بقدر ما يحتاجون، وأن يقصدوا بسؤالهم التعلُّم، لا إظهار فهمهم، أو تغليط المسؤول، فإن هذا قد نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٦)، وأحمد في المسند (٣٩/ ٩٣)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ١٠٦)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨٠) وفي الأوسط (٨/ ١٣٧)، وفي مسند الشاميين (٣/ ٢١١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٢٢٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٥٨).

[طَلَبُ الْعِلْمِ السَّبِيلُ إِلَى الْجَنَّةِ]

١١٨- وَعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه(١).

الشَّرْح

هذا حديث مشهور، قد شرحه العلامة الإمام ابن رجب الحنبلي في رسالة مستقلة اسمها (شرح حديث أبي الدَّرداء)، وأبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أجِلَّةِ صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلمائهم، وقد ذهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الشام لنشر العلم وتعليم الناس.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٣٦/ ٤٦)، والدارمي (٣٥٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٢٠) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (**إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي، أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مَا جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ**)، فيه فضل الرِّحلة في طلب العلم ولقاء العلماء مهما كانوا بعيدين، وإن السَّفر وتحمُّل المشاقِّ لأجل طلب العلم ليس بكثير على هذا المطلب العظيم، وهذا الرجل الذي سأل أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان قد سافر من المدينة إلى الشام، ومن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من سافر من المدينة إلى مصر لطلب حديث واحد، فقد كانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يرحلون لطلب العلم، ففي هذا فضلُ الرِّحلة لطلب العلم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ**»؛ أي: إنَّ مَشْيَ طالب العلم وسفرَه يؤدِّي به إلى الحق؛ لأنه يطلب العلم، وسلوك الطريق يشمل الطريق الحسِّي للسفر، ويشمل أيضًا الطريق المعنوي لحفظ الأدلة والتفقُّه فيها، والجلوس بين يدي العلماء، فكل هذا من باب سلوك الطريق لطلب العلم، وإن كان في البلد الواحد، فالطريق يشمل الطريق الحسِّي، وهو السفر، ويشمل الطريق المعنوي الذي هو طلب التحصيل والتعب في فَهْم العلم وتلقِّيه والسهر عليه، وغير ذلك من المشاقِّ، ومَنْ عمل ذلك، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يُسهِّل طريقه إلى الجنة؛ لأن الوصول إلى الجنة إنما يحصل بالعلم النافع والعمل الصالح.

وفي الحديث: دليلٌ على أن العلم يؤخذ بالتَلقِّي، لامِنَ الكُتب، ولامن نقل فلان أو فلان، فبما أن الأصل موجود، فإنه ينبغي الذهاب إليه لتلقِّي العلم عنه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ**»؛ أي: إن الملائكة لتتواضع لطالب العلم توقيرًا لعلمه، وتُجِلُّه وتُقدِّره، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ أي: تواضع لهم وقدِّرهم، ولهذا ينبغي تقدير طالب العلم وأهل العلم الشرعي، وعدم ازدرائهم، أو اتهامهم بالغفلة؛ لأنهم تركوا ما يحتاجونه من أمور الصناعات والحِرَف والمهارات، فهؤلاء يعظِّمون أمر الدنيا على أمر الآخرة، وهناك فريق آخر من المتصوِّفة الذين يُزهِّدون الناس في طلب العلم، ويقولون: المطلوب هو العمل والعبادة والذِّكر، وهؤلاء أشدُّ خطرًا من الصِّنف الأول، ويتحصَّل من هذا فريقان: فريق المُنحلِّين والزَّنادقة، وفريق أصحاب الضلال من المتصوِّفة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ**»، يستغفرون له؛ لأنه إذا نَشَرَ العلمَ، أصلح الله به الأرض، ودرَّت الخيراتُ والبركات والأمطار، فتشبع البهائم والحيتان في البحر والمخلوقات جميعًا من الطير وغيرها، فكلُّ هذا يحصل ببركة نَشْرِ العلم والدين في الأرض، فيأتي لهذه الحيوانات رزقها، فتستغفر لهؤلاء الذين كانوا سببًا في حصول الخير لها.

وقوله: «**وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**» هذا فيه فضل الاشتغال بالعلم على الاشتغال بالعبادة، وفي هذا -أيضًا- ردٌّ على المتصوِّفة القائلين: (إن الاشتغال بالعبادة أفضل من

الاشتغال في تحصيل العلم، ولكن يتَّضح فضل العلم على العبادة، من حيث إنَّ نَفْع العلم يتعدَّى إلى كافَّةِ الخَلْق، فالعالِم مثل القمر ليلة البدر الذي يُضيء الكون، فيُساعد المسافرين، ويطرد الظلمة عن الناس، وأما الكوكب، فإنه يُضيء لنفسه، فعمله قاصر على نفسه، وكذلك العابد الذي نَفْعُ عبادته قاصرٌ عليه، بخلاف العالِمِ الذي نَفْعُه يكون له ولغيره، ولهذا شُبِّه بالقمر، وهذا وجه المشابهة في تمثيل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعالم بالقمر ليلة البدر، التي هي ليلة التمام على الكوكب، الذي إنما ضوؤه حَولَه فقط، ولا يتعداه.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ**»، هذا شرفٌ لهم؛ لأن العلماء ورثوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يورِّث الدنيا ولا الأموال؛ لأن هذا عَرَضٌ فانٍ وزائل، وإنما ورَّث الأنبياء (العلمَ) الذي يبقى ويدوم، ويدل على الجنة وعلى السعادة، وهذا هو الميراث الصحيح، فالعالم -وإن كان فقيرًا- فهو عنده خيرٌ كثير أفضل من التاجر الذي يملك المليارات، وليس عنده علم، ولا مقارنة بينهما؛ لأن التاجر الذي عنده الأموال سيتركها، أو ربما تَتْلَف، ثم إنه سيُحاسب عليها يوم القيامة، وأما العالم، وإن لم يكن عنده شيء من متاع الدنيا الزائل، إلا أنه عنده خير الدنيا والآخرة، وهو العلم الذي نَفَعَه ونفع غيره، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يدَّخر شيئًا من الدنيا لنفسه، وإنما كان يعيش عيشة الفقراء، وربما يربط الحجر على بطنه من الجوع، وإذا جاء شيء من الأموال، أنفقه في سبيل الله، «تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ بِعِشْرِينَ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ أَخَذَهُ لِأَهْلِهِ»(١)،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢١٤)، وابن ماجه (٢٤٣٩)، والنسائي (٢٦٠٢)، وأحمد (٤/ ١٨)، والدارمي (٢٦٣٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ولو شاء لَمَلَكَ الدنيا بأسرها، ولكنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما أراد الآخرة وما عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا**» قوله: «**دِينَارًا**»؛ يعني: من الذَّهب، و«**دِرْهَمًا**» من الفضة، فلم يورِّثوا فضَّةً، ولا ذهبًا.

وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»؛ يعني: من أخذ من ميراث النبوة، فإنما أخذ الكثير الذي لا يعلم كثرته إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وروي أن أبا هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ «مَرَّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُقْسَمُ، وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ، قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقْسَمُ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَمَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا؟ قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَيْحَكُمْ! فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ١١٤).

[الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ]

١١٩- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ -وَقَالَ: (غَرِيبٌ)-، وَابْنُ مَاجَه(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ**»؛ أي: ذات الحكمة المشتملة عليها، وهي الفقه في الدِّين، فينبغي أخذُ العلم أينما وُجد، ولو كان من يؤخذ عنه قليل الشأن والمكانة عند الناس.

وقوله: «**ضَالَّةُ المُؤْمِنِ**»، الضالة: هي المال الضائع، والمراد: مَطلوبُه، «**فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»؛ أي: بقبولها؛ يعني: أن المؤمن يطلب الحكمة، فإذا وجدها، «**فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»؛ أي: بالعمل بها واتِّباعها، وقيل: المعنى أن الحكمة ربما صدرت ممَّن ليس بأهلٍ لها، ثُم وقعت إلى أهلها، فهو أحق بها من قائلها، من غير التفاتٍ إلى قلَّة شأن من وجدها عنده، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِلَ من اليهود عندما قال له أحدُهم: «نِعْمَ الْأُمَّةُ أُمَّتُكَ لَوْلَا أَنَّهُمْ يَعْدِلُونَ، قَالَ: «**كَيْفَ يَعْدِلُونَ؟**» قَالَ: يَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَقُولُ قَوْلًا، قُولُوا:**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩).

قال أبو عيسى: (هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْفَضْلِ المَخْزُومِيُّ يُضَعَّفُ فِي الحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ).

مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ» وَقَالَ أَيْضًا: نِعْمَ الْأُمَّةُ أُمَّتُكَ، لَوْلَا أَنَّهُمْ يُشْرِكُونَ، قَالَ: «**مَا يَقُولُونَ؟**» قَالَ: يَقُولُونَ: بِحَقِّ فُلَانٍ، وَحَيَاةِ فُلَانٍ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللهِ**»[(١)]، فقد أخذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحقَّ، وإن كان الذي جاء به يهوديٌّ! فاللائق بحالِ المؤمنِ أن يكون مطلوبُه الحقَّ أينما وحيثما وجده، وأن يكون نظره إلى القول لا إلى القائل.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٠٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[مَنْ هُوَ الْفَقِيهُ؟]

١٢٠ - وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «إِنَّ الفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمَ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةَ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(١).

الشَّرْح

قوله: «إِنَّ الفَقِيهَ حَقَّ الفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»، إنَّ الفقيه كلّ الفقيه مَنْ لم يُدخل اليأس إلى نفوس الناس من رحمة الله، وهو أيضًا مَنْ «لَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ»، بحيث لا يُسهِّل للناس المنكرات، ولا يفتح لهم باب الرَّجاء على الرغم من كثرة معاصيهم واستغراقهم فيها، فالفقيه هو الذي يسلك الطريق الوسط في فتاويه، بحيث لا يُدخل اليأس من رحمة الله إلى قلوب الناس ونفوسهم، ولايُسهِّل للناس ارتكاب المعاصي، ولا يفتح لهم باب الرَّجاء، ويمثِّل الطرف الأول الخوارج الذين كفَّروا المسلمين، وقتلوهم، واستحلَّوا دماءهم، ويمثِّل الطرف الثاني المرجئة، الذين يقولون: (الإيمان في القلب، وافعل ما شئت من المعاصي والسيئات).

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٠٥)، وأبو خيثمة في كتاب العلم (ص٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/ ٥١٤٠).

ففي هذا الحديث الردُّ على المتساهلين، والردُّ كذلك على المتشدِّدين، وأن المطلوب الوسط والاعتدال.

وقوله: «وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ»؛ كالمرجئة الذين يقولون: (يكفي الإيمان بالقلب، ولو فعل العبد ما فعل، وقال ما قال من الكفر والشرك، فما دام القلب مؤمنًا، فالعبد من أهل الجنَّة)!

وقوله: «وَلَمْ يَدَعِ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ»، هذا هو الفقيه الذي يعتمد في أقواله على القرآن الكريم، ولا يعتمد على الآراء وأقوال الناس وعلى قواعد المنطق وعلم الكلام، وإنما يعتمد على كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا»؛ لأن العبادة من غير علم ضلالٌ، وكذلك لا خيرَ في علم لا عبادة معه، وهي طريقة المغضوب عليهم.

وقوله: «وَلَا عِلم لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا»؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، فينبغي تَفهُّم معاني القرآن وطلب تفسيره، فلا تنفع القراءة المجرَّدة عن الفهم، والتفكُّر والتدبُّر؛ لأنَّ القصدَ العملُ بالقرآن، وهذا لا يكون إلا بفَهْم معانيه.

١٢١- وَعَنِ الحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ جَاءَهُ المَوْتُ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ**». **رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ**(١).

الشَّرح

في هذا الأثر فضل طلب العلم، وأن الإنسان إذا مات، وهو يطلب العلم، فإنه يلحق بالنبيِّن، إلا أنه لا يكون في درجتهم؛ لأن النَبيِّين لا يلحقهم أحد في درجتهم، وإنما يكون في الدرجة التي تليهم. وفي هذا فضل طلب العلم، والاستمرار عليه إلى الموت، وعدم الاكتفاء بما تمَّ تحصيله، وإنما المرغوب فيه هو الاستمرار فيه حتى يأتيه الموت؛ لأن العلم ليس له نهاية ولا حد، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، ومن قال: (أنا عالم)، فهو جاهل، وطلب العلم ينبغي ألا ينقطع؛ لأنه عبادة.

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٦٦)، وهو ضعيف لإرسال الحسن البصري، ولأن فيه نصر بن القاسم، وهو مجهول.

١٠ - بَابُ قَبْضِ الْعِلْمِ

١٢٢ - وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١).

الشَّرح

لا شكَّ أنَّ قيام الدِّين والحياة والعمل الصالح إنَّما هو بالعلم النافع، فالعلم النافع والعلم الصالح قرينان، فإذا ذهب أحدهما، لم ينفع الآخَرُ، فإذا ذهب العلمُ، لم ينفع العمل؛ لأنه يكون على جهل وعلى غير هدًى، وأصبح من البِدَع والمُحدَثات والضلال، وإذا ذهب العملُ، وبقي العلمُ، فإنه يصبح لا فائدة من هذا العلم؛ لأن ثمرة العلم العملُ، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣]، فالهدي: هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح؛ فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالأمرين مقترنين، لا يغني أحدهما عن الآخر، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرَ في هذا الحديث عن المستقبل، وهذا مما أطلعه الله عليه ليُخبر به الناس، وإلا فإنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن الله يُطلع رسله على أشياء من الغيب؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، والدارمي (٢٩٦)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٧٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٩)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٤٥٢).

لأجل تنبيه الناس وللدَّلالة على صدق رسالتهم، فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث أخبر بأنَّ العلم سيُقبض في آخر الزمان، وليس معنى هذا أن يُرفع العلمُ نفسه، بل إن كتاب الله تعالى يبقى، والسُّنة كذلك تبقى، والكتب تبقى -أيضًا- بين أيدي الناس، ولكن يُقبض العلم بموت العلماء؛ لأن العلم لابد له من حَمَلةٍ يُبيِّنونه، ويوضِّحونه للناس، فإذا قُبض العلماء الذين يُبيِّنون للناس، ويعلِّمونهم ويفقِّهونهم، فحينئذٍ يُقبض العلم بقبض أهله، فهذا خبرٌ معناه التحذير من أن يتساهل الناس في طلب العلم، وإنما ينبغي لهم الحرص عليه؛ لأجل أن يبقى ببقاء العلماء، ويستمر، وأما إذا أعرضوا عنه، وتساهلوا فيه، فإنه حينئذٍ يُقبض.

[التَّحْذِيرُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ دُونَ الْعَمَلِ بِهِ]

١٢٣- وعَنْ زِيَادِ بْنِ لبيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: «ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، فَقَالَ: «ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ -زِيَادُ-! إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه[1].

الشَّرْح

هذا الحديث يبيِّن -أيضًا- كيف يُقبض العلم، وأنه يُقبض أولًا بقبض العلماء، وثانيًا بترك العمل، فإذا ترك الناس العمل، قُبض العلم؛ لأن العلم إنما يكبرُ ويَزيد ويُبارك فيه مع العمل به، وليس بمجرد حفظه دون العمل به، ولأنه إذا ذهب أحدهما، ذهب الآخر، وهذا ما وضَّحه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزيادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث، فإن زيادًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٨)، وأحمد في المسند (٢٩/ ١٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٤٥)، وأبو خيثمة في كتاب العلم (ص١٥)، والطبراني في الكبير (٥/ ٢٦٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٨٠).

أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟»، فقد ظنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قراءة القرآن وتدارسه وحفظه يُبقي العلمَ، ولم يكن يعلم أن العلم لا يبقى إذا لم يكن يُرافقه العمل، فتذهب بركته ونوره وزيادته بترك العمل به.

ثم ضرب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا ببني إسرائيل الذين عندهم علم من التوراة والإنجيل، فيتعلَّمون ويعلِّمون منهما، ولكنهم لا يعملون بهما، فرحل عنهم العلمُ؛ لأن العلم لا يقتصر بقاؤه على وجوده في الذاكرة، وإنما بقاؤه يكون من خلال العمل به، ولذلك هو نزل، وهو وسيلة، والعمل به غاية، وهو المطلوب، فإذا ذهبت الغاية، لم تنفع الوسيلة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ -زِيَادُ-! إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، لَايَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟**» الأصل في الثَّكَل أنه فُقْدان الحبيب، وأكثر ما يُستعمل في فُقدان المرأة زوجها أو ابنها، فالأصل في معنى (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ): فَقدَتْكَ، ولكنها تُقال، ولا يُراد معناها الحقيقي، وذلك عند التنبيه إلى أمر كان ينبغي أن يُنتَبه له ويُعرف، ولهذا لم يكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد معناها الأصلي، وإنما هو لفظ صار يجري على اللسان من غير قصدٍ لمعناه. ويتبيَّن من هذا الحديث أن العِلْم يُفقد بأحد أمرين أو بهما معًا:

الأمر الأول: فَقْد العلماء الذين يُبيِّنونه، ويوضحونه، ويفسِّرونه للناس، ويبقى الجهال الذين لا يعرفون معاني العلم، فيتكلمون بجهل لافائدة منه،

وهم أشبه بالقراء؛ كما جاء في قول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ»(١).

الأمر الثاني: فَقْدُ العملِ به، فلا يبقى للعلم فائدة حينئذ، وإنما يكون لمجرَّد الاستعراض والتباهي به، ولأجل الرياء والسُّمعة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٢٨).

[الْوَصِيَّةُ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ]

١٢٤- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ بِالْعِلْمِ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ، أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَى مَا عِنْدَهُ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالعَتِيقِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ بِنَحْوِهِ(١).

الشَّرْح

قوله: «عَلَيْكُمْ بِالعِلمِ قَبْل أَنْ يُقْبَضَ»؛ أي: تعلَّموا من العلماء إذا ما وُجدوا بينكم، فاحمِلوا العلم عنهم؛ لأن العلم إنما يؤخذ من العلماء ومن أهله الحاملين له، ولا يؤخذ من الكتب أو من الجهال والمتعالمين.

وقد حثَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الاقتداء بالأقدمين، فقال: «وَعَلَيْكُمْ بِالعَتِيقِ»؛ يعني: بالقديم؛ لأنه كلما ارتفع الزمان، وقرب من زمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أصحابه ومن التابعين، فإنه يكون أقرب إلى الصِّحة والثُّبوت وعدم وجود الدَّخيل فيه، فعِلمُ السَّلف لاشكَّ أنه هو العلم الصافي، وأما علمُ الخَلَف، فقد دَخَله ما دَخله؛ فمنه ما هو صحيح، ومنه ما هو غير ذلك؛ لأنه بعد القرون الثلاثة المفضَّلة دخلت الأهواء عند بعض المسلمين،

---

(١) أخرجه الدارمي (١٤٤، ١٤٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٥٢)، والمروزي في السنة (ص٢٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٧٠)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ٩٧).

وانتشرت الفِرَق، بِخلاف وقت القرون المفضَّلةِ التي كان العلم فيها صافيًا، لا دَخيل فيه؛ لأنهم كانوا حرّاسًا وأُمناء عليه، فكلما تقادم القولُ، كان أقربَ إلى الصواب، هذا معنى كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحث أولًا على طلب العلم من أهله، وثانيًا على أخذ العلم القديم؛ لأنه أقرب إلى الصواب وإلى عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللإمام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة جيدة في (بيان فضل علم السلف على علم الخلف)؛ لأنه وُجد من أهل الضلال مَنْ يفضِّل علم الخلف على علم السَّلف، مدَّعين أن علم الخلف أكثر فهمًا، وأن السلف مجرَّد عُبّاد؛ لأن الجهاد كان يشغلهم عن العلم، وغير ذلك من الأمور التي تُزهِّد في علم السلف الذين يتَّهمونهم بأنهم لم يكونوا يستعملون العقل، بخلاف الخلف الذين أخضعوا علومهم للعقل والفِكْر، وغير ذلك من الشُّبهات التي أثاروها، وقد ردَّ عليهم ابن رجب في رسالته هذه، فأجاد وأفاد، وبيَّن فضل علم السَّلف على الخلف، وفنَّد مزاعم من يقول: (إن علم السلف أسلم، وعلم الخلف أعلم وأحكم)، وقد كذبوا في هذا؛ لأن السلامة لا تكون إلا مع العلم والحكمة.

وقوله: «**وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالعَتِيقِ**»، وفي هذا نهي عن اتباع الأمور المحدثة، وعن كثرة التشقيقات والجدليات والافتراضات وكثرة الكلام؛ لأن العلم ليس بكثرة الكلام، وإنما العلم بالتأصيل، ولذلك كان عِلمُ السَّلف أقل كلامًا، وأكثر فائدة، وأقلّ لفظًا، وأكثر معنًى.

ومما ذكره الحافظ ابن رجب أن السلف كانوا أقل كلامًا، ولكنهم كانوا أغزر علمًا وفائدة، والخلفُ على العكس، فكانوا أكثر كلامًا وأقل فائدة(١).

ومما يُفهم -أيضًا- من كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دعوته إلى تحصيل العلم من أصوله؛ لأنه سيُحتاج إليه، وسيَحتاج الناس إلى العلماء، فيكون عند مَنْ حصَّله أهليَّة لحَلِّ ما يَعرِضُ من المشكلات، فمَن لم يكن عنده أهليَّة، وجاءته مشكلة أو معضلة، تحيَّر، وإن ادَّعى العلم والمعرفة، بخلاف أهل العلم الصحيح، الذين يتصدُّون للملمات الصعبة، فالعلم ليس بالدعوى، وإنما هو حقيقة، ولسان حال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول: عليكم بالاستعداد من خلال التسلُّح بالعلم؛ لأنه إذا ما حصلت مشكلة، يكون حلها سهلًا؛ إما مشكلة عامة، وإما مشكلة فردية.

---

(١) انظر: (ص٣٣٧).

١٢٥- وَفِي الصَّحِيحَينِ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا»**(١).

الشَّرح

بيَّن النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث بأي شيء يُمكن أن يُقبض العلم، ولا يعني قَبضُ العلم رَفعُه كلُّه، بحيث لا يبقى في الأرض العلم، وإنما يبقى موجودًا في الكتب وصدور الحفاظ، وإنما المراد بقَبْضِ العلم هنا: قَبضُ أهله، وهم العلماء، فيتَّخذ الناس رؤوسًا جهالًا، يحكمون بجهالاتهم، فيَضلُّون، ويُضلُّون، فإذا ذهب العلماء بعد قبض أرواحهم، حلَّ محلَّهم المُتعالِمُون الجهال، فتُعرض عليهم المشكلات والمسائل، فيفتون بغير علم، وهذا ما سبق في كلام ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حثه على الاستعداد بالتسلُّح بالعلم.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَضَلُّوا**»؛ لأنهم أفتوا بغير علم، «**وَأَضَلُّوا**» غيرَهم، فتحصل منهم جريمتان في أنفسهم وفي غيرهم، فلا تجوز الفتوى بغير علم، ولا التخرُّص أو الاعتماد على الظَّنِّ، والله جَلَّوَعَلَا أنزل الكتاب والسُّنة، وسيأتي زمانٌ يُفقد فيه الذين يَفْتُون على ضوئهما، ولا يبقى إلا القراء والرؤوس الجهال في القضاء والمناصب التي يعتلونها، والتي يُظنَّ بسببها أنهم

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (١٣) (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

من أهل العلم، إلا أنهم يفتون بغير علم، ولهذا يُروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا»(١)؛ يعني: تعلَّموا قبل أن تتولَّوا المناصب والمراتب.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٨٤)، والدارمي (٢٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٠٦)، وفي المدخل إلى السنن الكبرى (ص٢٦٥)، وعلقه البخاري (١/ ٢٥) (بَابُ الاِغْتِبَاطِ فِي العِلْمِ وَالحِكْمَةِ).

١٢٦- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الفِتْنَةُ، وَفِيهِمْ تَعُودُ**». **رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ**(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ**» يوشك: من أفعال الشروع؛ يعني: يَقرُب أن يأتي على الناس وقت «**لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ**»، وهذا واقع في زماننا؛ لأن الذين ينتسبون للإسلام كثير، ولكن الإسلام الصحيح غريب؛ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا**»(٢)، فالذين يدَّعون الإسلام كثير، ولكنهم ليس عندهم من الإسلام معرفة ولا بصيرة، إلا مجرَّد الانتساب، فكثير منهم يعبدون غير الله عَزَّوَجَلَّ، فيَدْعون الأولياء والصالحين، ويبنون المشاهد على القبور، حتى جعلوها أوثانًا تُعبد من دون الله، ومنهم مَنْ يعبد الله بالبدع والمحدثات، ويترك السُّنن، فتراهم يُقيمون الموالد والاحتفالات، ويُسمُّونها بالمناسبات

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣١٧)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣/ ٥٤٥). والحديث ضعيف للانقطاع بين علي بن الحسين وعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وفيه أيضًا عبد الله بن ذكين، وهو ضعيف. انظر: الكامل لابن عدي (٤/ ١٥٤٣).

(٢) سبق تخريجه (ص٣١٠).

الدينية، ومن هؤلاء من يأكل الرِّبا، ويتعاملون بالقمار والميسر، ولا يُبالون بالحلال والحرام، وإنما يُجارون الكفار، ولايحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، وهم يدَّعون الإسلام، فيتعاملون بغير معاملة الإسلام، ومنهم مَنْ هو ليس على الإسلام أصلًا، بل هو مشرك وخارج عن الدِّين بشركه، ومنهم من هو مسلم، ولكنه ضعيف الإيمان، وعمله غير صحيح، يقوم على البدع والمحدثات، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]، والأدهى مِنْ ذلك -بعد الشرِّك- الذين لايصلُّون، ويقولون: (إنَّ الدين ليس بالصَّلاة)، والحقيقة أن تَرْك الصلاة كفر مُخرجٌ من الملَّة.

ثم إننا لو دققنا النظر في كثيرٍ من الناس في عالمنا الإسلامي -إلا مَنْ رحم الله-، لوجدناهم من هذه الأصناف، فلم يَبْقَ إذًا من الإسلام إلا اسمُه.

وقوله: «**وَلَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ**»، على الرَّغم من وجود القرآن في المصاحف، ولم يُغيَّر منه شيء، فهو باقٍ كما أُنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرسمُه موجود، ولكن معرفته والعمل به مفقود، وليس المراد من وجود القرآن حفظه أو تلاوته أو تجويده، وإنما المراد تدبُّره والعمل بما فيه، فإذا ذهب التدُّبر والعمل به، لم يَبْق إلا وجود المصاحف، وهذا لا يُجدي شيئًا، كوجود السلاح مع الإنسان الذي لا يُحسن استعماله، فإذا غدا عليه عدوٌّ، لا يستخدمه، وهذا لا يُفيد شيئًا، وهذا يُشبه وجود القرآن عند مَنْ لايعملون بما فيه، ولا يفقهون معانيه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٣).

وقوله: «مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى»، وهذه صفة أخرى من صفات هؤلاء الناس، فهم يبنون المساجد، ويزخرفونها، ولكنها خالية من ذكر الله، ولا يُدرَّس فيها العلم، بل ليس فيها صلاة؛ لأن بعض المساجد مغلقة، ولا يصلَّى فيها، فالمساجد خَرِبَت مِنَ الهدى، ولكنها عامرة بالبنيان، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨]، هذه هي عمارة المساجد، وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٦-٣٧]، هكذا تكون المساجد عامرة، وإن كان عمارها المادي من أي شيء؛ لأنها إن كانت عامرة بالهدى والنور وذِكر الله، فهي معمورة، فقد كان مسجد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قائمًا على جذوع النخل وعلى الجريد، وكان المطر إذا نزل، ينزل إلى داخل المسجد، فيسجد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه على الطِّين، ولم يكن للمسجد أبواب ولامصابيح، وكانت الكلاب تدخل فيه، وكان -مع ذلك كلِّه- منارة الدنيا، وهو الذي شَعَّ منه النُّورُ في العالم، وهو الذي خرج منه المجاهدون والأبطال، وخرج منه العلماء والأحبار، فالعِبْرة ليست في نوع البُنيان وضخامته، وإنما العبرة بما يحصل في هذه المساجد من العبادة والتعليم.

وقوله: «عُلَمَاؤُهُمْ شَرٌّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ»؛ لأنهم لا يقولون كلمة الحقِّ، ويتابعون هوى الناس، فيفتونهم بما يصلح لهم، ولا يغضبون المسؤولين، ويتلمَّسون لهم الرخص، بحجة التوسعة لهم وللناس، فلايفتونهم بالحقِّ

والعلم الصحيح، فهم شَرٌّ من تحت أديم السماء، وإن كانوا علماء، وقد شبَّه الله مثل هؤلاء بالحمير والكلاب، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، هؤلاء هم شر من تحت أديم السماء.

وقوله: «**مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الفِتْنَةُ، وفِيهِمْ تَعُودُ**»؛ لأنهم يفتنون الناس بأعمالهم وأقوالهم، فيصرفونهم عن دينهم، يفتونهم بأن الدعاء لغير الله هو من الدين، وهو الذي عليه المسلمون، وينسون قول الرسول ﷺ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١)، وقوله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»(٢)، وعلماء الضلال أشدُّ خطرًا على المسلمين؛ لأن الناس يقتدون بهم، وقد سمعنا من يقول: لو كان دعاء الحسن والحسين والبدوي شركًا، لما سكت العلماء على ذلك، فصار العوام وكثير من الناس في ذمَّة هؤلاء العلماء الضالِّين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣) (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

١١ - بَابُ التَّشْدِيدِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ

[تَحْرِيمُ الرِّيَاءِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ]

١٢٧ - عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

الشَّرْح

قوله: (**بَابُ التَّشْدِيدِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ**) التشديد يعني: التحذير من طلب العلم، لا لأجل العمل، وإنما لأجل (المراء)، وهو الشَّك، فإنَّ كل واحد من المتحاجِّين يَشُكُّ فيما يقوله الآخر، ويُشكِّكُه؛ لِمَا في ذلك من حُبِّ الظهور (والجِدال) أي: الدُّخول في المناظرات والمناكفات لإظهار العلم أمام الناسِ.

فمن ساءت نيَّتُه في طلب العلم، صار من أهل النار، ومن ذلك الذين يتعلَّمون العلم من أجل أن يُجاروا العلماء.

فقوله: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ**» أي: ليس لوجه الله، وإنما «**لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ**»؛ أي: يجري معهم في المناظرة والجدال؛ ليظهر علمه في الناس رياءً وسمعةً، «**أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ**»؛ أي: ليُجادل به الجهال، أو لأجل أن «**يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤).

النَّاسِ إِلَيْهِ»؛ ليُعظِّموه، ويُقدِّروه، ويُجِلُّوه، وليقولوا: هو عالمٌ. فإذا كان هذا هو قصد طالبِ العلم، فإنه من أهل النار، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَدْخَلهُ اللهُ النَّارَ**»؛ لأن العلم لم ينزَّل لذلك، وإنما نزِّل للعمل الصالح والإخلاص لوجه الله والتواضع ونفع الناس.

[الْجَدَلُ سَبَبُ الضَّلَالِ]

١٢٨ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ**»، **ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **هَذِهِ الآيَةَ:** ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]. **رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجه**(١).

الشَّرح

في هذا الحديث بيان أن الناس إذا تركوا العمل بالعلم، ولم يعملوا بالسُّنة، فإنَّهم يُبتَلَون بالضدِّ، وهو الجَدَل الذي هو بَدَل العلم النافع، فمن تَرك سبيل الهُدى، وركب سُنن الضلالة، ولم تَمشِ أحواله إلا بالجدل؛ أي: بالخصومة بالباطل؛ ليُروِّج للمذاهب الكاسدة والعقائد الفاسدة، لا المناظرة لإظهار الحق واستعلام ما ليس معلومًا عنده، أو تعليم غيره ما عنده، ابتلاه الله بالجَدَل، ومن ترك السُّنة، ابتُلي بالبدعة والمحدثات؛ عقوبة له.

فالواجب على المسلمين عمومًا وطلبة العلم خصوصًا العمل بالعلم والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والحَذَر مِنَ البِدَع والمُحدَثات، وإلا فإنَّ الله سيُعاقبهم، فيُبدلهم الجَدَل بدل العلم، والجَدَل لا فائدة فيه، فليس من سماته إلا المغالطات

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٣٦/ ٤٩٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٧٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٧)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٢٨).

والمُهاترات ومحبَّة الغلبة والظُّهور على الخصم، فهذه عقوبة، وإذا تركوا السُّنة، ابتُلوا بإحياء البِدَع والمُحدَثات؛ كما هو واقع ومشاهد.

ولمَّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، قال المشركون: أَكُلُّ مَنْ عُبد دون الله في جهنم مع مَنْ عَبدَه، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟!! فأنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف:٥٨][1]، هم يعرفون أن قولهم هذا باطل، وإنما قصدهم الجدال، ودفع الحقِّ فقط، فهم يعرفون أن عيسى ابن مريم رسول الله، وأنه ينهى عن عبادته، ولا يرضى الشِّرك، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]؛ أي: أصحاب خصومة، يريدون التغلُّب بالباطل، فهذا دليل على أنَّ من ترك الحق، فإنه يُبتلى بالجدل، فهؤلاء لما تركوا ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إخلاص التوحيد، ابتلاهم الله بالجدل.

ولكن الله تعالى قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، ومن أولى هؤلاء عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد سبقت له الحسنى؛ لأنه رسول الله، فالله جَلَّ وَعَلَا ردَّ عليهم بهذا الردِّ.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٦/ ٤١٧)، وابن كثير (٥/ ٣٧٩).

[مَنْ أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ؟]

١٢٩- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ**[1].

الشَّرح

في هذا الحديث النهي عن الجَدَل والخصومات، وأنه ينبغي على المسلم إرادة الحقِّ، لا التغلُّب بحُجَّته وإن كانت باطلة؛ كما هو حال أهل الضلال.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأَلَدُّ**» أي: شديد الخصومة بالباطل.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الخَصِمُ**» أي: الحاذق بالخصومة؛ والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حقٍّ أو إثبات باطل.

والله جَلَّ وَعَلَا يُبغض الألدَّ الخصم؛ لأنه ليس قصده الحقَّ، وإنما حبُّ ظهور الحُجَّةِ بالخصومة، ولو بالباطل؛ ولأنَّ كثرة المخاصمة تفضي غالبًا إلى ما يُذَمُّ صاحبه؛ لأن أكثر المخاصمة تكون في باطلٍ من أحد الطرفين، ولهذا جاء النهي عنها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧، ٤٥٢٣، ٧١٨٨)، ومسلم (٥) (٢٦٦٨).

١٣٠ - وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ، دَخَلَ النَّارَ -أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الكَلِمَةِ- لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنْ الْأُمَرَاءِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ[1].

الشَّرْح

قوله: «لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ»، سبق الكلام عليها في حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول الباب.

وقوله: «أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنْ الأُمَرَاءِ»؛ أي: يطلب العلم الشرعي؛ ليحصل به من فُتات الدنيا، أو لأجل أن يقدِّره الأمراء، ويعطوه المال، فإذا كان هذا قصده، فهو في النار؛ لأن العلم عبادة، والعبادة إنما ينبغي أن يُطلب بها ثواب الآخرة، لا طَمعَ الدنيا.

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٧٩).

١٣١- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارُونَ فِي الدِّينِ: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ للهِ عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ، وَأَنَّهُمْ لَهُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْفُصَحَاءُ وَالطُّلَقَاءُ وَالنُّبَلَاءُ، الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، طَاشَتْ عُقُولُهُمْ، وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حَتَّى إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ، تَسَارَعُوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ، يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفْرِطِينَ، وَإِنَّهُمْ لَأَكْيَاسٌ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الضَّالِينَ وَالْخَطَّائِينَ، وَإِنَّهُمْ لَأَبْرَارٌ بُرَآءُ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ، وَلَا يَرْضَوْنَ لَهُ الْقَلِيلَ، وَلَا يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِم، حَيْثُمَا لَقِيتَهُمْ مُهْتَمُّونَ مُشْفِقُونَ وَجِلُونَ خَائِفُونَ». رَوَاهُ أَبُو نُعَيمٍ[(١)].

الشَّرح

هذا كلام عظيم من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَصِفُ فيه العلماء الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون.

قوله: «أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ»؛ لأن العلم قسمان:

القسم الأول: علمٌ على اللسان فقط، وهذا يكون مع المنافق ومع مَنْ يريد الدنيا أو مَنْ يريد الجدال والخصومة، وهذا علمٌ لا ينفع، بل يَضُرُّ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٤٣)، وأبو عمر العدني في الإيمان (ص٧٢)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٧٩).

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»(١).

القسم الثاني: علم القلب، وهو العلم النافع، وهو الذي ترافِقُه الخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فإذا أُعطيَ الإنسانُ علمَ اللسانِ وعلمَ القلب والخشية، كان عالمًا، وأما إذا أُعطيَ علمَ اللسانِ، ولم يُعطَ علم الخشيةِ، كان خاسرًا، ولن ينفعه علمُه، وإنما يكون حجَّةً عليه يوم القيامة.

وقوله: «**يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفْرِطِينَ**»؛ أي: لا يستكثرون أعمالهم، ولو كانت كثيرة، وإنما يستقلُّونها؛ لأنَّ حقَّ الله أعظم، ولا مقارنة بين أعمال العباد وبين حقِّ الله تعالى عليهم، فنِعَمه تعالى كثيرة، ولن يؤدِّي حقَّها العبادُ مهما كانت أعمالهم كبيرة، وهو في جانب حقِّ الله قليل؛ ولذلك فإن من صفة هؤلاء العلماء الأتقياء أنهم لا يفتخرون بأعمالهم على الناس ولا بعلمهم، بل يعتبرون أنفسهم من أقل الناس عملًا، وأدناهم منزلة، فلا يترفَّعون عليهم، وإنما يتواضعون لله عَزَّوَجَلَّ؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، قالت عائشة

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٩) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

-رضي الله تعالى عنها- لما سمعت هذه الآيات: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قالت: «أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١]»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد (٤٢/ ١٥٦).

١٣٢- قَالَ الحَسَنُ -وَسَمِعَ قَومًا يَتَجَادَلُونَ-: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَةَ، وَخَفَّ عَلَيهِمُ الْقَولُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ، فَتَكَلَّمُوا»(١).

الشَّرْح

قوله: «**مَلُّوا الْعِبَادَةَ**»، ولذلك اشتغلوا بالجدل والمناقشات، فلما تركوا العبادة، انصرفوا إلى الجدل.

قوله: «**خَفَّ عَلَيهِمُ الْقَولُ**»؛ أي: يستمرُّون في حلقات الجدال، ولا يَمَلُّون منه، حتى أصبح أهون عليهم من أيِّ شيء آخر، بخلاف العبادة التي يَمَلُّون منها.

وقوله: «**وَقَلَّ وَرَعُهُمْ، فَتَكَلَّمُوا**»، بسبب اشتغالهم بالجدل والكلام لم يَبق عندهم ورع، ولو كان عندهم ورع، لعلموا أنَّ الله سيُسجِّل عليهم كلامهم، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، فلو تذكَّروا هذا، لقلَّلوا من الكلام، إلا في طاعته عَزَّوَجَلَّ.

ويدخل في هذا الأمر الذين يُصْدِرون الأحكام الشرعية، ويُفْتون الناس دون علم أو تثبُّت لقلَّة ورعهم؛ إذ لو كان عندهم ورع، لما تساهلوا في الفتوى والتحليل والتحريم، الذي هو من أشدِّ ما يترتب على قلَّة الورع.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص٢٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٦).

١٢- بَابُ التَّجَوُّزِ فِي الْقَوْلِ وَتَرْكِ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ

١٣٣- وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[(١)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**التَّجَوُّزِ فِي الْقَوْلِ**)؛ يعني: الاختصار، والمراد: الكلام بقدر الحاجة وعدم الزيادة في الكلام بشيءٍ لا يُحتاج إليه؛ لأن هذا يُثقل السامع، ويتسبَّب له بالملل، وربما يُنسي المستمعين معنى الكلام الذي يقصده المتكلِّمُ، فالإطالة في الكلام تسبِّب إضاعة المعنى، بخلاف قلَّة الكلام والاختصار، التي يتَّضح فيها المعنى، ولهذا كان كلام النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختصرًا ووجيزًا ومعدود الكلمات، ولم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتكلَّم لأكثر من الحاجة، ولهذا كانت خُطَبُه وأحاديثُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحفظ؛ لأنها من جوامع الكلم؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**»[(٢)].

وقوله: (**وَتَرْكِ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ**)، التكلُّف: هو إظهار البلاغة والفصاحة، والتنطُّع: هو التَّعمُّق والغُلوُّ في الكلام والتوسُّع فيه، وهذا حاصل عند بعض

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٢٧)، والإمام أحمد في المسند (٣٦/ ٦٤٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٩٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨، ٧/ ١٧١)، وعبد الرزاق (٦/ ١١٢) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المتحدثين والخطباء في وقتنا الحاضر -مع أن الأصل في المتكلمين والخطباء أن يؤدُّوا الكلام بأسلوب واضح وعبارات واضحة، والابتعاد عن العبارات الغريبة والأساليب المعقَّدة-؛ لإرادة إظهار الشخصية والفصاحة، فينبغي اختيار الألفاظ الواضحة التي لا لَبْسَ فيها، وعدم التَّعمُّق بالألفاظ الغامضة والغريبة، بحيث يصعب على السامع فَهمُها، وهكذا كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الإِيمَانِ**»، الحياء: خُلقٌ يمنع الإنسان مما يُستحيا من قوله أو ظهوره ومما لا يليق، هذا هو الحياء المحمود، وهو من الإيمان؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**»(١)، والمطلوب هو الحياء الذي يَكُفُّ صاحبه عما لا يليق، وهو الذي يكون من الإيمان. وأما الحياء الذي يمنع صاحبه من التعلم والسؤال عما يحتاج إليه، ومن التعليم والدعوة إلى الله، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو حياءٌ مذموم، وهو خجل لا حياء، وهو غير مطلوب(٢)، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، فالحياء الذي يمنع من الحقِّ هو حياء مذموم، وليس هو الممدوح.

وقوله: «**وَالْعِيُّ**»؛ يعني: قلة الكلام، لا العجز عن الكلام، فيكون هذا شاهدًا للباب، فينبغي الاقتصار على ما يُحتاج إليه من الكلام، وعدم الزِّيادة

---

(١) سبق تخريجه (ص١١).

(٢) انظر في الفرق بين الحياء والخجل: معجم الفروق اللغوية (ص ٢١٢)، وتاج العروس (٢٨/ ٣٩٦).

فيه شيئًا لا يُحتاج إليه، وهذا من الإيمان -أيضًا-، وإن صاحبه يكون متَّصفًا بالإيمان، فإن كان يريد المدح والثناء، فهو من النِّفاق، لكن إذا كان يريد بيان الحقِّ، لا المدح والثناء، فهو من الإيمان؛ فقلَّة الكلام والاقتصار على ما يُحتاج إليه إنما هو من الإيمان، بخلاف كثرة الكلام التي هي من النِّفاق؛ لأن الغالب على صاحبه حُبُّ الظُّهور والمدح.

وقوله: «**وَالبَذَاءُ وَالبيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ**» «البَذَاءُ»: هو مقابل الحياء، وهو من البذاءة التي هي الإساءة والفُحْش، وهو من خصال المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨].

«**وَالبيَانُ**»: هو كثرة الكلام والتَّعمُّق في النُّطق والتَّفاصُح، وإظهار التقدُّم فيه على الناس، وكأنه نوع من العُجب والكِبْرِ، ولكن سيأتي أنَّ مِنَ البيان ما هو ممدوح، وهو البيان الذي يُظهر الحقَّ، ويوضِّحه للناس، بخلاف البيان الذي يحمل صاحبه على حُبِّ المراء الذي هو من النِّفاق.

فقوله: (البَذَاءُ) يقابل قوله: (الْحَيَاءُ)، وقوله: (البَيَانُ) يقابل (العِيُّ)؛ فالمراد بالبيان هنا: كثرة الكلام دون فائدة.

[مَنِ الَّذِي يُبْغِضُهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

١٣٤ - وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ، الْمُتَفَيْهِقُونَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ**[١].

١٣٥ - وَلِلتِّرْمِذِيِّ نَحْوُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

الشَّرح

في أوَّل الحديث الحثُّ على حُسن الخُلق، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَاسِنَكُمْ**» جمع حَسَن؛ أي: حَسَن الخُلق هو الذي يُحبَّه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكون منزله يوم القيامة قريبًا من منزل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحُسن الخُلق ميْزة عظيمة، امتَنَّ الله بها على مَنْ يشاء من عباده؛ ولهذا مدح الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم:٤]، وقال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسَنَ الخُلقِ، وأكملَ الناسِ خُلقًا، وهو يُحبُّ محاسِنَ الأخلاق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٩/ ٢٦٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢١٠)، وابن حبان (٢/ ٢٣١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٦٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٣٢٦)، وفي شعب الإيمان له (٧/ ٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨).

ففي هذا الحثُّ على حُسن الخُلق وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه، وهو نعمة من الله يُعطيها لمَن يشاء، ولهذا ينبغي للعبد أن يُحسِّن أخلاقه، ويُربِّي نفسَه على ذلك، ويُعوِّدها على حُسن الخُلق، وإن كان أصل حُسن الخُلق من الله تعالى، وعلى العبد أن يتسبَّب في هذا، فيتواضع، ويبذل المعروف، ويخالط الناس بالجميل والبِشْر.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا**»؛ أي: إن أصحاب الأخلاق السيئة هم أبغضهم إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا، وأبعدهم عنه يوم القيامة، وهم «**الثَّرْثَارُونَ**»، وهم الذين يُكثرون الكلام تكلُّفًا وخروجًا عن الحقِّ، و«**المُتَشَدِّقُونَ**»، وهم المتوسعون في الكلام من غير احترازٍ واحتياط، ومما يُروى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله[1]:

وزِنِ الكَلامَ إذَا نَطقْتَ ولا تَكُنْ ... ثَـرْثَـارَةً في كُـلِّ نَـادٍ تَخْـطُـبُ

واحْفَظْ لِسَانَكَ واحْتَرِزْ من لَفْظِهِ ... فـالمَرْءُ يَـسْلَـمُ باللِّسَانِ وَيَعْطَبُ

والمتشدِّق في الأصل: هو الذي يملأ شدقه وفمه تعاظمًا وإعجابًا بنفسه، وكذلك «**المُتَفَيْهِقُونَ**»، هم الذين يتوسَّعون في الكلام، ويفتحون به أفواههم تكبُّرًا، وهي صفات ذميمة، والشاهد في الحديث: آخره في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الثَّرْثَارُونَ، المُتَشَدِّقُونَ، المُتَفَيْهِقُونَ**».

---

(١) انظر: نوادر الخلفاء (١/ ٢٦٣)، ومجموعة القصائد الزهديات (١/ ٤٦٣، ٢/ ٤٨٠).

[مِنْ عَلَامَاتِ قِيامِ السَّاعَةِ
خُرُوجُ قَومٍ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ]

١٣٦- وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلسِنَتِهِمْ؛ كَمَا تَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلسِنَتِهَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ(١).

الشَّرح

في هذا الحديث ذمٌّ للذين يمدحون الناس بما ليس فيهم من أجل الحصول على عطائهم، فيأكل بلسانه، فيستعمل لسانه لأجل الأكل، فهو يمدح الناس، ويُكثر الثناء عليهم لأجل هذا -لاسيما الأمراء والملوك-، فهذه صفة ذميمة؛ لأن طلب الرزق لا يكون بهذه الطريقة، وإنما يكون بالطريقة المشروعة، وليس بالنِّفاق والتَّملُّقِ وكثرة المدائح.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَمَا تَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلسِنَتِهَا**»، هذا تمثيل يُقصد منه الذَّم، ووجه الشَّبه بينهما: أن هؤلاء القوم يتَّخذون ألسنتهم ذريعةً إلى مأكلهم؛ كما تأخذ البقر بألسنتها، ووجه الشبه بينهما: لأنهم لا يهتدون من المأكل؛ كما أن البقرة لا تتمكن من الاحتشاش إلا بلسانها، والآخَرُ: أنهم لايميِّزون بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام؛ كما لا تميِّزُ البقرةُ في رَعْيها بين رَطِبٍ ويابس،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٥٤)، والبزار في مسنده (٤/ ١٧، ٤٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٥٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/ ٤٦).

وحلو ومُرٍّ، بل تَلُفُّ الكلَّ، وفي هذا تمثيل ذمٍّ لمن جعل لسانه سببًا لأكله وتكسُّبه؛ كما تفعل البقرة باحتشاشها الأكل بلسانها، وخصَّ البقرة بالذِّكر؛ لأن جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها، وهي تجمع بلسانها.

١٣٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَللُ بِلِسَانِهِ؛ كَمَا تَتَخَللُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ(١).

الشَّرْح

وهذا الحديث مثل الذي قبله في ذمِّ المتكلِّف في الكلام، دون تمييز بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَبْغَضُ البَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ**»، البليغ: هو الذي يُنمِّق الكلام والمبالغ في فَصاحته وبلاغته بالمدح والثناء؛ طمعًا في الحصول على المكاسب والتأكُّل بذلك، فهذا مبغوضٌ ومذموم، بخلاف البلاغة الخَلْقية التي هي غير مذمومة، وكما في الحديث السابق، فقد شبَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الصِّنف من الناس -الذين يتشدَّقون، ويتكلَّفون بالكلام والفصاحة- بالحيوان، والحقُّ أن الإنسان كرَّمه الله، ولكن هذا الصِّنف من الناس لم يكرِّم نفسه، فصار مثل البقرة البهيمة التي «تَتَخَللُ»؛ أي: تَلُفُّ الكلأ بلسانها لفًّا، ووجه الشبه في ذلك: إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلُّم؛ كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل!!!

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، والإمام أحمد في المسند (١١/ ١٠١، ٣٧٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٠٠)، والبزار في مسنده (٦/ ٤٢٢)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٣).

١٣٨- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ، أَوْ النَّاسَ، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ**(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الكَلَامِ»** يعني: تحسين الكلام وتنميقه، وما يتكلَّفه الإنسان من الزِّيادة فيه وراء الحاجة، ولهذا سمِّي الفَضْل أو الزائد من النَّقدين صَرْفًا.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ، أَوْ النَّاسَ»**؛ أي: ليستميلهم، وفي هذا وعيد شديد؛ حيث إن الله يوم القيامة لا يقبل منه **«صَرْفًا»**، والصَّرف: هو الفريضة أو التوبة، **«وَلَا عَدْلًا»**؛ أي: ولا نافلةً؛ حيث لا يقبل الله منه نافلةً ولا فريضة، وهذا وعيد شديد بحقِّ مَنْ يتعلَّم البلاغة والخطابة والشعر من أجل أن يتأكَّل بلسانه، وأما مَنْ تعلَّم البلاغة من أجل أن يُحسن الخطاب فيما ينفع ويُفيد واستمالة قلوب الناس إلى الخير، فهذا أمرٌ طيب؛ لأن حُسن الكلام يستميل الناس، فإن كانت الاستمالة لأجل الدِّين، فهو أمرٌ مرغوب فيه، بخلاف استمالتهم لأجل الدنيا الذي جاء فيه الوعيد الشديد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٤).

[صِفَةُ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

١٣٩- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ: «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»**(١).

وقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا، لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ، لأَحْصَاهُ»**(٢).

وقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ»**(٣).

رَوَى أَبُو دَاوُدَ بَعْضَهُ(٤).

الشَّرْح

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»**؛ أي: كان كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيِّنًا واضحًا؛ لكونه مأمورًا بالبلاغ المبين، وهذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق:١٣]؛ أي: بين الحقِّ والباطل، فهو واضح ليس فيه غموضٌ ولا التباسٌ، هكذا كان كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يكن يتكلَّف الألفاظ الغريبة، وإنما يختار الألفاظ التي يفهمها السامعون من العوام والمتعلمين، وهذا هو المقصود: إفهامُ السامعين باختيار الألفاظ الواضحة البيِّنة في خطبة الجمعة والمحاضرات ومحادثة الناس، مع الابتعاد عن الألفاظ التي لا يفهمها إلا القليل من الناس.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٩)، وأحمد في المسند (٤١/ ٥٢٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (١٦٠) (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٧١) (٢٤٩٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٥٤، ٣٦٥٥).

ففي هذا الحديث الحثُّ على اختيار الألفاظ والأساليب التي يفهمها المخاطبون، ولهذا قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١).

فينبغي للمتحدث والخطيب أن يختار الألفاظ الواضحة والبيِّنة التي لا لَبْسَ فيها؛ ليأخذ عنه المستمع ويحفظ، وأن يختار من الأدلَّة المحكَمة الواضحة، وعدم الإتيان بالأدلَّة المتشابهة، بحيث تلتبس وتشتبه على الناس، وأن يراعي مستوى الحاضرين؛ إن كانوا عوامًّا، فيُخاطبهم بما يفهمون، وإن كانوا متعلِّمين، فيُخاطبهم خطابَ العلماء، وإن كانوا مختلطين من العلماء والعوام، فيأتي بالألفاظ والأساليب التي تَصلُح للجميع.

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا، لَوْ عَدَّهُ العَادُّ، لأَحْصَاهُ»**؛ أي: لو أراد المستمع عدَّ كلماته أو حروفه، لأمكنه ذلك بسهولة، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقلِّل الكلام مع جزالته، وهذا بخلاف ما هو عليه بعض الخطباء في وقتنا الحاضر، الذين يبالغون في إطالة خُطبهم، والتي غالبًا لا يستفيد منها الحاضرون، بل على العكس يتذمَّرون منها، ويصفونها بالمُمِلَّة.

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ»**؛ أي: لم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُتابع الحديث استعجالًا، وإنما كان يتكلَّم بكلام متتابع مفهوم واضح على سبيل التأنِّي؛ لئلا يلتبس على المستمع، وقد كان من صفات خطابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّرسُّل في الكلام، فلا يُسرع بحيث يَفوتُ على السامع،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧)، وفيه: «أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ».

مع اختيار الألفاظ الفَصْل الواضحة، التي لا تحتاج لأن يُسأل عن معناها، مع التمهُّل في إلقاء الخطاب؛ لوصول الفائدة إلى المستمعين.

ولذلك فإنَّ الخُطبَ المرويَّة عن الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا قرأها القارئ، لوجدها لا تتجاوز نصف الصفحة أو أقل، ولكنها لو شُرحت، لبلغت المجلدات؛ لأنها من جوامع الكَلِم، فليس الشأن في كثرة الكلام، وإنما في الإفادة التي تتأتَّى من هذه الخُطَب، ولو كانت قليلة، وقد عوَّد الخطباء في وقتنا الحاضر الناس على التطويل في الخطابة، وهذا على خلاف ما نراه من خُطَب القدماء -وهي مدوَّنة-، التي لو رجعنا إليها، لوجدنا أن الطويلة منها لا تبلغ النصف صفحة، ومثال ذلك خُطب المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[التَّرْغِيبُ فِي قِلَّةِ الْكَلامِ]

١٤٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يُعْطَى زُهْدًا فِي الدُّنْيَا، وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ، فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ». رواه البيهقي في شعب الإيمان**(١).

الشَّرْح

وفي هذا الحديث الترغيب في قلَّة الكلام، فالذي لا يتعلَّق قلبُه في الدُّنيا وبجمع المال، وإنما بالعمل الصالح، فإنه لا يأخذ من الدُّنيا إلا بقَدْر ما يُعينه على العيش؛ لأنه ليس الزُّهد في تَرْك الدُّنيا، وإنما في تَرْك ما لا يُحتاج إليه، فمَن اجتمعت فيه الصفتان: الزُّهد في الدنيا، مع قلة الكلام، فارغبوا فيه وفي مجالسته؛ لأنه «يُلْقِي الحِكْمَةَ» من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُعْطَى زُهْدًا**»؛ أي: من الله جَلَّ وَعَلَا «**فِي الدُّنْيَا**»؛ أي: استصغارًا لشأنها وأهلها.

وقوله: «**وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ**»؛ أي: قليل من الكلام في غير طاعةٍ إلا بقَدْر الحاجة.

وقوله: «**فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ**»؛ أي: فارغبوا فيه والزَموه، لأنه لم يُحرم الإصابة في القول، ولا رؤية الأشياء في غير موضعها، وإنما يضع

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٤٧)، وأخرجه ابن ماجه من طريق آخر عن أبي خلاد (٤١٠١).

الأشياء كما هي، فإنه ينظر بنور الله، ومن كان هذا وصفه، أصاب في منطقه؛ والحكمة هي: الفقه في أمور الدين والدنيا. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، وتُطلق الحكمة، ويراد بها وضعُ الشيء في موضعِه، وتُطلق ويراد بها: الفقه في الدِّين[1]، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢] قيل: الحكمة هي السُّنة. وقيل: الحكمة هي الفقه في الدِّين. ولا تعارض بين المعنيين؛ لأن السُّنة هي الفقه في الدِّين.

(١) انظر: جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٣٩٠)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٤٨)، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة (١/ ٧٣).

١٤١- وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا»[١].

الشَّرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا**»، البيان: هو البلاغة والفصاحة في القول، والسحر في الأصل: الصَّرف، وسمِّي السِّحر سحرًا؛ لأنه يصرف قلوب الحاضرين، ويجذب الأسماع، ويُغيِّر الأشياء، فالبليغ يستطيع أن يصوِّر الحقَّ باطلًا والباطل حقًّا ببلاغته، وكذلك السِّحر يُغيِّر الحقائق، والبلاغة نوع من السِّحر، من خلال تغيير الحقائق بتمويه اللفظ عن تدبُّر المعنى؛ ولذلك سمِّي سحرًا، وهو سحر كلامي يسحر الناس ويستميلهم[٢]، ولهذا يقول الشاعر[٣]:

فِي زُخْرُفِ القَولِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... حُسْنُ البَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠١٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ١٨٠)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٣٦٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٨٢).

(٢) انظر: مادة (سحر) في: تهذيب اللغة (٤/ ١٧٠)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٣٨)، ولسان العرب (٤/ ٣٤٨)، والتعاريف (ص١٩١).

(٣) من نظم ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، الشاعر المشهور، في ديوانه (ص٢٢٦٩). وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص٢٢٥)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح الموصلي (١/ ٣٧٩).

فالبليغ يستطيع أن يغيِّر الأشياء عن حقائقها ببلاغته، هذا معنى «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**».

وقد قال بعض العلماء: (إنَّ هذا من باب الذَّمِّ للبلاغة، ويكون المقصود من هذا منع الناس من الإعجاب والاغترار بأصحاب البلاغة).

ففي هذا الحديث: الحثُّ على أن يكون الاهتمام والإعجاب والاستقباح إلى جانب المعنى.

والبعض الآخر يقول: هذا من المدح للبلاغة، والصواب: أن البلاغة لا تُمدح ولا تُذمُّ لذاتها، وإنما تُمدح أو تُذمُّ لِمَا تُستعمل فيه، فإن استُعلمت لبيان الحقِّ، فهذا محمود، وإن استعملت لنُصرة الباطل، فهذا مذموم، ولذلك كان من الخطباء والشعراء مَنِ اتَّخذهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد اتَّخذ من الخطباء مَنْ يَخطب عند الوفود، واتَّخذ من الشُّعراء كحسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد اتَّخذ من شعرهم نُصرةً للدعوة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ مِنَ العِلمِ جَهْلًا**»؛ لكونه مذمومًا، والجهلُ به خيرٌ منه، والمراد: من العلوم ما لا يحتاج إليه؛ فيشتغل به عن تعلُّم ما يحتاجه في دينه، ويكون فيما إذا دخل العالم فيما لم يَبلغْهُ علمُه، فإنه ينقلب إلى جهل، فعلى العالم أن يتوقَّف عند علمه، ولا يتكلَّف ما لا يعلمه، فإن تكلَّف ما لايعلمه، صار جهلًا.

وقوله: «وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا»، الشِّعر معروف أنه من أنواع الكلام على اعتبار أن الكلام ينقسم إلى قسمين: نثر، وشعر، والشِّعر إن استُعمل في نُصرةَ الحقِّ، فهو محمود؛ كالدَّعوة إلى الله، والرَّد على الباطل؛ كشعر حسّان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأما الذي يستعمل شعره في الباطل والمجون والغزل والعشق، أو لمدح الخمر والمعاصي، فهو مذموم، فالشعر منه ما هو ممدوح، وفيه حِكْمة؛ ولذلك نجد بعض الشعراء ينطق بالحكمة في شعره كالمتنبي، وكعب بن زهير، وزهير بن أبي سُلمى، فالشعر كغيره من الكلام محمود ومذموم، والشعر هو ديوان العرب، تُؤخذ اللغة منه، وخصوصًا شعر الجاهلية وصدر الإسلام، فتؤخذ الشواهد منه على أنه حُجَّة في اللغة العربية، وتؤخذ منه الحِكَم والأمثال والمواعظ، فلا يُزهد فيه كلِّه، ولا يُحمد كلُّه.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَإِنَّ مِنْ الْقَوْلِ عِيَالًا»، العائل: هو الذي يمشي على غير طريق -كالضالِّ والضائع-، وهو خطاب مَنْ لا يُصغي لك، وعَرْضُك حديثك على مَنْ لا يُريده، وليس من شأنه، فينبغي عدم خطاب من لا يصغي إليك؛ لأنه من العِيَال؛ أي: من الضَّياع.

١٤٢- وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا، وَقَامَ رَجُلٌ، فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ، فَقَالَ عَمْرٌو: لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ، أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ، فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ». رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُدَ(١).

آخِرُهُ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا.

الشَّرْح

في هذا الحديث أنه تكلَّم رجلٌ عند عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أميرًا على مصر في زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأكثر الرَّجل الذي تكلَّم القولَ، فانتقده عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «لوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لكَانَ خَيْرًا لهُ»؛ وذكر الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لقَدْ رَأَيْتُ، أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي القَوْلِ»**؛ أي: علمت -أو أُمرت- شكٌّ من الراوي **«أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي القَوْلِ»**؛ أي: أختصر فيه، وأُخفِّف عن السامع. وهذا من صفة كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما سبق بيان ذلك.

وقوله: «فَإِنَّ الجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ»، وهو الاقتصار على قدر الكفاية؛ لأنه يحصل فيه المقصود دون تكلُّف، ودون إتعابٍ للسامع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٨).

وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «**هُوَ خَيْرٌ**» دليل على أن عدم التجوُّز فيه شرٌّ، وأن أمره يؤول إلى أمور مذمومة، وفيه خلطٌ للمعنى المراد، فهذا الاختصار من أعظم آداب الكلام، فعلى المرء ألا يتكلم إلا بقَدْر الحاجة، ولا يتكلم إلا إذا كان للكلام مناسبة، وإلا يكون «**وَإِنَّ مِنْ الْقَوْلِ عِيَالا**»؛ كما في الحديث السابق، فيضيع الكلام، ولا يُستفاد منه، وأكثر مَن يُطالب بذلك الذين يتحدَّثون على المنابر وفي النَّدَوات وفي الدروس، فينبغي اقتصارهم في الكلام بقَدْر ما يفيد السامعين، ويتناسب مع مستواهم.

المراجع

- الإبانة الكبرى لابن بطة، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- إثبات صفة العلو، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ١.
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩١.
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ١٣.
- الإحكام في أصول الأحكام، اسم المؤلف: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد، دار النشر: دار الحديث القاهرة ١٤٠٤هـ الطبعة الأولى.

❁ اختصار علوم الحديث، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، عدد الأجزاء: ١.

❁ الإخلاص والنية، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، حققه وعلق عليه: إياد خالد الطباع، الناشر: دار البشائر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة: الثالثة، عدد الأجزاء: ٣.

❁ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، المؤلف: محمد بن علي ابن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٢.

❁ إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف

كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، المحقق: صلاح الدين مقبول أحمد، الناشر: الدار السلفية - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥.

- أساس البلاغة، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ٢.
- الأسماء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢.
- أصول السرخسي، المؤلف: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، عدد الأجزاء: ٢.
- الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية، مصر.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر ابن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب

الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، المحقق: علي سامي النشار، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٢.
- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، المؤلف: أبو عمر يوسف ابن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨هـ)، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، الناشر: مكتبة دنديس - عمان، عدد الأجزاء: ٢.
- الإيمان الأوسط، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، المحقق: محمود أبو سن أبو يحي، حالة الفهرسة: غير مفهرس، الناشر: دار طيبة، سنة النشر: ١٤٢٤، عدد المجلدات: ١، رقم الطبعة: ١.

- الإيمان الكبير، شيخ الإسلام ابن تيمية. المكتب الإسلامي.
- الإيمان للعدني، اسم المؤلف: محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، دار النشر: الدار السلفية - الكويت - ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: حمد ابن حمدي الجابري الحربي.
- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- البدء والتاريخ، المؤلف: المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، عدد الأجزاء: ٦.
- البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧ هـ)، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عدد الأجزاء: ٦.
- بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، المؤلف: محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، أبو الثناء، شمس الدين الأصفهاني (المتوفى: ٧٤٩هـ)، المحقق: محمد مظهر بقا، الناشر: دار المدني، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٣.

❁ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

❁ بيان فضل علم السلف على علم الخلف، المؤلف: ابن رجب الحنبلي، المحقق: محمد بن ناصر العجمي، حالة الفهرسة: مفهرس فهرسة كاملة، الناشر: دار الصميعي، سنة النشر: ١٤٠٦، عدد المجلدات: ١، رقم الطبعة: ٢.

❁ تاج العروس من جواهر القاموس، محبّ الدِّين أبو الفيض محمد بن مرتضي الزبيدي، دار الفكر، طبعة ١٤١٤هـ.

❁ تاريخ أبي زرعة الدمشقي، المؤلف: عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله ابن صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (المتوفى: ٢٨١هـ)، رواية: أبي الميمون بن راشد، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب - بغداد)، الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق، عدد الأجزاء: ١.

❁ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة ١٤٠٩هـ.

❁ تاريخ الطبري، لأبي جعفر بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.
- تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١٦.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.
- التحصيل من المحصول، المؤلف: سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرْمَوي (المتوفى: ٦٨٢ هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الحميد علي أبو زنيد، أصل الكتاب: رسالة دكتوراه، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٢.
- تحفة المسؤول في شرح مختصر منتهى السول، المؤلف: أبو زكريا يحيى ابن موسى الرهوني (المتوفى: ٧٧٣هـ)، المحقق: جـ١، ٢/ الدكتور الهادي ابن الحسين شبيلي، جـ ٣، ٤/ يوسف الأخضر القيم، الناشر: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي، الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ٤.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة، عدد الأجزاء: ٢.

* التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد بن عودة السعوي، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: السادسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
* تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ (مطبوع ضمن مجموع رسائل ابن عبد الهادي)، المؤلف: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المِبْرَد الحنبلي (المتوفى: ٩٠٩ هـ)، عناية: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م، عدد الأجزاء: ١.
* التذكرة في علوم الحديث، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، قدم لها وضبط نصها وعلق عليها: علي حسن عبد الحميد، الناشر: دار عمَّار، عمَّان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
* الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
* التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
* تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق:

د. إكرام الله إمداد الحق، الناشر: دار البشائر ـ بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٢.

- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.
- تفسير البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر، وعثمان صميرية، وسليمان الحرش. دار طيبة، الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ.
- تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)،

تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلد ٢٤ مجلد ومجلدان فهارس.

- تفسير القرطبي، طبعة دار الشعب، القاهرة، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.
- تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد ابن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، عدد الأجزاء: ٦.
- تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عدد الأجزاء: ١.
- التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.

* تهذيب التهذيب، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ، عدد الأجزاء: ١٢.
* تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية، مصر.
* التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١.
* جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية١٤٢٠هـ.
* الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض، عدد الأجزاء: ٢.
* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- ❁ الخلاصة في معرفة الحديث، المؤلف: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، المحقق: أبو عاصم الشوامي الأثري، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع - الرواد للإعلام والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء: ١.
- ❁ الدر المنثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت، عدد الأجزاء: ٨.
- ❁ درء تعارض العقل والنقل، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، عدد الأجزاء: ١٠.
- ❁ الديباج المُذَهَّب في مصطلح الحديث (مطبوع مع شرح منلا حنفي عليه)، المؤلف: يُنسب لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، مصحح بمعرفة لجنة: برئاسة الشيخ حسن الإنبابي، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - بمصر، باشر طبعه: محمد أمين عمران، عام النشر: ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م، عدد الأجزاء:١.
- ❁ ديوان ابن الرومي، المؤلف: علي بن العباس بن جريج ابن الرومي، المحقق: أحمد حسن بسج، حالة الفهرسة: غير مفهرس، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢٣ - ٢٠٠٢، عدد المجلدات: ٣، رقم الطبعة: ٣.

❁ ديوان المتنبي، أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار المعرفة بيروت.

❁ رسالة في أصول الحديث (مطبوع ضمن كتاب: رسالتان في المصطلح)، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: علي زوين، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ، عدد الأجزاء: ١.

❁ رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: عالم الكتب - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٩م - ١٤١٩هـ، عدد الأجزاء: ٤.

❁ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

❁ روضة الناظر، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

❁ زاد المسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الجنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

* زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ.
* الزهد والرقائق لابن المبارك، يليه «مَا رَوَاهُ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ فِي نُسْخَتِهِ زَائِدًا عَلَى مَا رَوَاهُ الْمَرْوَزِيُّ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ»، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.
* الزهد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ١.
* الزهد، هناد بن سري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
* سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦، عام النشر: جـ ١ - ٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، جـ ٦: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، جـ ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

- السنة لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- السنة، اسم المؤلف: محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: سالم أحمد السلف.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.
- سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.
- سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- السنن الصغرى للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- السنن الصغرى للنسائي (المجتبى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- السنن الكبرى للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

❁ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.

❁ السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المؤلف: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية - ١٤٢٧هـ، عدد الأجزاء: ٣.

❁ السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ١٤٠٦هـ.

❁ السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.

❁ السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، صحّحه، وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الناشر: الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٧ هـ، عدد الأجزاء: ٢.

❁ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

❁ شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

* شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد»، المؤلف: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: ٧٧٨ هـ)، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ، عدد الأجزاء: ١١ (في ترقيم مسلسل واحد) (١٠ ومجلد للفهارس).
* شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١٥
* شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٢.
* شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١ هـ، عدد الأجزاء: ٢.

* شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
* شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
* شرح مختصر الروضة، المؤلف: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: ٧١٦هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٣.
* شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
* شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، عدد الأجزاء: ١.
* الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.
* صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

- صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
- الصفدية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية١٤٠٦هـ.
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٤.
- طبقات الحنابلة، المؤلف: أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: ٥٢٦هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، عدد الأجزاء: ٢.
- طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، عدد الأجزاء: ١٠.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- العرش وما روي فيه، محمد بن عثمان بن أبي شيبة، تحقيق محمد بن حمد الحمود، مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

- العظمة، لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، المؤلف: أحمد بن عبد الرحيم ابن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ (الشاه ولي الله الدهلوي) (المتوفى: ١١٧٦هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة.
- العقد المنظوم في الخصوص والعموم، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (٦٢٦ - ٦٨٢ هـ)، دراسة وتحقيق: د. أحمد الختم عبد الله، الناشر: دار الكتبي - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٢.
- العلل الواردة في الأحاديث النبوية، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر ابن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المجلدات من الأول، إلى الحادي عشر، تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، والمجلدات من الثاني عشر، إلى الخامس عشر، علق عليه: محمد بن صالح بن محمد الدباسي
- العلم، اسم المؤلف: زهير بن حرب أبو خيثمة النسائي، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٣ - ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

- العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، لشمس الدين الذهبي، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- غريب الحديث، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨ هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر - دمشق، عام النشر: ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، عدد الأجزاء: ٣.
- الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي، قدَّم له وعرَّف به حسين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، الطبعة السابعة ١٣٧٧هـ.
- فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٤.

- الفردوس بمأثور الخطاب، المؤلف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه ابن فناخسرو، أبو شجاع الديلميّ الهمذاني (المتوفى: ٥٠٩هـ)، المحقق: السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٥.
- الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
- الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، الناشر: عالم الكتب، عدد الأجزاء: ٤.
- فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- الفوائد السنية في شرح الألفية، المؤلف: البرماوي شمس الدين محمد ابن عبد الدائم (٧٦٣ - ٨٣١ هـ)، المحقق: عبد الله رمضان موسى، الناشر: مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، الجيزة - جمهورية مصر العربية [طبعة خاصة بمكتبة دار النصيحة، المدينة النبوية - المملكة العربية السعودية]، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، عدد الأجزاء: ٥.
- القضاء والقدر، المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة: الثالثة عشر، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

- قواعد الأصول ومعاقد الفصول مختصر تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل، المؤلف: عبد المؤمن بن كمال الدين عبد الحق البغدادي الحنبلي صفي الدين، المحقق: علي عباس الحكمي، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة، سنة النشر: ١٤٠٩ - ١٩٨٨، عدد المجلدات: ١، رقم الطبعة: ١، عدد الصفحات: ١٢٣.
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، المؤلف: محمد جمال الدين ابن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، عدد الأجزاء: ١.
- القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، المؤلف: محمد بن علي بن محمد ابن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد الخالق، الناشر: دار القلم - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦.
- الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية١٤١٥هـ.
- الكامل في ضعفاء الرجال، اسم المؤلف: عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩ - ١٩٨٨، الطبعة: الثالثة، تحقيق: يحيى مختار غزاوي.
- كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر:

مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٢.

- كشف الأستار عن زوائد البزار، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر ابن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٤.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١٠.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥
- اللمحة في شرح الملحة، المؤلف: محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ (المتوفى: ٧٢٠هـ)، المحقق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ٢.
- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق: بدر بن عبد الله البدر. الدار السلفية، الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، وبيروت.
- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- مجموعة القصائد الزهديات، المؤلف: أبو محمد عبد العزيز بن محمد ابن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الناشر: مطابع الخالد للأوفسيت - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ، عدد الأجزاء: ٢.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي.
- المحصول، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة

العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

* المدخل إلى السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت، عدد الأجزاء: ١.
* مذكرة في أصول الفقه، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ١.
* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، المؤلف: عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (المتوفى: ٧٣٩هـ)، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ، عدد الأجزاء: ٣.
* مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله، المؤلف: عبد الله بن أحمد ابن حنبل، سنة الولادة ٢١٣ هـ/ سنة الوفاة ٢٩٠ هـ، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠١هـ ١٩٨١م، مكان النشر: بيروت، عدد الأجزاء: ١.
* المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
* المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)،

جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء.

- مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
- مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- مسند أحمد بن حنبل ـ النسخة المحققة بإشراف شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤١٩هـ.
- مسند إسحاق بن راهويه، تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- مسند الشافعي، اسم المؤلف: محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
- مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي ابن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٦، عدد الأجزاء: ٢.

❁ مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

❁ مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٣.

❁ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد).

❁ مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

❁ مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

❁ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، المؤلف: حافظ ابن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، المحقق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ٣.

❁ معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٥.

- المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ.
- معجم البلدان، المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ٧.
- معجم الصحابة، اسم المؤلف: عبد الباقي بن قانع أبو الحسين، دار النشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة - ١٤١٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: صلاح بن سالم المصراتي.
- المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- معجم الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ابن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ، عدد الأجزاء: ١.
- المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.
- المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.

* المعجم في أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي، اسم المؤلف: أحمد بن إبراهيم ابن إسماعيل الإسماعيلي أبو بكر، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. زياد محمد منصور.
* معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة١٤٢٢هـ.
* معرفة السنن والآثار، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق -بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ١٥.
* معرفة الصحابة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق ابن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: عدد الأجزاء: ٧ (٦ أجزاء ومجلد فهارس).
* المعرفة والتاريخ، اسم المؤلف: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، تحقيق: خليل المنصور.
* مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا).

- مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، مؤلف «علوم الحديث»: عثمان بن الصلاح عبد الرحمن بن موسى بن أبي النصر الشافعي (٥٧٧هـ - ٦٤٣ هـ)، مؤلف «محاسن الاصطلاح»: عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، العسقلاني الأصل، ثم البلقيني المصري الشافعيّ، أبو حفص، سراج الدين (المتوفى: ٨٠٥هـ)، المحقق: د عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) أستاذ الدراسات العليا، كلية الشريعة بفاس، جامعة القرويين، الناشر: دار المعارف، عدد الأجزاء: ١.
- الملل والنحل، للشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.
- المنتخب من مسند عبد بن حميد، المؤلف: أبو محمد عبد الحميد بن حميد ابن نصر الكَسّي ويقال له: الكَشّي بالفتح والإعجام (المتوفى: ٢٤٩هـ)، المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، الناشر: مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨، عدد الأجزاء: ١.
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٩.
- منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي،

بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ)، المحقق: د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦، عدد الأجزاء: ١.

- موضح أوهام الجمع والتفريق، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧، عدد الأجزاء: ٢.
- موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر.
- ميزان الأصول في نتائج العقول، المؤلف: علاء الدين شمس النظر أبو بكر محمد بن أحمد السمرقندي (المتوفى: ٥٣٩ هـ)، حققه وعلق عليه وينشره لأول مرة: الدكتور محمد زكي عبد البر، الأستاذ بكلية الشريعة - جامعة قطر، ونائب رئيس محكمة النقض بمصر (سابقا)، الناشر: مطابع الدوحة الحديثة، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عدد الأجزاء: ١.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م، عدد الأجزاء: ٤.
- النبذة العثيمينية في مصطلح الحديث -سِلْسِلَةُ مُتُونِ الكُتُبِ وَمُخْتَصَرَاتِهَا (٢)، المؤلف: حازم خنفر، عدد الأجزاء: ١.

- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة١٣٨٦هـ.
- نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (مطبوع ملحقا بكتاب سبل السلام)، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عصام الصبابطي - عماد السيد، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الناشر: مطبعة سفير بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ١.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان ص. ب ١٠، الطبعة: الجزء: ١ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠، الجزء: ٢ - الطبعة: ١، ١٩٩٧، الجزء: ٣ - الطبعة: ١، ١٩٩٧، الجزء: ٤ - الطبعة: ١، ١٩٩٧، الجزء: ٥ - الطبعة: ١، ١٩٩٧، الجزء: ٦ الطبعة الأولى ١٩٦٨ـ طبعة جديدة ١٩٩٧، الجزء: ٧ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠، عدد الأجزاء: ٨.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، الناشر المكتبة العلمية، سنة النشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، بيروت، عدد الأجزاء ٥.

- نوادر الخلفاء المشهور بـ«إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، المؤلف: محمد، المعروف بدياب الإتليدي (المتوفى: ق ١٢هـ)، المحقق: محمد أحمد عبد العزيز سالم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ٤.

المحتويات

تم بحمد الله